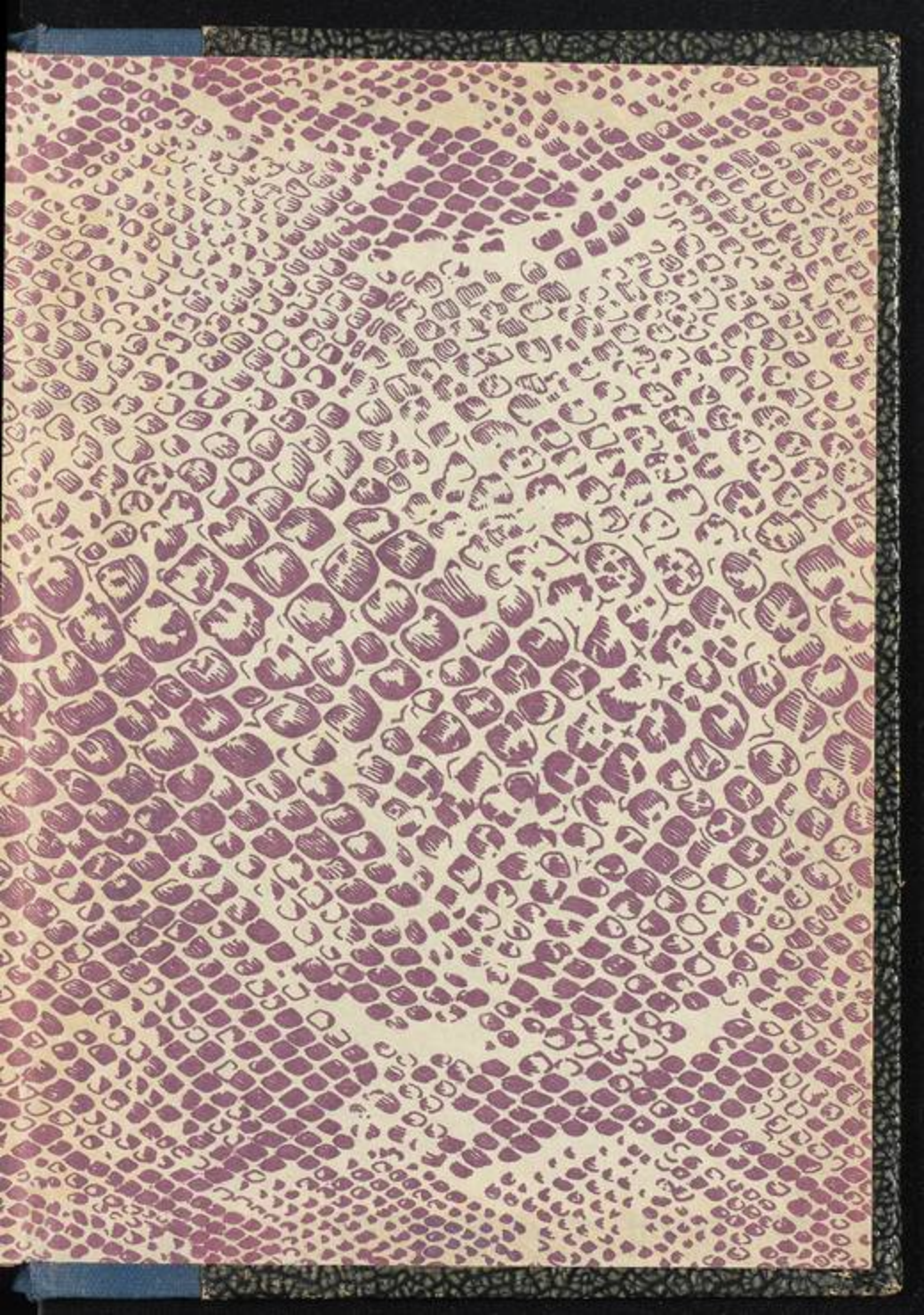

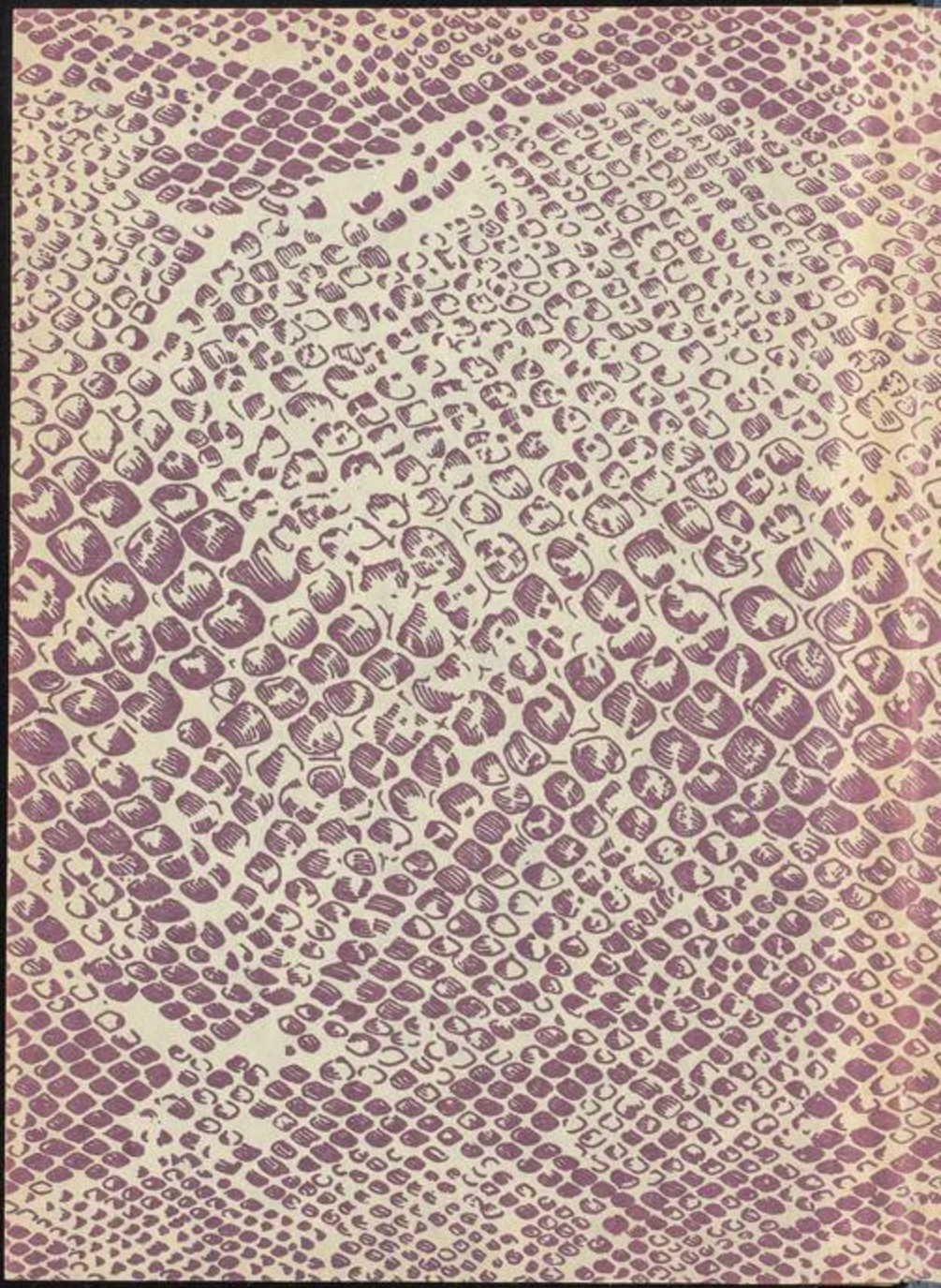

كتاب المساكين

« بقلم »

مصطفى صادق الرافعي

التزم طبعه

(صاحب المكتبة الازهرية بالسكة الجديدة بمصر)

(حق الطبع محفوظ)

(مطبعة المعاهد بمصر) (سنة ١٣٣٥ هـ ١٩١٧ م)

صفحة

من كمال النُّبُوَّة وكلام صاحب الخُلُق العظيم

« كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلَّم يقول »
« فى دُعائهِ : اللَّهمَّ أحْيِني مِسْكيناً وأمِتْني »
« مِسكيناً واحْشُرْني في زُمْرَةِ المَساكين . »
« فقال له أنَسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه : »
« يا رسولَ الله إنك لتُكْثِرُ من هذا الدعاءِ »
« قال يا أنسُ : إنَّ رحمةَ اللهِ لا تُفارقهم »
« طَرْفَةَ عَيْن . »

وخُيِّرَ عليه الصلاة والسلام أن يكونَ له مثلُ أُحُدٍ[1] ذَهَباً فقال : لا يا ربِّ ، أجُوعُ يوماً فأدعوكَ وأشْبَعُ يوماً فأحْمَدُكَ .

---

(١) جبل بالمدينة

صفحة من الغيب

لما أجمعتُ النيةَ على طبع هذا الكتاب وقد أوْشَكَ على التمام ، وبَرَقَ في ليل سواده صبحُ الختام ، رأيت فيما يرى النائم أني فى دار الطبع التي اخترتها له وقد سألني جامع الحروف أن أكتب المقدمة ليبدأ منها ، فكتبتها ثمَّتَ ودفعتها اليه ثم استيقظت وما برحت تدور على لساني ، وتالله إن خرَمْتُ (١) منها حرفاً وهذه هى بنصها وكأنها

فاتحة للكتاب من قلم الغيب :

« هذا كتاب المساكين . فمن لم يكن مسكيناً لايقرؤه لأنه »
« لايفهمه (٢) . ومن كان مسكيناً فحسبي به قارئاً والسلام . »

« الرافعي »

---

(١) أي مانقصت (٢) قل أن يوجد فى أهل الفهم رجل واحد لاتفهمه طبيعة الحياة الدنيا أنه مسكين

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

هـذا كتابٌ حاولتُ أن أكسوَ الفقر من صفحاته مُرَقَّعةً جديدة ... فقد والله بَلِيَتْ أثواب هذا الفقر وإنها لَتَنْسَدِلُ على أركانه مِزَقاً مُتَهَدِّلةً [(١)] يمشي بعضُها في بعض ، وانه ليَلْفِقُها [(٢)] بخيوطٍ من الدمع ويُمْسكها بِرُقَعٍ من الأكباد ويَشُدُّها بالقِطَع المتنافرة من حسرةٍ الى أملٍ وأمل الى خيْبةٍ وخيبةٍ الى همٍ ، وأقبح من الفقر أن لا يظهرَ الفقر كاسياً أو تكون له زينـة الا من أوجاع الانسانية أو المعاني التي يتمنّى الحكماء لو أنها غابت في جماجم الموتى [(٣)]

---

(١) أي قطع مسترخية (٢) لفق الثوب ضم شقة منه الى شقة

(٣) أى الافكار الساقطة مما هو مبعث الجريمة والرذيلة

وأنت فربما رأيت الرجل من الناس وبه من جمال الدنيا مَسْحَةُ الدينار ، وعليه من نَضْرَة هذه الحياة ألوانُ الجنة والنار . . ، وما تشكُّ فى أنه واسعُ البَسْطة عريضُ النعمة طيِّبُ المَكْسَبة وهو على ذلك رُقْعَةٌ خَلِقة فى أذيال الفقر يجرِّرُها على أقذار الحياة وأدناسها ولو نَطق له الغنى لقال دَعْني فما كل ذي مَتْرَبةٍ فقير ولا كل ذي مَثْرَاةٍ غني (١) . والفضائلُ قائمةٌ فى الدنيا بالصِّغار والفقراء ولكن من نَكَد الدنيا أن عنوانها هم الكبراء وحدهم ، على أن أكثر هؤلاء لا تكون منهم فى كل أمة الا الطبقةُ المنحطةُ انحطاطاً . . عالياً . . . فالناس مخطئون فيما اعتبروا به معنى الفقر إذ حصروه من جهاته الأرضيَّة وقد ترَامَتْ وضَيَّقُوا من حدوده السماوية وقد تراحَبَتْ (٢) وانما هو طبقة معنوية فوق الأرض وانما هو أُسْلوبٌ خاصٌ فى نظام الكون ولا سبيل الى التنقيح والتحرير فى أساليب الله نَصْرِفُها عن معانيها أو نَتَكَذَّبُ

(١) المثراة ما يكون سببا لتكثير المال (٢) ترامت وتراحبت بمعنى اتسعت

فى تأويلها أو نَرُدُّ عليها ما ليس منها ، وانما الشأن كلُّه أن نُحسِن الفهمَ عن أوضاع القدرة الالٰهية بمقدار ما نستَبينُ فيها من الحكمة فان فى ذلك صلاحَ أنفسنا ، وما جعل الله سبيلَ المصلحة والمَفسَدَة الا من أفهامنا حتى إن الأدمغة لتُعَدُّ من أكبر العِلَل فى أمراض التاريخ الانساني وربما كانت العلة الكبرى في طائفة من الطوائف صورةً أثريَّة لأكبر رأس فيها . فان نحن أسأنا الفهمَ أو ذهبنا به المذاهبَ أو أفسدنا من تأويل حكمة الله أو غيَّرنا أو بدَّلنا فذلك واقعٌ بنا لا يَعْدُونا وما يستَوْلي على الكون من جهلنا اضطرابٌ ولا تَلحَقُ به آفة فى وَضْع من أوضاعه وإنَّ الله لا يَظْلِمُ النَّاسَ شيئاً ولكنَّ النَّاسَ أنفُسَهُمْ يظلمون .

وما دام في هذه الدنيا شيء من المادة أو المعاني يُحتاج اليه أو يتَوَهَّم أحد أنه محتاج اليه ففي الدنيا الفقر .

وما دام للناس رغبةٌ يَتَنافسون فيها أو يرفعون من شأنها بالمنافسة فثَمَّ الحسَد . وما دام فى الغيب أيَّام وآمالٌ وفي الدنيا فقرٌ وحَسَد فهناك الطمع .

وما دام لهؤلاء الناس من أشيائهم ما تحملهم أخلاقهم على الضنّ به أو يكونُ سبيله من الطبيعة أن يُضَنّ به ، وفيهم الفقر والحسدُ والطمع فثمَّ خبْءُ السُّوء والرذيلةُ الماحقة وثمَّ البخل . وان البخل وحده لفي حاجة الى نَبيّ يُصْلِحه .

وهذه أخلاق أعْرَقَتْ فيها الانسانية ولا بد منها ومن فروعها حتى يظلّ الناس ناساً لا ملائكة ولا شياطين فانّ من عجيب حكمة الله انه لا صلاح للعالم الا بالفساد الذى فيه

بَيْدَ أنّ في كل شر جهةً من الخير أوجهةً تتصل بالخير فاذا صَلُح فهمه صَلُح هو أيضاً أو كأنه صلح لظهور حكمته والوقوف به عند حدّ الشرّ الطبيعي وهو الشر الذي لا بد منه .

فليكن الفقر والحسد والطمع والبخل ولكن برضاً يمنع السخط وسكون يكْسِر شِرّةَ النفس ورفق لا يَعْنُف على الحق واعتدال يُقِرُّ كل شيء على حدّه . يومئذ يجد الانسان فى كل نَزْوَة من نزَوَات جنونه شيئاً من الحكمة ، أو على الأقل شيئاً يمكن من بعض الوجوه أن يسمى في باب المنفعة الانسانية حكمة .

* * *

ولقد كان الفقر عُرْيانَ يوم كان آدمُ فى الأرض وليس عليه الا ماخَصَفَ من وَرَق الجنة[1] . وعاش دهراً تحت السماء يلبس من ضياء كل كوكب ويمرحُ فى ثياب بيضاء من أشعة القمَرَين إذ لم يكن يعرفه أحد بعدُ ولا استطار به سَماعُ السُّوء[2] فى الأحياء ، بل كان عُنْصُرًا مجهولاً فى غيب الطبيعة. ولم يكن لهذا الانسان يومئذ من المعاني الفقرية . . . غيرُ شعور طبيعي لازَيْغَ في تأويله عن الطبيعة وهو شعور المَعِدَة القوية المَعْصُوبة التي لاتحتمل الشعرَ والخيالَ وفُنُونَ الكذب العقلي ولا تشعر الا لِتَطْلُبَ ولا تطلبُ الا ماتجد ، ومتى وَجَدَت وانْطَفَأَ نَهَمُها[3] فليس الاَّ قوة الجسم وانبساطُ النفس وحمدُ الله فى كل ضَرْبٍ من ضُروب الجمال فى الخليقة .

ثم كانت عداوة ابْنَيْ آدمَ إذ قرَّبا قُرْبانًا فتُقُبِّلَ من أحدهما ولم يُتَقَبَّل من الآخر ، وفُتِحت الصفحةُ الأولى من

(١) خصف الورق على بدنه ألزقها وأطبقها عليه ورقة ورقة

(٢) أى الذكر بالسوء (٣) النهم إفراط الشهوة في الطعام

تاريخ الدم الانساني فى الأرض فكان البغض أول سطورها وجاء من بعده الفقر وخُطَّت بعد ذلك سطور وسطور كلها يلتقي الى هـذين المعنيين . يومئذ عُرف هـذا الفقر وأصبح يَتلبَّس فى كل إنسان بمعنى يُلائمه إذ لم تَعُد الحياةُ هي الحياة بل الوسائل التي يُدْفع بهـا الموتُ ومنها الموتُ نفسه ، فصار البغض وسيلة والحسد وسيلة والطمع وسيلة والقتـل وسيلة وكل ذلك لأَن الانسان فقير بمعنى من معاني الفقر وما البغض الا فقر من المحبة ولا الحسد الا فقر من الثقـة ولا الطمع الا فقر من الرضا ولا القتل الا فقر من العقل .

وإن أردت العَجَبَ فاعْجبْ لهذه الطباع الانسانية إذ يُحاول كل امرئ أن لا يفهم من معنى الفقر الا ما يمكن أن يُجْرِيَهُ على الناس كافةً حتى لا يكون هو وحده المُبْتَلَى فى نفسه المُمْتَحَن فى سعادته وحتى يجد مادة العزاء من حيثُ التمسها . فالفقر على ذلك هو العوَزُ الى المال ، وهذه بليَّةٌ عليها يحيا الناسُ وعليها يموتون . ولقد كان الفقر قبل أن يكون المال ثم وُجِد المالُ فما مَنَعَ أن يلقى أهله الأغنياء

من هموم الدنيا وبأساءِ الحياة ما لو استطاعوا لا فتدَوْا من عذابه بكل ما فى أيديهم ولو أن لهم طِلاعَ الارض[1] ذهباً. ووُجد المال فما مَنَعَ الفقراءَ أن يخوِّلهم الله من رحمته التي لا تفارقُهم طرْفَةَ عيْن ما لا يحبون أن لهم به من الدنيا ولا الدنيا كلَّها.

دخل بعض الفقراء[2] على الرشيد العباسي وتاجه يومئذ سبيكة العصر الذهبي فى تاريخ الاسلام والاسلامُ يومئذ ترتجفُ به دِفتا الشرق والغرب وكأن الشمس والقمر يتلألآن على أرجاء ملكه ذهباً وفضة، وكانت في يد الرشيد كأس ماء وقد رفعها إلى فمه فلما أبصر ذلك الملكَ الذى لا يملكه شيء أمسك ثم قال له عِظْنى. قال أرأيتَ يا أمير المؤمنين لو مُنِعت عنك هذه الشربة التي في يدك أفكنت تطلبها بكل ملكك؟ قال بلى. قال أفرأيت لو شربتها ثم امتنع خروجها منك أكنت تفتدي من عاقبة ذلك بكل

(١) أى ملء الارض (٢) هم الصوفية ولقب الفقير أشرف ألقابهم لأنهم أهل الحقيقة

ملكك ؟ قال بلى . قال الرجل الصالح فانظر يا أمير المؤمنين ماقيمة مُلك لايساوي عند قَدَر الله شَربة ولا ... ولا بَولة !

كذلك يحاول الناس أن لا يُخطئوا الرأي فيما يَستحبُّونه أو يطمئنون به وكأنهم لذلك يحاولون أن لا يصيبوا الحق فيما يكرهونه أو ينفرون منه ، فكلهم سواءٌ في ابتغاء السعادة المتوهَّمة التي لا يستحيل أن تتفق ولكنها لا تتفق إذ يريدها كل امرئ على غير ماينا سب تكوينه الانساني .. وهم بعدُ على سَواءٍ من خشية الفقر لا تبرح أوهامُهم تَنتَجي [1] بمعانيه وهمومه ثم لا تبرح تَنْعي بها حتى صار الفقر في أنفسهم غير الفقر في نفسه ، وقد علم الله أنه ما من انسان الا وفي تكوينه معان كثيرة منه . على أن السعادة الممكنة أو التي يمكن أن تسمى سعادة انما يكون زمامها الحسَّ إذ هو الوسيلة لادراك الجمال وتعرُّف المواضع المعنوية في المادَّة والاهتداء في صُنْع الله الى أسرار الحكمة ، وليس من لذة يصيبها الانسان

(١) أي تتناجى

فيسميها لذة الا وهي شيء معنوي يجيء من طريق الحس فيشعر هذا الانسان أن فيه معنى لم يكن فيه وكأن اتصال شيء من سرّ النفس بشيء من سر الطبيعة هو السعادة .

غير أن العجيب الذي ما يُقْضَى منه عجباً أن ذلك الحس كلما نضج واستمرّ [1] كان أشدّ إدراكاً للآلام منه للذات حتى ان الرجل الرقيق ليتألم للناس أكثر مما يتألم لنفسه ، فهل ذلك الا أن حكمة الله قد أقرّت في تركيب الانسان من عناصر الفقر أكثر مما وضعت من عناصر الغنى ؟

وما أشبه نفوس الناس فى هذه الحياة بالزجاج سُلِّط عليه نور الشمس ، فما كان من طبعه رديئاً غير مصقول أو مُهْمَلاً قد شاع فيه الصَّدأ فذلك متى ألَحَّتْ عليه وَقْدَةُ الجوّ حَمِيَ وتضرّم فى ذات نفسه . وما كان من طبعه صافيَ الماء باديَ الرونق نقيَّ الصفحة رأيته فى توقده واضطرامه كأنما يَمُجُّ من شعاع الشمس لَهَباً يتطاير . فان كانت الزجاجة قد أُخْلِصَت فى سبكها وصُنِعت على الوجه الذي يجمع الضوء ويعكس منه

(١) استمر الامر أي انقاد

وأُحكمت من هـذه الناحية فهناك تبلغ من دقة الحسّ مبلغ الأنفس الرقيقة المهذّبة فـلا تكاد تُرسل عليها الشمس من نورها حتى يرجعَ فيها ناراً تَلَظَّى .

ومتى اعتبرنا الشقاء الانساني وما يعترض الانسانَ في طريق الحياة رأينا الحق الذي لا مِرْيةَ فيه أن هذا الانسان حين تمشي راحلته الى القبر [1] لايكون قد انتهى من الحياة كما يقال ولـكنه ينتهي حينئذ من الموت

فهذا التركيب الانساني المعجز بقليله وكثيره وجملته على السَّوِيَّة والذي استَشْرَفَ منه العقل لأسرار هـذا العالَم كما تُوجَّه مرآةُ المَرْصَد الى السماء — لم يشهده عصر من عصور الدنيا قط الا ذاهباً الى الفناء بما كَسَبَ وما اكتسب حتى ليمكن أن يقال ان حياة الحي مصيبة تكبر كلما كبر . . . فكيف لَعَمْري يحتمل هـذا التركيب الهالك أن يسعد الا بمقدار ما يُدْني الى الفهم معنى السعادة الأبدية التي ليست

(١) كناية عن الجنازة ويقال من المجاز مشت رواحله اذا شاب وضعف ولـكنا استعملناها كما ترى فأصابت حقها .

من هذا العالم كما تريد أن تُفْهِم الطفلَ شيئاً في نفسك فيراه معنى مُتَمَرِّداً عاتيا فلا تزال أنت تُصغر منه وتمسخه وتُحيله عن وضعه وتقلبه على وجوه مختلفة الى أن توافق صورةٌ من هذه الصور فهمَ الصغير الضعيفَ المتحاملَ على نفسه فيدركَ الوجه الذي أردتَ على الوجه الذي يُريد هو ويعلم ما ترمي اليه على الطريقة التي لا تعلمها أنت . ولعل هذا هو السبب في أن الفطرة الانسانية لا تزال من أول الدهر ضالّة في طلب السعادة تَستَرْحِلُ(١) اليها كلَّ معنى ثم لا تصل اليها بمعنى ، فان السعادة الدنيوية في التركيب الانساني إنما هي بمقدار لُغَوي أو ما يشبه المقدار اللُّغوي لا غير .

واذا نحن اعتبرنا هذا الوجودَ الفاني بما وراءه من عالَم الغيب رأينا كل صِنْف من الموجوات كأنه لُغَة متميزة بخصائصها أوجدها الله في هذه الحياة لتدل عليه بنوع من الدلالة أو ضَرْب من المجاز ، فأينما مدَّ الانسان عينيه رأى لفظاً كالاشارة أو اشارةً كاللفظ . ولكن قُتِل الانسان

(١) أى تركب وتتخذ كل معنى راحلة وظهرا .

ما أكفره . فان ما لا يريد أن يفهمه ليذكره ويتذكر به أكثر مما فهمه لينساه . ولقد رأى أن مافوق الارض وماتحت السماء لا يدله باشارة واحدة على أنه خالد في هذه الحياة الدنيا

بيد أن الانسان كما يكذب فى الكلام يكذب في الفهم فهو أبداً يحتاج (لشقوته) من هذه الطبيعة الى أشياء تضل عواطفه كما يحتاج الى أشياء تهديها ، ومن ههنا اقتحمت أهواؤه ونزغاته على الطبيعة وعلى الشرائع والأديان والتبست فى رأيه معاني الأشياء التي تتصل بنفسه ، فظهر من الغنى مايشبه الفقر ومن الفقر مايشبه الغنى وصارت الحياة كلها جهاداً وشقاءاً ونصباً لأن المشكل فيها أكثر من الواضح ولأن الطريقة التي يتبعها الانسان الراقي . . . فى حل هذه المشكلات التي تعترض مطامعه وأغراضه هي أن يحل مسألة بوضع مسألة مثلها . . . ذلك لأنه لا يهتدي الى الكمال فى شيء ، وهو ناقص ولا يذعن أنه ناقص . والا فما باله يرى الحكمة الأزلية قد جعلت قوام صحته على القليل من الطعام دون الكثير وعلى الخفيف دون الثقيل وعلى الرخيص دون

الغالي وعلى الطعام كما يُفيد ، دون الطعام كما يريد ... ثم هو يأبى الا أن يَعدَّ هذه الصفات وأشباهها فى باب القِلّة من الفقر ويعتبرَ نقائِضها وما جرى مجراها فى باب الكثرة من الغنى . ثم يضرب الله على بصره ويَطْبَع على قلبه فلا يرى لحاجته فى الغنى من بَلَاغ وسبب الا أن يكونَ المبالغةَ في الادّخار والإغراقَ في الجمع والطِّماحَ كلَّ مَطْمَح وأن يَسْتَأْكِلَ الناسَ فيكونَ عليهم أَكْلَبَ (١) من الجوع وَيَسْتَصْفِيَهم فيكون فيهم أسرع من المرض ويَسْتَنْزِلَهم فيكون معهم أشبه بالرذيلة ؛ ونحن نعرف الكَدَّ والحرص والبخل والشَّرَه والضَّراوة وكل الرذائل الاجتماعية ونَصِفُها ونحدُّها بآثارها وحقائقها وكأننا لا نعرف أن كل رذيلة هي إنسان من الناس . وقد رأينا الحكومات تجمع الأنواعَ من الجماد والنبات والحيوان وتؤلف منها الكتب الحية على نسق الطبيعة نفسها وهى تلك التي يسمونها « المعارض » و « المتاحف » ولم نر حكومة واحدة أقامت معرضاً حيوانياً لأشخاص

(١) كلب الجوع سعاره وشدته . واستأكل الناس أخذ أكل من أموالهم .

الرذائل يُدْرَسُ فيه علمُ المقابلة بين الطباع في الانسان وبين الغرائز فى الحيوان ، وعلمُ الانحطاط الاجتماعي وفنُّ الطبقات السُّفلى من الحياة وتؤخذُ منه أمثلة الاعتبار والموعظة والنصيحة فى أبواب مختلفة، ولو فعلت ذلك أمة من الأمم لرأى الناس فيما يرون هناك من كبار اللصوص وأهل الإثم والشر والفساد عدداً كبيرا .. من كبار .. من كبار الأغنياء .. ، ثم لرأوا كيف يتصل تاريخ الطمع بتاريخ البخل وكيف يتصل هذا بتاريخ الغنى ولظهر لهم بطلانُ معانٍ كثيرة مما يعده الناس فى باب الحقائق إذ لا تجد الرذيلةُ هناك من يكابر فيها أو يُغرَّ بها أو يُناضِل عنها ولا صاحبَها نفسه لأنه فى قفص من أقفاص المعرض ... وكأنه معنى من الباطل محبوس فى شكلٍ من البرهان على فساده .

وليت شعري وذلك معنى الغنى هل يَظُن من اجتمعت له نفقة ألف سنة أنه سينال فيما بقي من عمره القصير لذة كلذة عيشه ألف سنة ، وأنه اذا ادَّخر ما يقوم بمائة ألف إنسان فقد صار هو فى الأرض مائة ألف بطن .. ؛ إن حياة الغني

على هذا الوجه لا تكون الا موتاً على طريقة الحياة . . .
فليس الإسراف في جمع المال والكَلَبُ عليه الا طريقة دنيئة لإنفاق العُمر وليس حبُّ المال والبخلُ به الا وجهاً من بغض الناس . وازدرائهم وانما البخل في رأي أهله وسيلةُ الغنى وسَنَنُهُ القريبُ وهو مهما احتجُّوا له وتمحَّلوا فيه وناضلوا عليه ليس أكثر من كونه شعورا ذا جهتين : فأما من جهة البخيل فهو الحب للنفس لا غير ، وأما من جهة النفس فهو البغض للناس لا أكثر ولا أقل . ولَأَيْسَرُ على الناس أن يَرْتَوُوا من رَشْحِ الحَجَر ويغتذوا بلبن الطير (١) من أن يجدوا في الرجل البخيل بغضاً لشيء من المال يَرْضَخُ به محبةً لهم وشفقة عليهم وحناناً من لَدُنْهُ . وقديماً كان البخيلُ أبغضَ الناس لهم وأبغضَهم اليهم وأبغضَهم فيهم وما أقبح هذا البخلَ أخْزَاه اللهُ أن يكون بغضاً ثلاث مرات .

ولو أن رجلاً من هؤلاء الذين بَسَطَ الله لهم فقبضوا وجاد عليهم فبخلوا وأعطاهم فأمسكوا — قد أراد الله به خيراً

(١) كناية عن المستحيل

فوقاه شُحَّ نفسه ويَسَّرَ له في أخلاقه ومكَّن له فى باب البذل والجود وآتاهُ من حب الخير بعضَ ما ابتلاه من حب المال، لرأيتَ حياته تَوْسِعةً على قوم فى معاشهم وإحياءا لقوم فى آمالهم وعَتَاداً لقوم فى أعمالهم ومنفعةً لآخرين من وجوه كثيرة، ولرأيتَ في غناه بركةَ العدل ورحمةَ الأمن وعِصمةَ الخُلُود فكأنه استجمع فى حياته الطيبة خيرات الأعمار الكثيرة وكأنه أمةٌ فى نفسه، ثم لا يكون رجل أَحبَّ الى الناس ولا أجدر بطبيعة الحب الانساني منه، ثم لا تجد اسمه الا فى واحدة من ثلاث: إما صفحة تكتبها الأعمال للتاريخ أو صفحة يُفْرِدُها الناس للأخلاق أو صفحة ترفعها الملائكة الى الله. بل أحْرِ بهذا الاسم الكريم أن يكون يومئذٍ بأعماله وآثاره وحَسَنَاته اسماً لكتاب ضخم فى أيدي ملائكة الرحمة

فهذه آثار كرم النفس لا تنشأ الا بين نوعين من الحب: حب الرجل الكريم للناس وحب الناس لهذا الرجل الكريم، لا هو يَمُنُّهم حقاً عليه ولا هم يظامونه حقاً له؛ ولعمري

كيف يستطيع المَطْلَ أو يستطيعون والدَّينُ الذى وجب على الفريقين هو دَيْنُ القلب ؟ .

ولقد تكلمت السماء فى أزمان مختلفة وهَبَطَ الخطابُ من عرش الله على لسان الأنبياء صلواتُ الله عليهم وما من نبي مُرسَل الا وأنت واجد فى كلامه وشريعته أن تحبَّ للناس ماتحب لنفسك . فهذا الحب الانساني مَحْضٌ من نصيحة السماء ولا بدع أن يكون فيه بعض الدواء لآلام الانسانية الضعيفة ان لم يكن هو الدواءَ كله . انظر بعيشك ماعسى أن تكون آلام الفقر الا صُوَراً من اضطراب النفوس إذ ينصرف بعضها عن بعض وذلك أيسرُ البغض أو ينازع بعضها بعضاً وذلك سببُ البغض أو يكيدُ بعضها لبعض وذلك عينُ البغض ؟

من أجل هذا كان البخيل مادةً من مواد الفقر وان كان هو فى نفسه معنى من معاني الغنى . ولقد يصاب الناس بألوان من العذاب ويُمتَحَنون بضُروبٍ من المكروه وتُرْسَل عليهم الآفاتُ تَختَلِجُهُم من ههنا وههنا غير أنهم

يجدون لكل مصيبة محلاً من الصبر يُمسكونها فيه فتجيء
وحدها وتذهب وحدها وانما هي الغَمَرات ثم يَنْجلين فان
من رحمة الله أن لا يزال الليلُ والنهارُ يترا كضان بيننا وبين
النسيان كما يترا كض البريد فيذهبان بشكوى المصيبة
ويرجعان بالسّلوى أو العَزاء أو نحو ذلك ، ولكن الطائفة
من الناس اذا ابتُليت بالغني البخيل ابتُليت منه بالمصيبة التي
تأكل المصائب إذ يرون فيه أشياء من معاني القَحْط والجَدْب
والوباء والفقر والعداوة والبغضاء وطَرَفاً من كل جائحة
ومعنىً من كل آفة بحيث تضيق به جوانبُ الصبر على سَعَتها
وانفساحها وتَنْزَوي دونه فتختلط كل مصيبة بكل مصيبة،
وليس يأتي على هذا الانسان شيء كتداخل مصائبه بعضها في
بعض فان ذلك يَمْحَقُ الصبر ويذهب بالسّكينة ويُفسد
الرأيَ ويَفْتُقُ على العَزْم من كل ناحيةٍ فَتْقاً ويتركُ المرء
كأنه مجنون بشيء أكبر من الجنون .

*
* *

غرض الكتاب

(وأما بعدُ) فاني قد وضعتُ هذه الأوراق وكتبتُ فيها عن الفقر وما هو من باب الفقر لا لمحوه ولكن للصبر عليه ، ولا من أجل البحث فيه ولكن للعزاء عنه . ثم كتبتُ عن الغنى وما إليه لا رغبةً في إفساده على أهله ولكن لإصلاح ما يَفهم منه غير أهله ، وأدرْتُ الكلامَ في كل ذلك على الوجه الذى يراه الشاعر فى ضحك الطبيعة ورقتها دون الوجه الذى يعرفه الفيلسوف فى عُبوس المادة وجفائها ، ونَحَوْتُ به نَسَقَ العقل فى بَثِّ خواطره للنفس لأني أريد به النفس فى مُسْتَقَرها ، وجئتُ به من مَبْرَق الصبح لا من غياهب الليل ، وأطلعته من أُفُق الإيمان لا من قَرارة الشك ، وأردتُ به تفسير شيء من حكمة الله في شيء من أغلاط الناس فان من ضرائب اللؤم وغرائز السُّوء فى هذا الانسان أنه ما ينفكُّ يحمل نعم الله ورحمته وما لا حدّ له من العناية الالٰهية ولكن كما يحمل الطاووسُ ألوانَه وتَحاسينَه وزينتَه البديعة على

ساقين مجرودتين في الغاية من القبح . . .

ولست أدّعي أن كتابي هذا يسمن من شبع أو يغني من جوع فان هذه العلوم كلها ومجموعة العقول البشرية وتاريخ ما شاء الله من عمران الأرض لا يتهيأ للانسان أن يعجنها ولو أفرغت عليها السماء كل ما في سحائبها ولا يأتي له أن يخبز منها رغيفاً واحداً ولو حملته الملائكة ليضعه بيده في عين الشمس ولا يخرج منها غذاء المعدة الا اذا خرج الحبر الاسود من عرق الزنج . . . ولكني أرمي بالكتاب الى عزة النفس والى الثقة بالله والى الصبر على الفضيلة فان الناس من الشر بحيث لا يعان على الفضائل الا من صبر لها صبر المبتلى ، ثم الى مغالبة الوهم التاريخي القديم الذي نشأ منه معنى الغنى كما نشأ منه معنى الفقر ، وأنت لو انتزعت الأنبياء والحكماء وأهل العزائم من مجموع الخلق لرأيت التاريخ الانساني كله في ذينك المعنيين باباً واحداً من الخطأ . فلقد بالغ الناس في اعتبار هذين الحجرين [1] وأسرفوا على أنفسهم في محبتهما

(١) أي الذهب والفضة وقد سميا كذلك في الحديث الشريف

والكدّ فى طلبهما بأخلاق وشِيَمٍ ليس لأكثرها موضع في الانسان ولا يتسع لها عمره القصير وإنْ هي الامن كلَب الحيوانية فيه بل هى تَطوّرٌ فاسد فى أخلاقه التاريخية فقد كانت الجماعة الأولى تُنازع الحيوانَ وتعاون عليه وكانت الحيوانية قَبيلاً والانسان قبيلاً آخر ؛ وغَبَرَتْ الانسانية على ذلك دهراً ثم انفَرَعَتْ وانشقّت وترامت على أقطار الدنيا فصار لكل أرض إنسانُها وبقي الحيوان كله قبيلاً واحداً . ومن ثَمَّ ظهر أثر الانسان على الانسان وأخذت تلك الحيواناتُ العاقلة تُملي تاريخَ الأرض غير مُهذّب ولا مُنقح بل أصواتاً تتعاوى . . . ويومئذ كان عمل الفرد الواحد للقبيلة كلها لأنه فى الاجتماع بقبيلته لا بنفسه ، وكان الفرد في عهد الجماعة انما يُقاتل على الرزق فأصبح فى عهد القبيلة يقاتل على الطّماح اليه والاستكثار منه ولم يكن فى تاريخه مايَقْدَعُ هذا الطّماح أو يكفُّ منه فاستَرْسَلَ اليه ونشأ من ذلك في نفسه معنى الجمع والادّخار وأن يَمْهَدَ (١) لغيره من بعده .

---

(١) بمعنى يكسب

ثم استفاض الدهر بحوادثه وعصوره وقامت الممالك واستجمعت الأمم واستبحر العمران وما برح ذلك المعنى يتسع ويتتابع ويتلوّن في تاريخ طويل ليس كتابنا بصدده — حتى عاد ذلك القتال الأول فرقاً ثم رقاً الى أن صار قتالا في الاسواق بين جماعات الدراهم والدنانير، وكان النزاع بين فرد وفرد وقوة وقوة فارتقى وتهذب حتى رجع الى أن صار نزاعاً بين خُلق وخُلق وحيلة وحيلة، وبعد أن كان الميدان في رُقعة هذه الأرض صغُر شيئاً فشيئاً أو كبر شيئاً فشيئاً حتى أصبح في رُقعة الضمير . . .

فالانسان المتمدن هو هو ذلك الانسان المتوحش في عمله للقبيلة إذ يَكْنِزُ الكُنُوزَ وَيَعقِدُ العُقَدَ (١) ويربط الأموالَ غير أنه قد حصر معنى القبيلة في نفسه ومن تلزمه نفقته من أهله وولده فلم تتكافأ وسيلة العمل وغايته وجمع كثيراً وأنفق ثم فَضَل عنه كثير فان هو لم ينفق من هذا الفضل على قبيلته الانسانية وأبناء أبيه الأول من الفقراء

(١) هي ما يملكه الانسان من أرض وعقار

والمساكين فذلك الجمع فساد طبيعي وتزيّدٌ في أخلاق الحياة لا تبعث عليه الحاجة ولا تحمله الحاجة التي بعثت عليه . ومن هنا خرج ما في لغات الناس من الذم الأخلاقي الذى هو هجاء الطبيعة بعقولها وشرائعها وأديانها لأكثر الناس

فالرجل يزعم أنه يَجِدُّ ويدَّخر ويحزم ويترقّى والحقيقة تصيح من أفواه الأنبياء والحكماء والفقراء أن ذلك جهل وبخل وطمع وتسفّل . ومن أجل هذا صارت الانسانية لا تتقدم خطوة الا وقفت زمناً تلهث وتستروح مما بها لكثرة ما تحمل من الصناديق والخزائن الثقيلة . . .

فحسبكم أيها الناس . أنظروا الى تركيب الكون واعتبروا سُنَنَ الأقدار فى إدارته من أحقر ما فيه الى أعظم ما فيه فانكم لا تجدون معاني الغنى الصحيح الذي لا فقرَ له الا فى الأجسام والعقول ولن تجدوا معنى واحداً خُلِق فى صندوق أو خزانه .

وقد وضعت كتابي للمساكين وأسندتُ الكلام فيه الى (الشيخ علي) وهو رجل ستعرف من خبره الذى

أقصُّ عليك أنه الجبلُ المتمرِّد الباذخُ الأشمُّ في هذه الانسانية المسكينة التي يتخبّطها الفقر من أذاه وجنونه ومسّه .

وأنا أرجو أن ينزل هذا الكتاب من قلوب المساكين منزلاً حسناً وأن يتصل بأنفسهم الضعيفة ويُفضي اليهم بِبَثّه ويُفضوا اليه فقد تكون مصاحبة البائس للبائس ثروةً نافعةً لا تُنَيِّهما في معاملة الزمن .

مصطفى صادق الرافعي

الفصل الأول

❊ الشيخ علي [1] ❊

هو رجل تراه في ظاهره من الدنيا ولكن باطنه يلتحقُ بما وراء الطبيعة . وكان ينبغي أن لا يقومَ مثله على مَسْرح الخَلْق إلا ممثلاً وأن لا يمثل الا الوجهَ المطلقَ من الحياة بعد أن استقصى الفلاسفة الى تمثيله كلَّ ذريعةٍ فلم يَسْتوِ لهم أن يَمرُّوا فيه وقصَّر بهم التكلفُ وقطعتهم دونه تلك الفلسفة التي حملتهم عليه — فخُلِق الرجل نشيطاً مهزوزاً رامياً بصدره ونحره مُعترِضاً في زِمام القدر كأنه صورةُ الفكر الذي يمثله وكأنه أُسلوبٌ قائم بنفسه في بلاغة الطبيعة .

وأحسبه في نظره الى الخَلْق يتوهم أنه رحالة خرج من

(١) هذا الرجل من قرية يقال لها منيت جناح من أعمال مركز دسوق أحد مراكز مديرية الغربية

بعض الافلاك التى تُعرف بالعقول العشرة فهبط من أشعته على الدنيا فهذا العالم شيءٌ جديد فى نفسه وهو شيء جديدٌ فى العالَم . ينظر اليك كما تنظر اليه فأنت تَتَبيَّن فى سَحْنته[1] الواضحة أوصاف الجنون الهادئ وتُعْجَب من منظر تلك العاصفة النائمة فى عينيه وهو يَسْتَجْلِي منك معنى الغرابة في قدرة الله إذ أنشأك مثالاً غير مفهوم ، ويطيل عجبه منك أنك على ما فيك تتعجب منه ، فكل رجل فى رأيه انما هو صورة من الرجل الصحيح الذى لم تُزَوِّرْ فيه حِرْفة العيش ومَطَالبُ الحياة شيئاً على الله . ولكل امرىء سؤال يتردَّد بين نفسه وبين السماء فرجلٌ يقول : اللهم هذه القوة فأين الرزق ، وآخر يقول وهذا الرزق فأين القوة ، وثالث يصيح هذه هي العافية وهذا الرزق فأين السعادة ؛ والشيخ علي كأنه يقول : اللهم انه لم يبق من الانسانية الا حُشاشة تَسُوقُ بنفسها[2] وكلُّ رجل صورة مقلَّدة فأين الأصل ؟

لما ولد هذا الرجل ولعل الطبيعة يومئذ كانت فى صَمِيم

(١) أى هيئته (٢) يقال رأيته يسوق بنفسه اذا كان فى الموت

الخريف ثأرة مجرودة غبراء[1] قامت أمه عن نجم منطفىء لا تعرفه الأرض وقد زهدت فيه السماء فكان رضيعاً ثم فطيماً ثم جَحَش .. ثم دَرَج ثم تَرعرع ثم صار يافعاً وعاد فتًى وانقلب كهلاً وهو اليوم يَحْطِمُ الخمسين[2] وكأنه لم يكن في كل ذلك شيئاً ، ومتى سُوِّيتْ عليه الأرضُ لم يترك وراءه الا سطراً ضئيلاً في سجلّ الموتى[3] فكأن الخير والشر لم يدركا هذا الرجل ، وكأنه روح كتب عليها الحبس في جسمها فلا تشهد أمراً من ورائه حتى تطلق ، وكأنه حيٌّ على رغم الحياة .

وتُرَى أي عقل يعيش به بل أي عقل وأي جنون ليس من أثرهما الخير والشر ؛ ان أكبر من تُنجبه الفلسفة ويُخرجه الأدب ليطوي عمره طيًّا وراء هذه الغاية البعيدة ، وما حياة الفلاسفة الا اختبارٌ للموت فهم يُميتون في أنفسهم كل سبب الى الشهوة وكل داعية الى اللذة ويَحْيَوْن بالقسم الأعلى وتبقى

(١) أي لا نبات فيها . (٢) يقال حطمته السن اذا كبر وضعف وهذا على العكس . (٣) كناية عن اسمه .

مادة الأرض فيهم كأنها أرض بُورٌ عارية المحاسِرِ لا تُخصِب ولا تُنبت ؛ وهذا الشيخ علي كله أرضٌ بورٌ . . . فهو عصرٌ برأسه من تاريخ الأخلاق ، وعلى أي الوجوه اعتبرته رأيته كشيوخ الفلاسفة وحكماء الدنيا يعيش فى الناس بعقل غير العقل . ولو تنفَّس به العمُر فبلغ المائة وجاوز العَصْرَين مازاد كل عمله على أن يُشبه نفسَه فهو حليم لنفسه غضوبٌ لنفسه وكذلك هو فى الخِفَّة والوقار والضحك والعُبوس والزُّهُوِّ والانقباض وفى كل ضدَّين منهما لذةٌ وألم كأنه جزيرة قائمة فى بحر لايحيط بها الا الماء فلا صلةَ بينهما فى المادة وان كانت هي فيه ؛ فالناس كما هم وهو كما هو يرونه من جَفْوَة الزمان أضعفَ من أن يُصاب بأذى ويرى نفسه من دهره أقوى من أن يُصيب بأذى ، ويتحاشَوْنه رأفةً ورحمةً ويتحاماهم أَنَفَةً واستغناءً وان مسَّه الأذى من رقيع أو سقيط أحسن الى الفضيلة بنسيان من أساء اليه فيألَم وكأَنَ ألمه مرضٌ طبيعي ولا فرق عنده فى هذه الحال بين أن يُمْغَصَ بطنُه بالداء أو يُمْغَصَ ظهرُه بالعصا . . . وهو والدنيا خَصمان

فى ميدان الحياة غير أن أمرهما مختلف جدا فلم تقهره الدنيا لأنه لم يطمح اليها ولم يقع فيها وقهرها هو لأنها لم تظفر به .

واني لأرى في اللغة كلمات لم تقع على معانيها ولم تجتمع اللفظة منها بمدلولها ، فكلمة السعادة تبحث عن معناها فى الناس وأهوائهم وشهواتهم ، ومعنى السعادة يبحث الناسُ عنه في هذه الكلمة وحدودها وحقائقها ، وربما كان هذا المعنى بجملته مُلقًى تحت الشمس فى زاوية من زوايا القرى أو مُتَفَيِّئًا ظلَّ شجرة من شجر الجُمَّيز أو نائمًا تحت سقف مَعْروش من حطب القطن أو جالسًا يضحك في نَدْوَة الحيّ أو قائمًا يتأمل مجرى النهر أو مضطجعًا يُقلِّبُ وجهه فى السماء أو هو الذى يُسمى الشيخ علي ؛ وماذا فى السعادة أهنأُ من أن تُوقى شرَّ هذه السعادة فلا تتطلع نفسك اليها ولا ينالك الا ماتحب أن ينالك فأنت بعدُ وادعٌ قريرٌ آمنٌ فى سِرْبِكَ مُعافًى فى بدنك خارجٌ من سلطان ما بينك وبين الناس من خُلُق مستبد أو رغبة ظالمة أو صِلة عاتية ولا حكم عليك الا لمالك المُلك ... ولم يَفْتُق الله لك من فنون اللذات ما يُنغِّصه

عليك ولا ضَرَبَ منك مثلاً ولا نصَّ لك عقاباً ولا جعلك مرآةَ عدوٍ يُصلح فيها نفسه ولا نَصَبَك لمجاراةٍ أو مباراةٍ وقد جنَّبك فُضُوحَ هذه الدنيا والدنيا من السوء بحيث يَفضَحُ فيها بعضُ الخير ما لا يفضحُ بعضُ الشر ؛ ثم ماذا أنت طالب من السعادة اذا هانت الحياة فلم تضعف عن احتمالها ولم تَرْمِكَ بداءٍ في مرض العيش الا قمت له ولم تحملك على أمر الا تحمَّلتَ عليه ، وقَوِيتَ على نفسك فلم تكذبك أملاً ولم تخدعْك في باطل ولم تجاذبك الى مَوْرِد لا تصدر عنه الا آثماً أو نادماً وكنتَ من نعمة الله مُخِفّاً لا تحمل الا رأسك ولا تجوع الا ببطنك[1] وقد كُفيتَ أن تصرعك نَزَغاتُ هذا الرأس وأمِنتَ ان يقتلك داء هذا البطن ولم يَضْرِبك الله بشيء من هذه النعم المنافقة التي يأتي بها المال حين يأتيك بالجاه وأصحابِ الجاه ومن يريدك لمالك وجاهك ؛ وأعوذ بالله من النفاق ومن نفاق النعمة خاصةً فبينا هي لك اذا هي عليك

(١) يقال فلان يجوع بخمسة بطون مثلا اذا كان يكدح لمعاش خمسة .

وبينا هي متاع ، اذا هي التِباع ، وبينا هي فى طعامك شيء ، اذا هي من طعامك قَيْء . . . .

وهل فى النعمة خير من الكفاف حاضرا ومن الصحة فارهةً ومن قُرَّة العين وضَحِك السنّ واستطلاق الوجه ، وأن يكون القلب فى حجاب من نور السماء لا تَهْتِكُ عنه رذائل النفس ولا يَعْلق به غبار الأرض ولا يتغشّاه ظلام الحياة ولا يزال هذا القلب فى نَضْرته وصفائه كأنه سعادة مخبوءة في غيب الله لم يُخلق بعدُ من خُبئت له ؟

كذلك أعرف الشيخ علي فهو رجل سُدَّت فى وجهه منافذُ الجهات كلها الا جهةَ السماء فكأنه فى الأَرض بطلٌ خَيالي يرينا من نفسه إحدى خرافات الحياة ولكنه مع ذلك يكاد يُخرج للدنيا تلك الحقيقة الالٰهية التى لا تغذوها مادة الارض ولا مادة الجسم فهي تزدري كل ما على الارض من متاع وزينة وزُخْرُف وكل ماردَّت عليك الغِبْطةُ من بَسْطة فى الجسم أو سَعَة فى المال أو فَضلٍ فى المنزلة وكل ما أنت من إقباله على طَمَعْ ومن فَوْتهِ على خوف ؛ تلك الحقيقة

الطاهرة التي تكون أعظم ما أنت واجدها في سِيَر الأنبياء والصدّيقين والشهداء أو حيث يكون ذلك العقلُ الجبّارُ الذي لا يشبه عقول الناس من نبوغ يخرق العادة أو جنون تخرقه العادة وما الجنون الا نبوغ فوق الطاقة ولا النبوغ الا جنون دقيق .

وكذلك أعرف الشيخ علي فهو أجهل الناس في الدنيا وأجهل الناس بالدنيا كأنه من هذه الجهة مُمْتَلَخ العقل(١) . وأنت اذا سطعتَ له بالجوهرة الكريمة النادرة فلا يعدو أن يراها حصاةً جميلة تتألّق ، وإن هوّلتَ عليه بألوان الخزّ والديباج حسبك ما تقام لم ترقط نضارة البرسيم وألوان الربيع ، وكأني بك لو وصفتَ له الذهب وما أضرمت ناره في الارض وهي بردٌ وسلام ، وما أيقظ جماله من الفتنة التي استحال عليها أن تنام ، ثم أريته شعلة من هذه النار ، في غرّة الدينار ، لتضاحك منك إذ تريد أن توهمه بما أعظمت من ذلك الشأن أنك سلبت مُلْكَ الله قطعةً من الشمس ،

(١) أي مسلوب العقل

التي غربت أمس ، ولرأيتَ من زرايته عليك ما يعلمك أنه ما أكبرَ هذا الدينار في عينك الا صِغرُك في نفسك ولا ملأ يدك بالحرص عليه الا فراغ ما بينك وبين الله ولا كدُّك في طلبه الا أنك مُسخَّر ، ولا أذلك للمال ، الا خضوعك للآمال ، وما أنت الا في قيد من الهم حببه اليك أن تُقفله هذه القطعة من الذهب . واذا أحضرته ألوانَ الطعام وجلوت عليه أُبَّهَة الخِوان وقلت له هلُمَّ فارْتَعْ حتى تَتْنَأ رُمَّانتك[1] رأيتَ من نفوره واحتجازه كأنه يقول لك ويْحَكَ وهل للبطن كبرياء وهو ستار على أقذار ، وهل يسعُ كل هذا وماهو بالعريض الطويل ، ولا سلامة له الا بالقليل لأنه قليل ، وهل تحتمل ما في العنقود حبة واحدة ، ويحتمل الغنيُّ أن يكون في صُندوقه الالهي[2] حاجة زائدة ، ويبلغ الحمق من هذا الانسان أن يُميتَ قلبه لأنه وجد النَّعش من المائدة ؟

وكذلك أعرف الشيخ علي فهو لا يرى في الاشياء غير

---

(١) أي السرة وما حولها وذلك من الشبع (٢) كناية عن البطن ويقال الشبع مكسلة والبطنة تذهب الفطنة

ما خصتها به الطبيعة ولا يُرسل عليها الا أشعة صافية من عينيه الضاحكتين لم تخالطها ألوان النفس ولا زفرت عليها أنفاسُ القلب وما ثَمَّ غيرُ الانقباض والنفور أو الاستئناس والانبساط فإمَّا رآها قبيحة وإما رآها جميلة ومتى قُسمت الاشياء عنده الى قبيح وجميل فليس وراء هذين ثالث في التقسيم وليس الاجميلٌ جميلٌ وقبيحٌ قبيحٌ . فأما المأمولُ والمرغوبُ والمتنافَس فيه والمُتبرَّم به والمسخوط عليه وما جاء بالشِّقْوَة وما جاءت به السعادة وما كان من ورائه حَبَّذَا وليتَ وما أعانت عليه لعلَّ وعَسَى ثم كان وأخواتُها وإنَّ وبناتُها ثم أنا وأنت وهو ثم ما انعطف على هذا النحو أو انفرع منه فكل ذلك تقسيم لا يفهمه شيخنا وما هو من جدِّه ولا لَعِبه لأن صفحة نفسه ليست كألواح الاطفال يُثبتون فيها ما لا بد من محوه ويمحون ما يعودون الى إثباته ليتعرَّفوا ما أصابوا مما أخطئوا وليتعلموا كيف ينبغي ان يتعلموا .

وهل تجد أعزك الله في هذا الناس من يُحسن أن يُوقِّرك ، الا وهو يحسن أن يحقِّرك ، ومن يعرف كيف

يشكرك ، الا وهو يعرف كيف يكفرك . ومن يقول حفظك الله الا وهو قادر أن يقول أخزاك الله ؛ فالناس عبيد أهوائهم وأينما يكنْ محلُّك من هذه الأهواء فهناك محل اللفظة التي أنت خليقٌ بها وهناك يتلقّاك ما أنت أهله أو ما يريدون أن تكون أهلَه ، وليس في الناس شيء يزيدك كمالاً من غير أن يزيدك نقصا حتى إيمانُك فانه كفر عند قوم وحتى عقلُك فانه سَفَهٌ لطائفة وحتى فضلُك فانه حسدٌ من جماعة وحتى أدبك فانه غيظ لفئة .

أما شيخنا فقد مَسَحَ الله نفسه ومسح ما به من الناس فليس فى صدره ولا فى صدر أحد حَسِيكَةٌ[1] عليه وهو أبداً فى صمت بليغ كصمت الطبيعة وكأن فهمه شيء من هذا الصمت فلا يتصل بفهمه ولا يُداخِل فكره الا الجمال والقبح ، والطبيعة نفسها تخرج الجميل تفسيراً للقبيح وتظهر القبيح تعليقاً على الجميل وكذلك الشيخ فى إدراكه . وأجملُ ما يرى من وجوه الحياة وجهُ السماء الصافية ووجه النهر الجاري

(١) أى عداوة

ووجه الارض المخضرة ووجه الرجل الطيب ووجه المرأة الجميلة . كل أولئك عنده سواء فليس وجه خيرا من وجه لأنه لا يحسن أن يؤول لغة الطبيعة فلا ريبة فيه ، ولا يتزيد في معانيها فلا كذب في حواسه ولا تخاطبه الطبيعة فيما توحي اليه الا بأسهل ألفاظها وأطهرها وبمقدار ماخلق له إذ لا ترى فيه غير تلك الحيوانية الضعيفة التي هي ضرورية لحي منقطع مثله وما كانت لوثة عقله الا فصلاً بينه وبين الانسان في حيوانيته وإنَّ شرَّ ما تكون هذه الحيوانية حين تكون عقيلة محضة . وقد يكون الشيخ علي رجلا تعسا في رأي الناس لأنه حيوان ضعيف وانسان أضعف ولكنها تعاسة بالغة فهي من تلك الآلام الحادة التي بالغت الطبيعة في تكوينها لتخرج منها ذلك النوع الشديد الحاد الذي يسمونه اللذة وربما كانت التعاسة السامية خيراً من سعادة سافلة .

إن المجنون لم يزل عن منهج الحياة بجنونه ولكنه يتبع سنة هذه الحياة على طريقة خاصة غير ما ألفه الناس أو تواضعوا عليه ليرى في كل شيء أثر جنونه فهو حيٌّ مع

الأحياء بَيْدَ أنه يُشبه أن يكون تفسيراً للحياة الغامضة التي تلوذ بكل جانب مهجور على وجه الارض وبكل رأس تحتسبه جانباً مهجوراً لأن الناس لايفهمونها ولا يتسعون لفهمها . وهذا الشيخ علي رجل غامض متلفف بحقيقته كدُهاة السياسة فى شباكهم التي يأخذون بها الامم والشعوب فلا تبرح ترتبك فيها ارتباك الصيد فى الحِبالة ، وأولئك الفلاسفة الذين يعيشون في السُّحُب العاليـة من فضائلهم فيمطرون الكون مرة ويرجمونه مرة ، الى غيرهم من رَوَابي الخَلق(١) ومن كل رجل عظيم أظلّه أحدُ الجناحين المنبسطين على الارض والسماء ، جَناحِ الوحي أو جَناحِ التاريخ . ولـكن الشيخ على غموضه من كل جهاته واضحٌ من جهة واحدة هي جهة الجنون فى اصطلاحنا وتلك هي جهة الفضيلة الخالصة فيه إذ قطعت ما بينه وبين الرذيلة وجعلت له في الناس رذيلة مجنونة مثله فكانت سُبَّته أنه رجلٌ مطلقٌ لا ينزل على حكم ولا يتحمّل على أمر ولا ينازع الى عادة معروفة بل هو قد

(١) أى هاماتهم وعظمائهم

نجا بنفسه من هموم الناس وأصبح كالروح الوثّابة التي لا يمسكها قيد ولا يخضعها زمام والتي هي فيه كما هي في موجة البحر وعاصفة الريح ، فكل مخلوق يَحْجل في الحياة لمكان القيود منه وهذا يُجْمِعُ الوثبةَ العاليةَ ثم يَثِبُ مُقبلاً ومُدبرا ويخطى مَدَّ بَصَرِهِ في الحياة كأنه بُراقُ الأنبياء . . .

وليت شعري هل يأمل الناس أن يشهدوا الحقيقة مغلوبة على أمرها وما كانت الحقيقة أحد الخصمين قط الا كانت الهزيمةُ على الآخر ولو أن هذا الآخر عصرٌ من تاريخ الارض . ثم ما هي الحقيقة الا أن تكون عقلا مطلقاً لا زَيْغَ فيه أو حقاً مطلقاً لا كذب فيه أو يقيناً مطلقاً لا شك فيه ؟

وهذا الشيخ علي : أما عقله فعند الله وأما حقُّه فقد أوجبه الله وأما يقينُه فلا يعلمه الا الله فكيف يُرى مغلوباً لاصطلاح أو عادة وأكثره راسخ في السماء ؟ إنه ليجوع ويظمأ ويَعْرَى ولكن كما يجوع الطير وتظمأ الارض ويعرى الشجر ليس من خَلَّة الا وسبيلها من رحمة الله فان تخلّت عنه

السماء مرة وقُطِعت مَقَاوِدُه من الغيب وخذلته الوسيلة فما تَغْمِزُ منه الحاجة الا حجراً صَلْداً يقع على أي جانب ترميه ثم لايقع الا حجَراً لأن آلام هذا الرجل من الأَلَم القَفْر الذى لا ينبت فيه شيء من الخوف ولا يهتدي اليه وَهْم الحياة ولامَجرى فيه للدمع ولاظلّ للحسرة وهو ألم ان أفضى الى الموت أَفضى اليه برجل لايعرف الموتَ ماهو وان أبقى على الحياة أبقى عليها فى رجل عرفت الحياةُ من هو ... رجل حَطَّ الله أَوْزارَه وكتب عليه أن يكون فقيراً من المال وحبّ المال وذل المال فخرج وليس له فى أفئدة الناس الا الرأفة والحنان وجاء وليس له من الناس حاسد أوعدوّ وخُلق ذا حدَين من نفسه الماضية لايكتنفه ذل أوهمّ الا قطعهما وانطلق كالفرس العتيق في مَيْعَة حُضْرِه (١) ، وماذا يُبغض الناس منه وماذا يعادون وهو فى ذلك البحر زورق قد سقط مِجذافُه فليس له مايَضْرِب به وما يُسَخَّر به وانما تُدافعه رحمةُ الله حيث اندفع والبحر لايعادي الزورَق الذى يجري

(١) أي فى أول نشاطه وجريه

فوقه ولكن يعادى المجذافَ الذى يُديره ههنا وههنا .

رجل كأنه قطعة من الأبد لا أمس له يتعقبه ولا غد له يترقبه بل الحياة عنده يقظة طويلة والموت نوم أطول .

والشيخ علي متى أحسَّ الجوع ولج الباب الذى يصيبه مفتوحا فلا يقع على الناس الا مُتَطَرِّئًا وهو مع ذلك لا يَحُطُّ في الطعام ولكن يَخُطُّ فيه خطًا [1] وما هو الا أن يستقر شيء في جوفه مما يُقيم صُلْبَه حتى ينفر نفور الطائر لا يرى الا أنه قد استوفى حق طبيعته من خادم طبيعي . . . فلا جزاءًا ولا شُكُورا ، ولهذا لا يبرح أبدا على الحدّ الذى يُصلحه لنفسه فلا يتجاوزه ، وأعجب ما يَرُوعُني من فضيلته أن هذا الحد عينه هو الذى لا يُفسد ما بينه وبين الناس

وهو اذا تكلم فانما يَتَرَمْرَمُ [2] من طول السكوت فإما أن يُغَمْغِم حروفًا وأصواتًا وإما أن يَلُوثَ بعضَ كلمات غير مفهومة كأنه يُسِرُّها فى أذن الدهر الذى لم يفهمه . ولكن

(١) المتطرئ الذى يأتى من غير دعاء وحط في الطعام أكثر منه وخط بالخاء اذا نال شيئاً يسيرا (٢) يقال كان ساكتاً فترمرم أى حرك فاه

لهذا الرجل كلمة فى الشتاء وكلمة فى الصيف . فاما الأولى فأن يسأل دِثَارًا يَسْتَدْفِع به أذى البرد ولا معنى لكلمة (هات) عنده غير هذه الضرورة ، وأما الثانية فان يَهَبَ الدثار لغيره ولا معنى لكلمة (خذ) عنده غير هذا الاستغناء على أنك واجد أكثر ما في هذا العلم من شر وفساد انما يرتطم فى هذين الحرفين (هات وخذ) .

هذا هو الشيخ علي رأيته فرأيتُ في بُرْدِهِ ثَورةً على العالَم الانساني وعرفته فأصبتُ فى ضميره قطعة مجهولة من هذه المسكونة واستجليتُ نفسه فاذا هو أُفُقٌ فوق الأرض وطالعتُه فكأنى رأيت فى جملته النقطةَ الارضيةَ التي يبدأ من ورائها ارتفاع السماء وبلوتُه فاذا هو حصاةٌ تحت ضِرس الدنيا والناسُ هنالك يُمْضَغُون . فلم أملك أن غمستُ قلمي من نظراته فى مجرى من أشعة الوحي ووضعتُ الاعتبار من هذا الرجل وحقيقته على ما عرفتُ من الناس وحقائقهم فخرجت لي من المقابلة هذه الصفحات ولذا كان القول فى « المساكين » ما « قال الشيخ علي » .

على أني ان كنت لم أُحسن وصف الرجل أو كنت لم أبلغ في وصفه فذلك لأن هذه الحقيقة فى هذا القلم كالثمر الحلو فى العود المرّ والرجل مما أنضجه القَدَرُ وحده وليس لنا من حقيقته الغامضة الا الصفات التى تُثبت أنها غامضة .

وهل في الحياة أشدُّ غموضاً من رجل يرى أو كأنه يرى أن كل نعمة لم يَنَلْها فهى مصيبة لم تَنَلْه وكل مايعرفه من هذه الدنيا انه يعرف كيف يتركها مطمئناً وعلى شفتيه من الابتسام تحيةُ السماء لاستقباله ، متى هو فارقها انكشف موتُهُ عن حياته وصرّحتْ هذه الحياةُ عن ضميره وخَلُصَتْ من هذا الضمير كلمةٌ هى معنى الرجل الذى انطوى عليه ، وكانت هذه الكلمة هي الحمدُ لله ؟

الفصل الثاني

قال الشيخ علي : عَلِمَ الله يا بني أن فى تاريخ الحياة سؤالاً لم تزل تُلقيه أطماع الناس فى كل عصر من عصورها وما إن تُصيب له جوابا مُقْنِعا لأن الطمع ليست له طبيعة محدودة فهو يرمي بسؤال غير محدود ويريد بطبيعة جواباً عليه غير محدود . هذا السؤال واحد من ثلاثة هى حقائق الانسانية الضَّالة عن الانسان نفسه فى غيب الله .

يقول الانسان ماهي الروحُ التي تعطي الحياة . وتقول آماله ماهو الموت الذى يستلب هذه الحياة . وتقول أطماعه وما هو الفقر الذى يجمع على الروح بين الموت والحياة ؟

كذلك نتساءل ما هو الفقر على أنه ماغير الفقر ذلك السؤالُ الذي نجد فى كل نفس انسانية معنى من جوابه ، ولا غير الفقر ذلك القبرُ المعنويُّ الذي لم يخلق الله نفساً من النفوس إلا ولها ميِّتٌ من الأمل فى ترابه ؛ بلى واذا

كان فى لغات الأفواه لفظ خالد فانما هو الفقر ، واذا كان فى هواجس القلوب معنى خالد فانما هو خوف الفقر ، واذا كان للدموع الانسانية مصبٌّ واحد تلتقي اليه من جهات الأرض فانما هو بين شاطئين إن جاز أن يكون أحدهما الحب فأن من المحقق أن أحدهما الفقر .

إن هذه الأرض لتُصبح في كل يوم ولا يمكن أن يقال بحق إن فيها عملاً إنسانيا عاماً غيرُ طلب المال فاخرٍ بها أن تُمسي فى كل يوم ولا يمكن أن يقال إن فيها معنى إنسانياً عاماً غير راجع الى الفقر . ويقولون إنها تدور حول قُرْص الشمس ، وهو قولٌ فلكي أو سماوي يصح إطلاقه على الأرض كهيئتها يوم خلقها الله أو على الأقل كما خلقها ؛ أما الحقيقة الأرضية فانها تدور حول قرصين : قُرْصِ الَّلهَب وقُرص الذهب ، ويالله وللفقير . إنه دائماً في الجهة المظلمة ؛

الفقر متى ألقيتَه سؤالا عاد اليك بجواب نفسه لأنه فصلٌ من كل عمر كالشتاء فصل من كل سَنَة . وليس فى الناس جميعاً من يَصْدُق اذا ادَّعى انه لا يعرف الفقر غيرَ الذين

لا خير فيهما : غني جُنَّ من فرط الغنى وفقير جُنَّ من فرط الفقر . فالأول لا يعرف الفقر في جنونه لأنه جُنَّ بغيره والثاني لا يعرفه لأنه جُنَّ به . ولكن من هو الفقير ؟

من هو هذا الكائن الضعيف الذي أحاط به الجهل حتى إنه ليجهل نفسه . وأينما يُوَلِّ وَجْهَهُ أشاحَ عنه الناسُ بوجوههم فلَوَوْا رؤوسهم وصَعَّروا خدودهم وأمالوا أعناقهم حتى كأن كل رأس في الْتِوَاء عنقه من الأَنَفَة والاستكبار ، يمثّل علامةَ استفهام أقامتها الحياة في وجه هذا المسكين أو علامةَ إنكار . ! ؟

من هو هذا الحيُّ الذي تنكَّرت له الدنيا حتى أصبح فيها كأنه نوع شاذٌّ من الخلْق يقوى على كل شيء حتى الطبيعة ولكنه يضعف عن شيء واحد وهو الغنيّ ؛ فقضت عليه شرائع الاجتماع أن يُنفق من حياته أضعافَ ما يكسب لحياته ، فهو اذا كَدَحَ في العمل طِوَالَ يومه فقُوتُ هذا اليوم عليه كثير ، واذا لم يجد ما يُطعمه الجوعَ فأطعمه من جسمه فذلك عليه يسير ، واذا سال في الشمس وجمد في البرد فهو عند

الأغنياء ذو طبيعتين لأنه ليس مثلهم ولأنه فقير ؛

ومن عسى أن يكون هذا القويّ الذي يختصمه الاجتماع كله ويخشى أن يرتفع فيكون « قاضياً » عليه ، ويأخذه اليوم بالجناية وهو الذي أوحاها بالأمس اليه ، ومن هذا الذي يرى المجتمع أنه اذا قُدِّر للشريعة أن تُلحَدَ في قبر فلن تُدفَن الا في هاوية من مطامعه ، واذا حكم الله على عصر من عصور الجبابرة بالشنق فلا تكون المشنقة بجذعيها وحبالها إلا من ذراعيه وأصابعه ؛

من هو الذي يجفُّ ريق الأرض لو جفَّ عرَقُه من ترك العمل ، ويخيب أمله مع ذلك في كل غنيّ وهو نفسه للأغنياء أكبر أسباب الأمل ؛ يُدِلُّون عليه بالغنى ولولا أن في فضتهم عنصرا من دمعه القيِّم لما وجدوا لها قيمة ، ولو لم يكن في ذهبهم رُوحٌ من دمه الكريم لما عُدَّ أفضل المعادن الكريمة ؛

قال الشيخ علي : ذلك يا بنيَّ هو المُدْرَج في أكفان النسيان ، الذي ليس له في الناس الا « مُنْكر و نكير » .

ذلك هو البائس فى بني الانسان ، الذى يكثر عليه القليلُ ويقلُّ منه الكثير ، ذلك هو المتناقضُ فى نفسه حتى لا يصغر أن يقال فيه صغيرٌ ولا يكبر أن يقال فيه كبير ، ذلك هو الذى يشبه أن يكون عمله حركةً فلكيَّةً فى الأرض لا آلة الغنى . ذلك كله هو الفقير .

ويالله ما تحمل الأرض إنساناً واحداً لا يخشى عادِيَةَ الفقر ولا يتعوَّذ بالله منه ولا يرى يومه فى هذه الأرض كأنه الآخرة قبل الآخرة . يقوم الفقير بين حسابها ، وعذابها ، ويستعيذ برحيمها ، من جحيمها ، ويفرُّ من أمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، وفصيلته التي تُؤْوِيه ، ويضع في ميزانها المنصوبِ آماله ، فلا يزن الا أعماله ، ويستصرخ كلَّ من يمرُّ به فلا يسمع الا قائلاً يقول نفسي نفسي . . فينظر فاذا هو فى الناس ضائع حتى لا يعرف له محلاً . ومنفرد حتى لا يجد بينهم لشخصه ظِلّاً ، واذا هو بالسماء وقد التهبت بأقدارها حتى كأنها في عينه جمرة من البرق الخاطف ، واذا الأرضُ قد ثارت بأهلها كرَمادٍ اشتدَّت به الريحُ فى يوم عاصف ،

فان أقبل على الناس فرّوا من أماكنهم كأنه زلزلة تمشي ، وان استصرخهم نفرّوا كأن فى صوته فزع الرعد القاصف !

يا لله ما تحمل الأرض الا من يعرف هذا كله من الفقر بل أشدّ منه ثم يبقى الفقير ويالهف أرضي وسمائي عليه — كأنه مسئلة مجهولة فى حساب الناس لا همّ لهم فيها الا كثرة الطرح والضرب ثم الغلطُ فى النتيجة . . ! وتنحازُ طبائع الناس كلها فى جهة والفقر وحده فى جهة حتى لا يرى هذا المسكينُ فى العالم على سعته غيرَ اثنين : هو واستبداد الغنِى !

تُرى أين تكون شرائع الآداب إذن . هل هى فى ضمائرنا أم هى فى كتبها أم هى فى تاريخها الميت القديم ، أم صار الحق كله إنسانياً بحتاً لي عليك ولك عليَّ وليس لله علينا شيء ، وفصلنا أنفسنا من السماء وقطعنا الروابط التي كانت تربطنا بها ونبذناها فرثّت ثم رثّت فاذا هى على أجسام الفقراء تلك الأسمالُ البالية !

إن هذه الحقوق متى أصبحت انسانيةً محضةً ليس فيها لله شيء ، فكل درهم يوضع فى يد الانسان يجعل فيها

عقلاً يحكم على عقله وكل رغيف يستقرُّ في معِدَته يخلق فيها ضميراً يستبدُّ بضميره ، فينفصل الانسان من الله ويبتعد عنه بمقدار ما يقرب من الغِنَى . وحَسْبُهُ يومئذ في اعتباره بعيداً جداً عن الله ورحمته أن يقال إن بينه وبين ربه مسافة ألف دينار . . . ذلك بأن عدل الله يقضي أن يكون للفقير قِسْمُهُ من الثَّروة وانما الجزء المهمُّ من هذه الثروة هو الإحساس في ضمائر الأغنياء . والأدلة على هذه القضية (قضية الحقوق الانسانية) كثيرة تفوتُ الحصر لأن كل صاحب ربا قد جمع ماله من السُّحْت ومن استئكال الناس إنما هو في نفسه دليلٌ عليها . ولعمري إنه ليس أحد أخيبَ رجاءً ولا أحق بأن يخيب ممن يسأل المتهالكَ على الربا الذي يستَنْبِتُ دراهمه بين الأحزان والدموع إحساناً لوجه الله فان هذا الذي لا يعرف اللهَ فيما يأخذ كيف يعرف اللهَ فيما يعطي ؟ (١)

(١) لسنا نرى في الربا خيراً اجتماعياً خالصاً ولا نفعاً إنسانياً صحيحاً على الاطلاق وما هو الا محق الله للانسان ومحق الانسان لنفسه . ولكن كثيرا من الرذائل الانسانية كالربا وغيره أصبح من دخوله في شرائع الاجتماع الفاسد كأنه بعض الشرائع فاستكان اليه ضعفاء الناس وأقبلوا يخربون بيوتهم بأيديهم . . .

قال الشيخ علي : ولماذا نرى يا بني جُفاةَ الاغنياء يخشون من الفقر على أنفسهم وأهليهم فقط ولا يخشون منه على الفقير ؛

أظنهم يقولون إن في الأرض شيئين بمعنى واحد . قبورُ الأموات في بطنها وأكواخُ الفقراء على ظهرها . وليس من فَرْق بينهما في النسيان لأنه يشملهما جميعاً وانما الفرق بينهما في حاليهما المتناقضتين ، هذا قبر ميت وهذا قبرحيّ .

نعم صدقوا وبرُّوا وقالوا حقّاً أليسوا جُفاة القلوب غِلاظ الأكباد ؛ والا فما الفرق بين موتٍ مَنْسِيٍ كموت الغريب وحياة منسية كحياة الفقير الا على الفرق الذي لا يبالي به هؤلاء الأغنياء حين يكون لأحدهم ظاهرٌ حيٌّ وضميرٌ ميت ؛

وأحسب أولئك الطغاةَ يقولون : إننا نرى الفقير لا يملك من الأرض شيئاً محدودا بل هو يملك أرض الله كلها بحدودها الأربعة . . . ففقر فلان التاجر الغنيّ مثلا ليس هو في الحقيقة أن لا يُصيب القوت ولا يجد المأوى كغيره من الفقراء . وانما هو المتاجرةُ في الآمال ، بعد الأموال ،

وقبضُ الريح ، بعد قبض الريح ؛ واستقبالُ الأبواب والجدران ، بعد استقبال الاصحاب والجيران ؛ وهلمَّ من هذا الباب الذى يفتح من جهة الغنى على سائر الجهات الثلاث للحياة البائسة : وهى الفقر والمَذَلَّة والألم . وانما هو رجل ككل رجال المال متى خرج المال من يد أحدهم خرج اسمه من أفواه الناس وخرج حبُّه من قلوبهم ويكون من أهل السعادة لو خرج هو أيضاً من الدنيا . . .

قُتِلَ الانسانُ ما أكفره : لو أن غنياً فقد جبلاً من الذهب وأصاب رغيفاً يتبلَّغ به لكان ذلك أيسر فى مذهب الانسانية من أن يذهب البائس المُعْدِم فيتكفَّفَ الأبوابَ ويَستَكِفَّ الناسَ(١) ثم لا يتخلَّصُ منهم رغيفاً يُمسك به الرمَق على نفسه ويُقيم منه باباً حاجزاً يمنع الجوع أن يُدخل اليه الموتَ وأن يُخرج منه الروح . ولكن مصيبة الانسانية فى أهلها أن الله لم يخلق الا صنفاً واحداً من الناس على أن كل إنسان يظن أنه ذلك الصنفُ الواحد . . فالغنيُّ اذا تصوَّر الفقر

(١) استكف مد كفه للسؤال وتكفف الابواب اذا وقف بها سائلا

وهو لا يزال في غناه لا يتوهَّم الا اختلال نظام الأقدار ، واضطرابَ حركتي الليل والنهار ، بعد أن يهويَ كوكب سعده الذي يُصَكُّ من كل ذرّة في أشعته دينار . . . وهو لا يرى بهذا الفقر الا أن نقمة هابطة من السماء ولعنةً صاعدة من الأرض قد التقتا عند رأسه الشامخ في جوّ كبريائه فاصطدمتا به فاذا هو مُكِبٌّ لليدين وللفَمِ عند أقدام الناس واذا هو فقير .

هذا هو الفقر في أوهامهم ولكن لا تنس أنه فقرُهم فقط . . . فقرُ المال المُتَرابِط في مكانه أو الذاهبِ في حُلوق الأرض (١) وبين أضلاعها . أما سائر الناس فهم عند هؤلاء أهلُ باطل ودعوى . يُزَنُّون بكل رِيبَةٍ ويُقرَفُون بكل تهمة (٢) إذ يَنتحِلون الفقر ويدّعونه ليُعادوا نعمة الغني بالحسد . فالجوع فُقر . والمرض فقر . والتعبُ فُقر . والضجر فقر . واشتهاءُ ما ليس لهم فقر . وقلة الأَصحاب فقر . وحتى

---

(١) أى مضايقها ومجاريها وأوديتها والكناية بالاضلاع عما بقي من مسالك الامم (٢) يزن ويقرف بمعنى يرمى ويتهم

لو أن أحدهم سخطته زوجته لنسب ذلك الى الفقر . وبالجملة فكونهم ليسوا كالأغنياء هو الفقر . فاذا كان الفقر كل شيء عند هؤلاء الحمق فما هو الشيء الذى يسمى الفقر؟

من أجل ذلك يا بني ترى الاغنياء يخشون من الفقر على أنفسهم وهم أنفسهم لا يخشون منه على الفقير لأن هذا الفقير في رأيهم قد أصبح شخصاً آخر لا صلة لهم به ولا عهد فهو يكذب على الحوادث والحوادث تكذب عليه وجزاء سيئة سيئة مثلها . فاذا انخدعوا له فبمقدار ما يتعجبون من سخافته وإذا أعطوه كان العطاء سخيفاً بمقدار ما ينخدعون . ولا ينظرون لأثر الله عليه ولكن لأثره على نفسه إذ الحقوق عندهم حقوق انسانية فيهات يختلج فى نفس أحدهم أن لو شاء الله لوضعه فى ثياب هذا الفقير ولوضع الفقير في ثيابه .

أترد مثل هذا الغني الجلف المتسكع الى الدين : انه فى نفسه دين وشريعة أيضاً . . . أتبصره بالانسانية : فمن هو إذن ويلك إن لم يكن من صميم هذه الانسانية وعين أهلها بل إنسان هذه العين . أما الحق فأذكر بربك أمواله تعلم أن

« الحق في يده » ... هكذا هكذا يُعطي المال أهله حتى فضائلَ غيرهم ويسلب الفقر أهله حتى محاسن أنفسهم . وهكذا لا تجد المال أبدا الا نعمةً ناقصة ولن تتم هذه النعمة الا اذا رزق الانسان مع الغِنى أخلاقاً تكفيه شرَّ الغنى . ومن أجل هذا كان من الأمور الطبيعية أن تجد العقل في إنفاق المال أشدَّ ارتباكا منه في جمع المال .

قال الشيخ علي : ولا بد من صلة معنوية بين جميع الناس على ما يكون بين الانسان والانسان من التباين والاختلاف في كل شيء حتى بين الأخوين تلدهما الأمُّ الواحدة ، وهما مهما اتفقا في الحياة ومظاهرها فانهما لا بد مفترقان افتراقَ الضِّدين اللذين ارتضعا منهما الحياة . فما عسى أن تكون هذه الصلة العامة بين الناس ؟ تقول الشرائع إن الصلة التي تجمع الناس بعضهم ببعض هي العدل . وتقول العلوم إنها العقل . وتقول الآداب انها شيء من العدل والعقل يُكوِّن الانسانية في الضمير . وتقول الحياة إنها سبب الانسانية وهو الرحمة . ثم يرعدُ صوت الهي يَقْصِفُ من

جهة السماء التي هي مصدرُ العقل والعدل والانسانية والرحمة فيصيح بكل ما فى هذه الأشياء من القوة ويقول كلاً : بل هو سبب الرحمة ومظهر الانسانية وكمال العقل وفضيلة العدل وهو الفقر .

من الذي وُلد وفى يده قطعة من الذهب . ومن ذا الذي مات وفى يده « تحويل » على الآخرة ؛ لقد وَسِعَت الخرافاتُ كل شيء الا هذا . فما لنا نحد فى البَدء والنهاية ثم نختلف فى الوسط ؛ ذلك لأن بدءنا من طريق الله ونهايتنا فى طريق الله ولكن الوسط مَدْرَجةُ بيوتنا ومصانعنا وحوانيتنا وبكلمة واحدة طريقُ بعضنا إلى بعض ... وحيثما التقى الانسان بالانسان فأما أن تلتقي المنفعة بالمنفعة والا فالمنفعة بالمضرة . فلابد من انتفاع أحدهما أو كليهما . ومن ثَمَّ يقول البخلاء ما الذي ننتفع به من رحمة الفقير . وما له يريد أن يَتَحَيَّفَنا كأنه رُوح الجَدْب ، وأن يَتَعَرَّقَنا كأنه روح المرض (١) وما له يُريدنا على أن نسيء من أجله المَسَّ

(١) تحيفتهم السنة أى الجدب اذا نقصتهم وجارت عليهم وتعرق العظم اذا لم يبق عليه شيئاً من اللحم

فى أموالنا كأنه روحُ الإفلاس ؛ أو لا يكفيه أننا لا نَرْزَؤُه شيئاً وأننا نُفْضِلُ عليه فنعتدُّ الدرهم الذى نُمسكه عنه كأنه درهم أخذناه منه وبذلك لا يضرنا ولا ننفعه بشيء ، ومن الجهة الأخرى لهذا القياس يكون قد نفعنا ونفعناه بلا شيء . . ؟

قاتل الله البخل وقبّحه فما هو الا حرص على المنفعة يُشبه عبادة الوثنيين لكل ما توهموا فيه المنفعة ، وان كان للحواس نوع من الكفر بالله فكفر اليد فى إمساكها . وان الله لرحيم إذ لم يعاقب البخلاء بما يعاقبون به الناس فليس بين كل بخيل وبين الهلاك إلا أن ينقل الله « الإمساك » من يده الى جوفه . . . على أن البخل إذا لم يكن بقية من الوثنية القديمة بعينها فهو على كل حال نقص من الايمان لأن الله وعد المحسنين والمتصدقين ثواب ما أنفقوا مكافأة على فضيلة الاحسان التي هي في الحقيقة فضيلة الاحساس . ثم أن يُخْلِفَ عليهم ما أنفقوه أضعافاً مُضاعَفَة إذ المحسنُ لا يجود بدراهمه على الله ولكنه يُقْرِضُه إياها قَرْضاً حَسَناً متى وضعها فى يد الانسانية الفقيرة . فمن أمسك عن الاحسان بخلاً

فانما يشك في وعد الله ، والا ففي قدرة الله ، والا ففي الله نفسه . فأكبر البخل عندأ كبر الكفر وأصغره عند أصغره. ويوم يخرج الإيمان من قلوب الأغنياء تخرج أرواح الفقراء من أجسامهم فيموتون بالجوع وبالعُرْي وبالمرض وغيرها من أسباب الموت وكلها مظاهرُ متعددة لسبب واحد هو في الحقيقة كفر الأغنياء كفراً في الضمير لا كفراً في اللسان .

ومن هنا يا بنيّ لا تجد الفقير في أي عصر من العصور الا جهةً من الخلل في نظام الاجتماع الانساني كما أن البخل جهةٌ من الخلل في نظام النفس الانسانية . والفراغ الذي يجده الفقير في بيته انما هو موضع النعمة الضرورية التي بخل بها الغنيّ وهو في الحقيقة موضع التفكك أو الكسر في الآلة التي تديرها شريعة الاجتماع .

الانسان انما خُلق اجتماعياً وهو بشخصه لا قيمة له ولا منفعة الا حيث يكون شخصه جزءاً من مجموع لأن اليد الواحدة في الجسم ولو كانت يد ملك وكان فيها زِمامُ العالَم

فانها لا يفارقها عيبُ أختها المقطوعة .

وكل خلل في النظام الاجتماعي فانما مَرَدُّه الى طغيان بعض الأفراد وجنوحهم الى أن تكون شخصية الواحد منهم من الكِبَر والعَظَمة بحيث تُوازِن المجموع كله أو أكثر المجموع . بَيْدَ أَنَّ هذه الموازنة الفردية متى اتفقت كانت إخلالاً بالموازنة الاجتماعية لأنها تجعل كل حركة من هذا الفرد زلزلة في المجموع كالثقل في إحدى كفتي الميزان إن خف سقطت الكِفةُ الأخرى وان ثقل شالَتْ وهو السقوط الى فوق . . .

والموازنة الاجتماعية لا تتهيأ الا اذا تطبَّعَتْ قوى المجموع [1] فاندفقت في تيَّار واحد الى جهة معيَّنة .

ولكن الموازنة الفردية لا تستقيم الا اذا جاءت من عكس هذه الجهة فتصدم قوة المجموع وتبقى دائماً ذاتَ قوة على صدّها . ومن أراد الغَلَبة فان ضعف خصمه يعطيه منها أكثر مما تعطيه قوة نفسه ، ولا يكون ضعف المجموع الا

(١) من قولهم تطبع النهر اذا اجتمع ماؤه وعلا فاندفق أو كاد

من حصر الشخص العظيم قوةَ عقله و نفسه وضميره في هذا السبيل الفردي لتكون منه الشخصية الهائلة التي تُشبه ما كان في تاريخ الوثنية من شخصيات الآلهة وأنصاف الآلهة.

وقد اضطرُ الناس لذلك من عهد اجتماعهم على نظام أو شريعة الى ابتداع الوسائل للتوفيق بين قوة الفرد وقوة المجموع حتى لا يَستَشْرِيَ الداء [1] في الموازنة الاجتماعية فيفسدَها ويُوقع الخلل في نظامها ولكيلا تكون خيراتُ المجموع كلها في مَعِدَة واحدة وحتى لا يبقى الناس أرقاماً يعدهم الغنيُّ المستبد كما يعدّ دراهمه لأنهم ثروته الحية.

غير أن هذه الوسائل على اختلافها لم تكن ولم تزل الى عهدنا عهد الاشتراكية العامية [2] الا ثَوْرات هي مهما كانت فانها أشبه شيء بجُمُوح الحيوان إذ يحمي أَنْفُه فيجمح ثم يسترسل في جماحه ثم يشتدُّ حتى يَعْتَرَّ صاحبَه على رأسه

---

(١) استشرى الداء اذا سرى في الجسم (٢) ليس في الوسائل الاجتماعية كلها ما يعدل نظام الزكاة في الاسلام • وفي هذا الدين العظيم أصول انسانية عامة لا بد ان تتنبه لها الامم فتكون سبباً في إقبالها عليه وظهوره على الدين كله ومن هذه الاصول الزكاة

ويملك نفسه منه ثم ماذا ؟ ثم يسكن مكرهاً بعد أن جمح راضياً فان لم يُسكنه الألم من صاحبه أسكنه التعب من نفسه . لأن التخلص من شيء في فطرة الانسان وانتزاعه من مَغْرِزه في نفسه لا يكون بالتخلص من انسان بعينه .

ومن هذا يا بنيَّ ترى أن الانسان لا يعيش فرداً ولكنه حين يموت يموت فرداً . فاذا رأيت فقيراً منبوذاً من الاجتماع منفرداً عنه لا يُساهِمُه في عمله وعيشه بل كأنه يعيش في بقعة مجهولة من الحياة ، فاعلم أن إهمال ذلك الفقير إنما هو نوع من القتل الاجتماعي .

هنا قاتل ومقتول . لم يأخذ القاتلُ بحق من الحقوق ولا ثأر لنفسه ولا قتل بيده ، أما المقتولُ فانه لم يُقتل في إثم اجْتَرَحَه ولا هو جنى على نفسه الضعفَ الذي أرهقه وبلغ منه حتى جعل إهمالَ القويّ إياه كأنه حكْم عليه بالقتل . فتُرى على من تكون هذه التَّبِعَة وهي بالتحقيق ليست على القويّ لقوته ولا على الضعيف لضعفه ؟

هناك اثنان رجلٌ في الماء وآخر على الشاطئ . فأما الذي

في المـاء، فليس بينه وبين الموت غرقاً الا نفَسٌ واحد مبتلَ يَنْسَلُّ بالماء من حلقه الى رئتيه وهو يرى بعينه الموتَ دائباً في حفر قبره المائي فليس الموجُ الذي يتكفأُ به ويتناثر من حَوْلَيْه الا ما تثيره يد جبار الموت من غبار ذلك القبر وتحثُوه في وجهه بنزق وغضب . بعيدٌ عن الأحياء حتى بَعُد عن أن يكون له قبر بينهم ، ولا صلة بينه وبين الحياة الأرضية الا نظراتُ ذلك الرجل القوي الذي يتراءى في عين الغريق كأنه صخرة راسية على الشاطئ لها قوة وليس لها إرادة . ولكن هذا الذي يشعر بصلابة الأرض تحت قدميه ويحسُّ القوةَ من يده وعضلاته يشعر أيضاً بمعنى من الصلابة في قلبه ، وقد جاء الى الشاطئ ليتنفس من تلك النسمات التي يتنهَّد بها صدر السماء فتكون أرواحاً للأمواج تبعث فيها حركة الحياة .

ماله ولهذا المنظر : سوادٌ يطفو على الماء كأنه هِنَةٌ من المتاع الخَلِق أو حِذاء قديم أو ريشٌ تحسَّر عن طائره (١) أو رأسُ رجل يغرق ، وما دفعه بيده الى الماء فيكون حقاً عليه أن

---

(١) أي سقط

يستنقذه ، ولا كان الغَوْصُ من صناعته فيحتمِلَ في إخراجه لِيُخرجَ معه أجر عمله ، وهو قوي ولكنه قوي لنفسه لا للضعفاء ، وقد جاء لِيُرَوِّح عن نفسه وإنقاذ الغريق عملٌ آخر وربما أنشبَه في حلق الموت . أخذ فيما جاء له وما زال يَمُوج في جلده ويتنفَّس ملء صدره من الهواء ، ومن زفرات الانسانية التي تنشقُ لها غيظاً ومن لعنات ذلك الغريق الذي بدأت حياته تذوب في البحر كما يَنْماثُ الملح في الماء (١) حتى آنَ له أن ينصرف وترك الرجل يغرق وهو يقول لا بأس أن ينقص عدد أهل الأرض واحداً فهم كثير . . .

تُرى على من تكون هذه التَبِعة أيضاً ؟

اذا أردتم أيها الناس أن تعرفوا ذلك فانكم تستطيعون أن تحققوه بدون أن تكونوا شُرْطَةً (٢) أو قضاة أو أهلَ قانون أو رجالَ فلسفة ولكن بأن تكونوا من ذوى الانسانية فقط . فان الانسانية لا ترى في الأرض الا الضمائر وما هذه الاجسام الا أدواتٌ صناعية ركبت هذا التركيب

---

(١) أماث الملح في الماء ذاب (٢) هم رجال البوليس والواحد شرطي

لتصلح لحياة الضمير . فالرجل قد مضى بريء اليد ، بريء القوة ، بريء العقل إذ هو لم يقتل ولم يجن على القتيل ولم يحتلْ لقتله ولكن الانسانية حين تنادى الضمائر بأوصافها فتقول : أيها الطيب وأيها الكريم وأيها الشقي وأيها السافل تصيح بضمير هذا الرجل قائلة أيها القاتل !

اذا لم يُقرَّ الأغنياء لأنفسهم بالضمائر ولم يُلحِقوا بها التَّبِعَات التي تناسبها فبل هم فى ذلك الا كالمجانين لا تقرُّ لهم الشرائع بالعقول وتُخليهم من تَبِعة ما يجنون على العقلاء لأنهم مجانين . وكيف ترى ذلك الغني الفظَّ الذى يَمُرُّ فى وجوه الفقراء ويُزمْجر عليهم كأَنه يَنبَحُهم بلغة من لغة الكلاب . . . ولا يفتأ يقذفهم بالألفاظ الجاسِيَة المؤلمة كما يقذف المجنون بالحجارة . . . واذا أعطاهم فانما يعطيهم بقبضة فارغة . . . وهو لا يُوقِّرأبدا الا من فوقه كأنه لا يرى فى الدنيا كلها أسفلَ من نفسه . . . ولا يبالي الا بمن يطمع فيه كأنه جالس فى (مكتب أحد المخدِّمين) . . وقد تساوى فى الدناءة والتكلف بالدنيا وقذارة الطباع ظاهرُهُ وباطنُه

كأن ضميره لَبِسَه مقلوباً . . . وصار أمر رضاه وغضبه وإحساسه وحياته موقوفاً على ما يكون من أمر المعاملات كأن أخلاقه ليست في نفسه ولكنها فى أيدي الناس . . . أفليس مثل هذا الغنيّ الدنيء رجلاً عافلا ؟

بلى وانه لأعقل من كل من يمدحه ويزكّيه ولو كان هذا المُثنِي عليه أكبر علماء الاقتصاد ؛ ولكنه على ذلك مجنون الضمير بحيث لا يعقل الا بحواسّه .

ولو أنصفت القوانين لما لَبِست مثل هذه الحرية الانسانية على رذيلتها ولجعلت من نصوصها القاطعة ما يكفح مثل هذا الغنيّ [1] ويتلقّاه بلجامه لأنه فى الحقيقة ليس رجلاً ولكنه . . دابّة اجتماعية .

قال الشيخ علي : ومن بديع حكمة الله أنه وضع للانسانية أصلاً من أصول نظامها فى ضمير الانسان فترك له أن يقترف ما شاء من الإثم والمُنكَر ولكنه جعله من الإحساس بطبيعة الخير والشر بحيث يكون له من الذنب نفسُ العقاب على

(١) كفح الدابة اذا تلقى فاها باللجام .

الذنب ، حتى ان شرّ المجرمين ليستعين على مقارفة جرمه بإقناع الضمير بديًا (١) وأخذه بالحجة من هواه فيخطر فى نفسه ما ينزو بها كالشجاعة والنخوة أو ما يتوهج بروح الغضب فى دمه كالانتقام ونحوه أو ما يطمئن له الضمير فى معنى الجناية كمدافعة الضرر وما اليه . وبالجملة فان أول ظلمه أن يعتقد ظلمه عدلاً أو شبيهاً بالعدل حتى لا يلتوي عليه أمر نفسه اذا خذله ضميره فان اضطراب هذا الضمير يتصل اتصال الكهرباء بأيدى المجرمين فاذا هو فيها شلل ، وبأرجلهم فاذا هو زلل ، وبنظامهم العصبي فاذا هو خلل ، وبعقولهم فاذا هو المس والخبل ، واذا لم يفلح الجاني فى إقناع ضميره أو التلبيس عليه تخلص منه ففصل بينه وبين العقل بالسكر وما هو في حكمه حتى لا يشهد من أمره شيئاً . أفلا نجد فى تخدير أكثر المجرمين لضمائرهم ساعة الجناية دليلا على أن الضمير الذى يشهد الذنب انما يتلقى العقاب عليه . ولماذا تدفع الجريمة الى الجريمة غالباً . أليس ذلك لأنها انما تقتضي

(١) فى بدء الامر

عقابها الطبيعي :

ثم ماذا يكون بعد أن يضرب الشقي تلك الحاسة الروحية التى نسميها الضمير ويرميها بالشلل ؟ إنه ينحط درجة واحدة ولكنها درجة الضمير التى لو جازها الحيوان لصار انسانا ولو نزل عنها الانسان لعاد حيوانا . فلا يبقى فيه من ثمّ الا الفطرة الحيوانية التي تجعل عقل الحيوان مرة فى القوة ومرة فى الضعف ، فان أحسّ القوة على خصمه كان العقلُ فى الظلم بكل ضروبه وأشكاله وأبى هذا العقل الحيواني أن يترخص فى شيء [1] هو من حقه بالقوة ، وان أحسّ من نفسه العجز والضعف ورأى أن لا قِبَلَ له بخصمه فكفى باتقاء الظلم عقلاً . . .

يا بنيّ ! ان أفقر الفقراء ليس هو الذي لا يجد غذاء بطنه ولكنه الذى لا يستطيع أن يجد غذاء شعوره فلا تحسبنّ أن مع جنون الضمير وجفوته ومرضه سعادة وراحة لأن لذة المال لا تتجاوز الحواس الظاهرة فهو يتناع

(١) ترخص في حقه اذا أخذ ماطفّ له ولم يستقص

لها كل شيء مما تشتهي ولكنه لا يستطيع أن يُنيل القلب شيئاً الا اذا جاءه بالخير والفضيلة .

والغنيّ الذى يمنع الفقراء ماله قد يزيد فيه ولو حُكْماً بمقدار ما يمنع . بضعةَ دراهم أو بضعة دنانير ولكنه يزيد ضميره جفاءاً بالقسوة والغِلْظة ونسيان الفضيلة . ولا يزال على ذلك حتى يمر به يوم يفقد فيه ضميره كلَّ شعور بالخير فيفقد معه كلَّ شعور بلذة النفس التي هى أقرب المعاني الى معنى السعادة . ويومئذ لو اشترى كل لذات الدنيا بماله مازادته الا ألماً من الضجر وضَجَرًا من الألم لأنه فقد قوة من ضميره تقابل القوة التي يفقدها المريض من مَعِدَته . فلينظر الفقير الجائع وقد أخذه كَلَبُ الجوع وسطع في عينيه وَهَجُه وذارت به مَعِدَته ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال — الى رجل غني مَعْمُود (١) فى كفه معنى الحياة وفى جوفه معنى الموت ، وقد ابتاع مما تشتهيه معدة خياله التى لا تشبع لأنها لا تنال شيئاً ، وأسْرَفَ بالمال فى ذلك حتى استجمع الكثيرَ

(١) مريض المعدة

الطيِّب ، ثم انقلب الى داره بعينٍ من ذلك الذئب تكاد أشعتها تُنْضِج الغذاءَ من حرّ نظراتها اليه .

سلوا صاحبنا الفقير يَقُل لكم أيّ لذة ياقوم تكون فى غير هذا الطعام الذى يُقتل به داءُ البطن (١) وتتفتّق عليه الخواصر شِبَعًا وسِمْنَةً ، وهل هذه الأَرْوحُ مائدة من موائد الجنة فيها مما تشتهي الأنفُس وتقرُّ الأَعْيُن ؛ وسلوا المعمودَ المسكين يقل لكم وهو صادق صِدْقًا يتمنّى بما ملكت يداه من الدنيا لو أنه كَذِب . يقل لكم تالله ما أجد فى هذا كله ولا فى بعضه من لذة ولو أَلْجَته جوفي لكان الموتَ بعينه .

إذَنْ فلا بد فى كل شيء إنساني من حقيقة باطنة فى نفس الانسان تعطيه بصحتها أو مرضها قوة اللذة أو الألم ، وبهذا يقضي العدل الالهي كلَّ ذي حق حقّه بالنَّصفَة والسوِيّة لا فرق بين الغني فى غناه وبين الفقير على فقره فلكل منهما لذة وألم . ولعلنا لو سألنا أغنى الناس عما هي لذة الغنى لرأيناه فى حقيقة التعاسة النفسية كأفقر الناس اذا

(١) داء البطن هو الجوع

أجابنا عما هو ألمُ الفقر .

وقد فُطِرَ أكثر الخلق لطبيعة الخوف المتمكنة منهم على أن يتَّسِعوا في فهم الآفات وحدها حتى صار الوهم الخيالي أكبر الآفات الحقيقية . فالفقير الذى لا يفهم حقيقة الفقر يتألَّم بإدراك ووهم وفلسفة إذ يقيس حاضرَه على ماضيه وعلى ماضي غيره من الفقراء ويقيس مستقبله على حاضر الأغنياء ومن في حكمهم فقط، وبهذا يكون ألمه عملاً عقلياً في شيء موهوم فما دام يتمنَّى أكثر مما يستحق فهو يتألم بأكثر مما يستحق . ولو تأمل الناس لرأوا أن نصفَ الفقر فقرٌ كاذب . فآهٍ لو كان مع ضعف الفقر قوةُ الإرادة . إذن لوجد الحكماء في الأرض شيئاً حقيقياً يسمونه الغنى

أيها الناس : ان الفصل بين الغنى والفقر من الأمور التي تتعلق بالضمير وحده وَرُبَّ غِنًى يزيد أهله بالحرص والدناءة فقرا . فانظروا فيهما بأفكار الهيبة لا تطلب الا الفضيلة التى يمكن أن تكون بلا ثمن ولا يمكن أن يكون شيء ثمناً لها . انظروا الى بعض الأغنياء الذين تموت فى

قلوبهم كل موعظة إنسانية أو الهية فلا تثمر شيئاً حتى اذا ماتوا نبتت كلها من تراب قبورهم فأثمرت لنفوس المساكين والفقراء عزاءً وسلوى وموعظةً من زوال الدنيا . انظروا بعين الحقيقة التى تعطي هذه الطبيعةَ النظر فتعطيها محاسنُ الطبيعة الفكر .

أنظروا فى باطن الانسان بالفضيلة التي هي من نور الله ، وبالحقيقة التي هى من نور الطبيعة فانكم لا ترون حقيقة الغنى تبتعد عن حقيقة الفقر الا بمقدار شبرٍ واحد ، هو ملء هذه المعدة .

الفصل الثالث

« مِسكينه مِسكينه »

قال الشيخ علي : واسمع الآن يا بنيَّ ما أَقُصُّ عليك فاني مُحدِّثك بخبر ليتني ما علمتُه بل ليتني إذْ علمتُه ما وعيتُه وليتني إذ وعيتُه ما أَثبتُّه ولا نفذتُ فيه كما نَفَذَ فيَّ .

ولكن الحياة كما تقضي علينا أن نَشْهَدَ أموات الأحياء ونحملهم الى أبواب الآخرة من تلك الحُفَر ، تقضي علينا كذلك أن نشهد أحياء الأموات من أهل الرذائل ونحمل من أخبار ضمائرهم الميتة الى أبواب السماء فى أنفسنا .

فواها لك أيتها الحياة الدنيا تقتلين بالشر وتجرحين بأخباره ولا تُؤْتين عَسَلَ الحكمة الا بعد لَسْعٍ كثير .. !

وقد علمنا أن كل شيء يسيرُ فانما هو يذهب فى طريق يَتَهَدَّى أو يَعْتَسِف [1] وكأن الأسف على أهل الشر لم يجد

(١) على هدى أو غير هدى

له طريقا فى هذه الحياة الا من ضمائر أهل الخير .

كانت لنا يا بنيَّ فى هذه القرية النَّضِرَة فتاةٌ بائسة ضاق بها العريضُ من هذا البَرّ فخرجت الى بعض المدن تَسْتَطْعِمُ الحياةَ . فحدثتني أنها استضافت حتى كأنما كانت تنفذُ الى رزقها من شِقٍّ في صخرة في غارٍ في جَبَل . ثم استضافت فكأنما وَلِجَتْ هذا الغار فانحدرت تلك الصخرةُ فسَدَّت عليها فلا وراءَ ولا أمامَ وأعجزها حتى المَعاشُ المُلَفَّق (١) .

وخرجتْ يوماً على الناس وكأنها لقذارتها قطعةٌ من الحياة البالية مُدْرَجةٌ فى بعض الأطمار ، أو رُوحٌ من الهواء تمشي ساكنةً فى أرديةٍ من الغُبار ، وما تُحصي العين تلك البُقَعَ المنتشرةَ فى ثيابها ، كأنها أرقام للفقر يَعُدُّ بها ليالي عذابها ، وهي علم الله بُقَع ، أشأمُ منها أنها في رُقَع ، وقد اغبرَّ شعرها الفاحم وتلبَّد ، فكأنهُ بعضُ ماوقع على رأسها من حظها الأسود ، ولاح من تحته وجه كالدينار الزائف فى

(١) الذى يكون تلفيقاً من هنا وهنا فلا يستقيم ولا يطرد

صُفْرته ورَدِّه ، وكالقمر المَمْحُوق فى استطالته تحت الظلام ومَدِّه ؛ وهي فتاة عليلة قد أخذ السَّقام من حجمها ، كما أطفأت الأقدار من نجمها ، وخَفِيَ من المرض فى صدرها ، أكثر مما خفي بين الناس من قدرها ، وما تعرف من أسماء الأموات والأحياء غير أسماء أهلها ، ولا تملك من الارض كلها أكثرَ من غبار نعلها ؛ وقد خرجت تحامل فكلما خافَتَتْ فى مشيها قليلاً خافتِ العِثار ، فاستندت الى جِدار ، فاذا رأيت ثَمَّ رأيتَ صورةَ البؤس ولكن فى غير إطار (١)

وانها لتمشي وليس فيها دمٌ ينتهي الى قدميها فهى تجرها جرًّا وتقتلِعهُما بين الخُطوة والخطوة وما تدري من الألم أهما على الأرض أم فى الارض يَسُوخان ، وقد تزايلَتْ أعضاؤها فما تُحِسُّ أن فيها حياةً متماسكة . وهي ما فتِئَت تحسب أن جسمها قد خُلق نعشاً لقلبها فلا هذا القلب يحيا كما تحيا القلوبُ ولا ذلك الجسم ينمو كما تنمو الاجسام

وفى رأسها عقل زاد فضلُ الله ورحمتُه في جهة منه

---

(١) هو ما يحيط بالصورة توضع فيه ويسميه العامة (البرواز)

ونقص عُنْفُ الناس وقسوتُهم من جهـة أخرى ، فبينا هي على ذلك تحمد الله اذا هي مع ذلك تلعن الناس . وهي مرة تنظر الى الحياة فـترى كل شيء في الحياة الا نفسها ومرة تنظر الى الموت فلا ترى في الموت شيئاً الا نفسها ولم يكن يُمسِك روحها بين الاثنين الا خيْطان أحـدهما من السماء وهو الأمل في رحمة الله والآخر من الارض وهو إشفاقها على جدَّتها التي كانت تكْدَح منذ الصغر لقوتها . تلك الجدَّة الفانية التي كبرت وبلغت من الـكِبَر حتى حسبتها الفتاة قد كبرت عن سنّ الموت . . .

أما الآن فقـد تبين لهـا الخيط الابيضُ من الخيط الأسود وانصدعت حفرةُ جـدتها المسكينة ولم يبق لها الا رحمة الله .

قال الشيخ علي : وكان خروج هذه البائسة أَصِيلَ يوم من أيام الصيف ذهبت فيـه طاويةً على الجوع كما تغـدو الطيورُ من وَكَنَاتِها وملءُ بطونها هواء . غير أن الطيور تهزأ بالنـاس جميعاً وهي على ضَعفها أقوى من الشرائع

والقوانين إذ تنبعث وكأن كل طائر منها ارادة متجسمة تَقْذِف بها السماء فما تبالي على أي أرض تقع ومن أى حَبّ تلتقط ولا تعرف الا أن هذا الانسان يعمل على السُخْرة ليُخرج لها من الارض رزقها رَغداً .

أما الفتاة فكل الناس يهزأ بها وهي ترى كل انسان على مِلْكه كأنهُ قانونٌ وُضع لعقابها اذا حدَّثتها النفسُ حديثاً فقد بلغت من الضعف والمرض والفاقة الى حال لا تجعل يديها تصلحان لعمل غيرِ الأَخذ فان اختَلَست قيل سارقة فعوقبت ، وان سأَلت قيل متشردة فكذلك . وياليت فى قلب هذا الانسان من معاني الصَّفح بعضَ ما في لسانه من ألفاظ القصاص ولكنه حيوان متكلم فتنصرف فطرتُه الحيوانية أكثرَ ما تنصرف الى لسانه كما تمثل هذه الفطرة من سائر الحيوانات فى حواسّها التي تَبْطُشُ بها وكِلاَ النوعين سواءٌ فى الافتراس والكَلَب والتوحُّش فما اللسان الا حاسة البطش العاقلة . . . وقلَّما يؤذي الانسان ، قبل أن يؤذيَ بهذا اللسان .

ولم ترَ المسكينة أَرْوَحَ لنفسها المكدودة من الانتحار وكأنما يُخَالُ لها أن فى الموت عيشاً فخرجت تمشي بين الناس الى قبرها كأنها فيهم جنازة وهم يُشَيِّعونها . ولئن كانت لم تُسَرَّ بالحياة فلقد سرها أن ترى تشييع جنازتها وهي حية تموت ولا أقول وهي حية ترزق فان العلة النازلة بها قد أخذت عليها مذاهب الرزق حتى لم تترك لها في الناس « وجهاً » وقبضت عنها الأيدي الا تلك اليدَ الواحدة التي تأخذ ولا تعطي وهي يد الموت .

وانها لَتَنْفَتِلُ وتلتوي على أحشائها من رَجْفَةِ الجوع وما تأخذ عينُها من الناس الا من يحمل بطنَه حَمْلاً من شِبَعٍ ورِيٍّ فكان نظرها الى الناس أمضَّ عليها من الفكر فى نفسها وكأنها تُقْتَلُ من جهتين .

وكذلك أخذت سَمْتَها الى طريق النهر وأمضت نيتَها على الموت غَرَقاً لتموت نظيفة وتكونَ لنفسها غاسلة وترسلَ روحها المتألمة الى السماء فى دموع السماء

ومشت تتساقط كأن الجوع والمرض يهدمان منها فى

كل عثرة ركناً أو كأنه كُتِبَ على كل بائس أن يموت في طريقه الى الموت .. وهي تنتهضُ من كل عثرة الى أشدَّ منها كما تتخطى العنكبوت في نسجها من خيط واهن يكاد ينقطع الى خيط أوهن منه . وقد اجتمعت روحها في عينيها فهي تسيل على نظراتها الشاردة وكلما امتدَّ بها السير قصرت مسافة النظر حتى توهمت ان الموت بادىء بها من عينيها . وانها لكذلك إذ لمحها طفل قرويّ قد انقلب من المدينة الى الضاحية التي غادر فيها أمه العمياء، وكان يعتملُ طوالَ يومه في بعض المصانع وهو يحمل طعامها الذي لم ينله الا ببيع نفسه يوماً كاملاً . على أن المسكين لا يُحِس من الذل انه اشترى نفسه بمقدار ما يُحس من العزة أنه ابتاع إداماً ورغيفين وقطعةً من الحلوى

قال الشيخ علي : وبَصُرَ هذا الطفل بالفتاة وأدرك أن روحها تخطو في أنفاسها وأنهُ الجوع لا غير ، وهو من أبنائه طالما شدَّ عليهِ حتى انطوى ، ولأنَّ لغمزاتهِ حتى التوى ، وما يعرف انهُ ابنُ أبيهِ وأمهِ ، أكثر مما يعرف أنهُ ابن فقرهِ وهمهِ ، فابتدر الى المسكينة وكانت حركة الحياة فيها

أسرع من حركة أضراسها في طعامه ثم ذهب لا يعرف ماصنع لأنه طفل أو لأنه فقير ؟ لا أدري

غير أني أعرف انه لا يسلم من لؤم النفس في صنعة المعروف وتطويل المنّ به وتعريض الحديث فيه الا الأطفالُ والا الفقراء . أولئك لأنهم لا يستكثرون الخير وهؤلاء لأن الخير منهم غير كثير

وانطلق الطفل وهو يلوي رأسه ويفكر في أي خدّيه تقع عليه اللطمةُ الأولى من أمه لأنها لا محالة ستحسبهُ اقترف إثماً فطُرد من عمله ، وانقطعت به طريق أمله ؛ والى أن يأتي الله بالصباح الذي يُنير برهانه ، ويُثبت لها إحسانه ، يكون هذا الليل ، قد صبّ عليه الويل ؛ وهكذا جعل يُشهد الله على ما سيلقاهُ في سبيل الخير بدلاً من أن يُشهد الناس على ما لقي غيرهُ منه في هذا السبيل من إحسانه وإيثاره . لأنه طفل أو لأنه فقير ؟ لا أدرى

أما الفتاة فأرسلت في أثره نظرة حية ولم تجزه غيرها بل جعلت جزاء عملهِ من عملهِ نفسه لأن ثرثرة الفقراء في

الشكر على المعروف كهذيان الاغنياء في التبسط على المن به كلاهما لا يكون الا من خبث أو لؤم وهي فتاة أقدمت على الموت ولم تقدم على السرقة . وانها لتعلم أن من أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ولكنها رأت الطفل غير أهل لأن يعرف موقع إحسانه من نفسها . لأنه طفل أو لأنه فقير ؛ لا أدرى

ولما أمسكت عليها النفس وراجعت الحياة بدا لها فيما اعتزمته من الانتحار فترددت وجعلت تساورها الظنون وخلق لها من معدتها عقل جديد يبصرها فرق ما بين الجوع والشبع وكذلك تعرض لبعض الناس حالات من الحرص يعقلون فيها ببطونهم حتى إن أحدهم لو تحسس رأسه وهو يفكر لحسبه بطناً صغيراً من العظم . . . فأنشأت الفتاة تستقيم على طريقها وهي تؤامر نفسها على الحياة والموت وقد بدأت تهضم فى معدتها الطعام والعزيمة جميعاً .

وبينا هي تسير نظرت فى عرض الطريق سيدة لو لبس معنى الغنى لفظاً ما لبس غير اسمها ، ولو كان للكبرياء رسم

ما رأيته غير رسمها ، وقد أورثها الغنى ذلك الغرور بنفسها ، حتى توهمت أنها في الأرض أخت شمسها ، وبلغت في النعمة من الحمق والبطر ، بحيث جعلت نفسها كالسماء متى تعبّس وجهها استهلت لعنايتها كالمطر ، وهي من أولئك اللواتي يخرج الغنى معهن في الطريق لا حارساً ولا منعماً ولكن للكيد والفتنة . فتنة المساكين وكيد الحاسدين . فخرجت في زينتها وكأنها حانوت جوهري ... وهي نَصَفٌ (١) من النساء ولكنها تتصابى فكأن في وسامتها وابتسامتها شباب عشر فتيات جميلات ... وقد ذهبت في أوضاع جسمها مذاهب هندسية بين المستدير والمستقيم والمنحني ... حتى ظهرت كأن نصفها من الله ونصفها من الخياطة ... واذا رأيت جملتها رأيت روضة الجمال بألوانها وأزهارها ولكن .. مصوّره ، فاذا انتهيت الى وجهها رأيت للحسن هناك شهادة على الله ولكن .. مزوّرة ... وعلى الجملة فقد جعلها حسنها

(١) هي المرأة بين الحدثة والمسنة أو التي بلغت خمساً وأربعين أو خمسين سنة .

المالي في رأي نفسها كالشرائع لا جدال فيها الاّ من زِنديق ...

ورأتها الفتاة كما تنظر المرأة الى المرآة بعين جامدة ليس فيها لغة ولا فلسفة ولا شعر ، فقالت يا لها سعادة أن تكون هذه « العجوز » ... لا تتقدم فى عمرها الى الامام ولكنها ترجع الى الوراء ، وأن تظهر بين الناس حسناء وان كانت من القبح بحيث ذهب نصف نهارها فى التحسُّن ، وأن لا تجد من هموم الدنيا أكثر من همّ الالفاظ إن قال الناس غيرُ حسناء أو قالوا غيرُها أحسنُ منها . ويا له شقاء أن تكون هي كما هي وأكون أنا كما أنا .

ثم رمت بعينيها الى السماء وانحرفت تُواجه تلك السيدة فما تبيَّنتها هذه وألمّت بما فى نفسها حتى انقبضت كأنما أثارت الارضَ فى وجهها دابةٌ جامحة ، وجعلت تتحاماها وتلوذ ههنا وههنا وتحثحث قدميها كأنها لِقاء خطر شديد . غير أن الفتاة ملأت عليها الطريق بحركاتها فكانت وَجْهَها (١) كيفما انحرفت يَمْنَةً أو يَسْرَةً وكأنما تُطارِدها مطاردة

---

(١) أي أمامها

فلما عَيَّتْ السيدة بأمرها وغاظ الفقرُ نعمتَها وهاج فضولُ الفتاة حَنَقَها وكبرياءها . وقفت لها وقفة القضاء عابسةَ الوجه شامخةَ الانف يكاد يَسْتَنْفِض الناسَ طَرْفُها (١) وتكاد تَمَيَّزُ من الغيظ وتدل هيئة وجهها على أن وراء شفتيها المرتجفتين كلمات أحدَّ من أنياب الوحش .

فلم تبال الفتاة وبقيت رئتاها واسعتين للهواء (٢) إذ ليس بعد الفقر خوفٌ ، ودَلَفَت اليها باسطةَ اليد وهي تكاد تُزلِقُها ببصرها حتى اذا وقفت بإزائها خفضت رأسها وقالت :

سيدتي : أدام الله نعمته عليك وهنّأكِ هذه النعمة بدوامها .

— هي دائمة وما أنت والنعمة ؟

سيدتي : وقاك الله ما أنا فيه من بأساء الحياة ولا كتب عليك أن تعرفي ماهي .

— فلماذا أنتِ وأمثالك في الحياة إذن أيتها الحمقاء وهل يُكتب تاريخ البؤس الا في صفحة من مثل هذا الوجه ؟

---

(١) اذا رأوها أرعدوا من هيبتها (٢) اذا اشتدت الهيبة على انسان ضاق نفسه ولذلك يقال ارتفعت رئتاه الى حلقه كناية عن الهيبة .

سيدتي : مهلاً مهلاً وانظري اليّ ينظر الله اليك

— قد نظر الله اليك من قبلي

سيدتي : هبيني خادماً أحسنتِ اليها

— فلتكوني خادماً طردتها ان بلغتِ ان تكوني خادماً لمثلنا

— يا ويلتنا ! ألا رحمة في قلبك فتجودي عليّ بما لا بأس عليك منه ؟

— ولماذا أُفضلك على سائر الفقراء ؟ ينبغي أن أجود عليهم جميعاً اذا أنا جدت عليك ولو فعلتُ لطلبت بعد ذلك من يجود عليّ

سيدتي : ألاَ فاجعليني من نصيبك في الاحسان وغيري من الفقراء لهُ غيرك من الأغنياء على المُوسع قدَرُه وعلى المُقترِ قدَرُه .

— إذاً فكوني أنتِ من نصيب غيري ودعي غيرك لي

سيدتي : ليس فقري عن خطإ مني وليس غناك عن صواب منك وما الرزقُ ياسيدتي من فضل الحيلة

— وهل أنا أريد أن أعاقبك فتنتفي من الخطإ ؟

— رُحْماكِ واتقي الله في الانسانية فلعل في قصرك الباذخ كلبةً جعلتِها أحسن حالاً مني

— حينما تصيرين مثلها فتعالي الينا وبومئذ تعرفين كيف تطرد الكلاب .

قال الشيخ علي : فكبُر ذلك على الفتاة وانتبهت في نفسها فضيلة الفقر فرأت أنها تنظر من ضمير تلك السيدة في مرآة مقلوبة من مَرائي الانسانية مهما جهدت أن تستقيم لها لم تزدها الا مَسْخاً . هنالك غلبتها عيناها وانطلقت وراء دموعها ولم تجد لها عَزماً

أما السيدة الكريمة — كما يقال — فابتلعت ما بقي في فمها من تلك الفلسفة وافترّ ثغرها قليلاً عن ابتسامة السخرية وسرّها أن يكون في لسانها كل هذا المنطق . . . ثم انْغَضَت رأسها بكبرياء وقالت : « مسكينة مسكينة » ومرّت بعد ذلك لا تَلْوي

وسمع الله قولها إذ تُجادل الفتاة وقد رَبَتْ في ثيابها من الغيظ وتَنَفَّشَت كالاسفنج فأطلق عليها دموعَ البائسة

وان هذه لتأنس راحةً في البكاء لم تعهدها من قبل فانزوت الى جانب من الطريق وجعلت تبكي ثم تبكي ثم تبكي حتى لو جُمعت دموعها لغمرتها وقد جمعها الله وأرصدها من أقداره لتلك الاسفنجة وقضى ربك ألاَّ تُعصَر بعد اليوم الا دموعاً

* * *

كانت للسيدة فتاة كطلعة البدر في الرابعة عشرة لا تصفها الا مرآتها وهي الدنيا مجموعةً في قصرها . وكأنها في النعمة مستقبل نفسها وماضي أمها ، وكانت هذه السيدة عقيماً ولكن شذَّت معها الطبيعة لأمر أراده الله فوُلدت لها الفتاة وكأنما انشقَّ لها القمر . ولم تذكرها في نفسها اذ كانت تُحاور تلك المسكينة بل ذكرت خادمتها وأنِفَت لهذه الذكرى . ومن شؤم الغِنَى على أهله ان لا يذكِّرهم في الشر الا بأنفسهم ولا ينسيهم في الخير الا أنفسهم فلا يعلمون أن الفقر أنواع كثيرة وأن الغنى نفسه نوع من الفقر الى الله . وبذلك ينظرون الى المساكين تلك النظرة التي لا تخلو من بعض معاني القضاء والقدَر كأن الالوهية درجات جعلهم الغنى في

واحدة منها . فما ظنُّكم أيها الأغنياء برب العالمين ؟

وانكفأَتِ السيدة الى قصرها فاذا فتاتُها تنتفض من وَعْكَة الحُمَّى وهي فى سريرها كقلب أمها فى اضطرابهِ والتهابه وما تعلم من أين اتصلت بها الحمى ولكن الله يعلم ولئن كان البعوض مما يُعَدُّ فى أسباب هذا المرض فلقد كان كلامها للفتاة يَنْفِر منها كما يَنْفِر البعوضُ من مُسْتَنْقَع . فخرجت المرأة عن رشدها وضاقت عليها الارض بما رَحُبت ولقد تكون المصيبة جنوناً وان لم يكن من أسمائها الجنون . على أنها لم ترَ مَلْجَأً من الله الاَّ اليهِ فابتدرت تدعوهُ وضرب الذهولُ بينها وبين اللغة فلا تُردِّد غير هذه الكلمات : يارب . يارب . ابنتي . ماذا جَنت . « مسكينة مسكينة » . « مسكينة مسكينة » .

وجاء الطبيب كأنما أُطلق فى قنبلة مدفع ضخم . . . فأسرعت اليه وهى تقول : ابنتي ابنتي أيها الطبيب « مسكينة مسكينة » . ثم مرَّت أيام وبنتها مريضة وهي مريضة ببنتها فكانت كلما نظرت اليها ملتهبةً ذاويةً لم يُجرِ الله على لسانها غير هذه

الـكلمات : آه يا ابنتي « مسكينة مسكينة » .

*
* *

قال الشيخ علي : وضرب الدهر من ضرَباته وخرجت الفتاة البائسة ذات يوم وكانت قد أصابت عملاً فتردَّم جانب من حالها وبينا هي تمشي مطمئنة رُفع لها شَبَح أسودُ في عُرض الطريق بجمات تُدانيه حتى حاذته فاذا هي بسيدة الأمس وقد حال لونُها ، واستحال كونُها ، وعادت من الهمّ كأنها ظلٌ منتصبٌ في سواد ، وظهرت من الحزن كأنها تمثالٌ منصوب للحِداد ، وهي تلوح من الذلة والانكسار ، كأنما مات بعضها ، وبقي بعضها ، وكأنما كانت حياتها من الأزهار ، فذهب ربيعُها وروضُها ، وبقي جذرُها وأرضُها

فما تبيَّنتها الفتاة ورأت ما نزل بها حتى نفرتْ دموعها حزَنًا ثم رفعت عينيها الى السماء وقالت :

يا رباه « مسكينة مسكينة » ...

« اللهمَّ مالِكَ المُلكِ تُؤتي الملكَ من تشاء وتَنْزِعِ الملكَ »

« ممن تشاء وتُعِزُّ من تشاء وتُذِلُّ من تشاء بيدِكَ الخيرُ »

« إنك على كل شيء قديرٌ . »

الفصل الرابع

قال الشيخ علي :

وأنت يا بنيّ ما إن تزال تَصِفُ الدنيا بلون لا أدري كيف أسميه ، فلا هو من وجوه أهل الحسد فأقولَ أصفر ، ولا من قلوب أهل البغض فأقولَ أسود ، ولا من صدور أهل الدم (١) فأقولَ أحمر ، ولا من شيء أَعرفه لأنه ليس شيئاً يُسَمّى . وعَلِمَ الله أن من يَهْوِي في جهنم سبعين خريفاً وعيناه تدوران في رأسه لا يُبصر من حيث ابتدأ الى حيث ينتهي شراً من وجه دنياك .

إنك يا بنيّ تُصوِّر الارضَ لا أرضاً ولا ماءً بل قلوباً ودموعاً ، وتعرفها لا دُوَلاً ولا أُمماً بل آلاماً وحوادثَ فكأن هذه الارض العظيمة تحتاج الى وَقْدَتَين من قلبك ومن الشمس ، والى نفحتين من خَيالك ومن الفضاء ، والى

---

(١) أي الثأر

قَدَرَين من حزنك ومن الأبد . ومن ثَمَّ فلا عجب يا بني إن كان مركز الثقل فيها على وهمين : على مِحْورها [1] وعلى . . . ظهرك

هَيْهاتَ لقد أسرفتَ على نفسك الضعيفة وجعلتَ هذه الحَصَاةَ الهيِّنةَ تحت مِطْرَقَةِ الزمن فما تزال رِخْواً مُنْبَعِثاً مُسْتَرْسِلاً في اندفاق ولين ، كأنك رَجُلٌ ولكن رجلٌ من العجين . وكم تقول لي (فلان) وجاهُهُ العريض ، ودهرُهُ المريض ؛ وانظر الى (فلان) كيف جعله الكِبْر يذكُرُ منّا وينسى ، وكيف أصبح من الغنى وأمسى ؛ (وفلان) كيف تمرُّ من فُرَج أصابعه سُفُنُ الآمال ، في تيّار المال ، كأن يده قنطرة على نهر الأقدار ، أو جسر تعبُرُه حظوظ السماء الى أهل هذه الدار ؛ و (فلان) قَبَحَه الله كيف صار شيطانه في إنسانه ، وطولُ عمره في لسانه ، وكثرةُ ماله في قلة إحسانه ، و (فلان) أخزاه الله فما بَرَّ ولا نفع ، بل تفرّق بالحرص على ما جمع ، وطمع في كل شيء حتى في الطمع ؛ (وفلان) الذى جمع وعَدَّد [2] ،

---

(١) محور الارض خط متوهم (٢) أى جمع المال وعدده

وخلقه الله واحداً وهو فى الرذائل يتعدّد ، وقد انتفخ كأنه شدْق إسرافيل ، وامتد كأنه يد عزرائيل ، واستكبر كأنه فرعونُ على النيل ؛ (وفلان) وما أدراك ما فلان : جبلٌ شامخٌ والناس في سفحه رمال ، ومجدٌ باذخٌ ولا مجدَ لمن ليس له مال ، وهو فى أهل الغنى الألِفُ والباء ، وان قيل فى غيره (ابنُ نعمة) فهو فى أهل النعمة أبو الآباء ، على رأس عظيم كأنه ركن الكعبة الذي يتوجه عُبَّادُ الغنى اليه ، وقامةٍ بائنةٍ (١) كأنها لجاهِ صاحبها قطعةٌ من المِحْوَر الذى تدور هذه الارض عليه ، وهناك أنفٌ أما فى السماء فله مَنْزِله ، وأما في الارض فعطْسَتُه زَلزَلة ، يَنفُضُ الناسَ من رهبته نفضا ، ويفرش الوجوهَ من هيبته أرضا ، وكأنه فى تلك الكبرياء ميزانٌ معلّق يرفع من ناحية ويخفض من ناحية ، بل كأنه فى ذلك الوجه القفر جُحْرٌ للنحس تختبئ فيه الداهية .

قال الشيخ علي : وما أنتَ يا بني وهذه (الفلانات) وأمثالها ؛ ان هؤلاء الناس بعضُ أعمال الله فى أرضه فهو

---

(١) ظاهرة بطولها أو جلالها أو نحو ذلك

بخلقهم وينشئهم ويديرهم لتعلق طائفة من الأقدار بنتائج أعمالهم طرداً وعكساً فما أشبههم بدابة الطاحون تلزم دائرتها ولا تفتأ تدور الى غير انحراف ثم هى لعلها حين تسمع ذلك الهزيز وتلك الجعجعة تحسبها من نشيد الاحتفال بها ..

فهم قوم مسخرون وقد يسرهم الله لما خلقوا له فضربهم بالحرص والطمع ضربة جبار لو نالت السموات والأرض والجبال لأشفقن منها ، وجاءهم الحرص بهذا المال أما الطمع فجاءهم بماذا . جاءهم بماذا يا بني ؟ لو قلت بصدإ القلب وهرم النفس ودناءة الطبع ، ولو قلت بكل ما فى الحشرات من القذر وبكل ما فى السباع من الضراوة وبكل ما فى الذبابات من السموم لكنت عسى أن أقارب الوصف ولكن المعنى الذي يتلجلج فى نفسي أكبر من ذلك كله ، غير أني أقول لك يا هذا إن ثلاثة من المتجاورات يفسر بعضها بعضا : الحرص مع الطمع ، ثم المال ورذائله ، ثم ما فى المعدة وما فى الامعاء ..

أتحسب أن هذا العالم يحفل برجل من الأغنياء قد أجحف (١)

(١) أجحف بهم الدهر واجتحفهم استأصلهم والمراد هنا استئصال النعمة

به الدهرُ وطحنته النوائب بأرْحائها . وتركته الأقدار أسودَ الحظ لا بيضاء ولا صفراء (١) ؟ فلِمَ لايعدُّون الغنيّ شيئاً دون المال ويحسبونه كل شيء مع المال ؟ أم للحقيقة أيضاً ذاتُ وجهين في الناس . . . ؟

المال . المال وحده لاغير . فنحن نحتاج الى الغنيّ صاحب المال كما نحتاج الى بائع الملح . . وما أشبهنا في إطرائه وفي الزُّلفى اليه بأطفال القرية إذ يتزاحفون الى بائع الحلواء التى تُلَفُّ بالعصا وإذْ هو واقف بينهم بعصاه وحلوائه كأنه الهُبَلُ الأعلى (٢) . وهو من تعلم دَسِمُ الثوب تَرِبُ اليد قَذِرُ التفصيل والجملة يصلح أن يُكْتَب على وجهه « مَتحف المِكروبات المصري » ولو رآه طبيب لجعل عصا الحلواء على رأسه تفاريقَ ، ولكن أين لا أين الطبيب في هذا الاجتماع ؟

كل أطباء الاجتماع ألسنةٌ وأقلام ومحابر ؛ أما اليد التى تُزيل المنكرَ أو تغيّره فلا أراها تمتدُّ الا من جانب الأُفق ولا تعمل الا بعون من الله وملائكته وقد انقضى عصر الأنبياء .

---

(١) لا درهم ولا دينار (٢) صنم كان في الكعبة

قال الشيخ علي : فان لم يكن الغني انسانا من الناس يواسيهم ويُسعدهم ويتخذ من المال سبيلاً الى أفئدتهم بالاحسان والمساعفة ، ويأخذ لنفسه بقدر مالها ويعطي من نفسه بقدر ماعليها ، وان لم يكن وجهه مرآةً للفقراء يُبصرون فيها ابتسامَ الدهر على وجوههم العابسة ولم يكن ذهبه عند دموع البائسين وعند أنفاس المحزونين ولم يكن اسمه فى دَعَوات المحتاجين وفى ألسنة الشاكرين فقد أصبح عندي كأنه لا شخص له ، بل هو شخصُ لعنةٍ من لَعَنات الله والملائكةِ والناسِ نُفِخَت فيها الروحُ وهي اللعنةُ أيَّ مُنْقَلب تنقلب .

ما أشبه المال أن يكون آلةً من آلات القتل فانه يُميت أكثر أصحابه موتاً شرًّا من الموت — الا من عَصَمَ الله — موتاً يجعل أسماءهم كأنها قائمة على ألواح من العظام النَّخِرة ويُرسلها كل يوم الى السماء في لَعَنَات لا عِدَادَ لها ثم يُثبتها فى التاريخ أخيراً لا بأعيانها ولكن بعددها أو كما تثبت الحكومة في كل سنة عدد البهائم التي نَفَقَت بالطاعون . . . فهذا الشخص الميتُ وهو بعدُ فى الاحياء لا يبلغ فى قَدْر

نفسه على الحقيقة أكثر من مقـدار حجمه من • من • •
من جيفة حمار • • •

يا بني : ربما كان الرجُل نبَاتَ نعمة الله لأنه سيكون حَصَادَ نقمته فهذه منزلة من البؤس والخـذلان يُستعاذ بالله منها • وكم رأينا من أناس تُخْصِبُ أبدانُهم حتى ليضيق بهم الجلد كِدْنَةً وسِمَناً ويكاد أحـدهم يَنْشَقُّ مَرَحاً ونشاطاً ثم لا يكون هذا الخِصْبُ الذى استمتعوا به شَطْرًا من العمر الا سبباً في أمراض مهلكة تَسْتَوْفي الشطر الآخر، فذرهم يأكلوا ويَتَمَتَّعُوا ويُلْهِهِمُ الأملُ فسوف يعلمون

وإنَّ خطأً كبيرا أنْ تقضيَ لفلان من (فلانانك) بمتاع الدنيا فانك لاتدري أشرٌّ أُريد به أم الخيرُ وكيف تحكم على غنـاه بفقرك وعلى آماله بيأسك وعلى شخصه بظلك وعلى نهاره بليلك وعلى عمره كله وهو بعدُ حي لم يُوَفَّ عمرَه ولا تدري ما عسى أن يكون له فيما بقي ؛ ألا دعه حتى يستنفدَ أيامه المكتوبةَ ويستوفيَ أنفاسَه المقدَّرة فلعل مصيبته قادمة في الغيب وكان غناه من مُقدَّماتها وعلى قوة المقـدمة تُقاس

قوة النتيجة . فاذا مات الغنيُّ ولم تعرف فى جملة عمره هماً ولا غماً يعدل بؤس الفقر مهما اشتدَّ الفقر فكفى حينئذ بالموت من تلك الجملة ؛ وانما الحياة مدة ستنقضي فسواء انقطع الخيط من أوله أو من وسطه أو من آخره فقد انقطع .

تقول ان لهم متاعَ الحياة ولو أنصفتَ لقلتَ ان لهم بؤسَها المُمْتِع . . ؛ فانهم يجمعون المال من طرق لا تُؤْتيه الا نَكَدا ثم يُرسلونه فى طرق أخرى ليجمعوه أيضاً ثم يجمعونه ليرسلوه ثم يرسلونه ليجمعوه وهلمَّ كما تدور دابَّة الطاحونة . وهب أنهم لا يألمون كما تألم فان يدالله قد غمزتهم من مكان قريب غَمْزةً مؤلمة ، وما أحسب الضَّجَر من اللذات قد خلق الا للاغنياء وحدهم وناهيكَ من بَلاءٍ يَغْمُرُ النفسَ بالنعم صُنُوفاً وألوانا حتى يتنكَّر لها معنى النعمة فتراها وقد ثابَرَ عليها الضجرُ مُتَكَرِّهة ولكن لا تريد الكراهةَ ومُتَسَخِّطة ولا ترغب فى السخط ومتألمةً ولا تعرف مِمَّ أَلَمُها ولا تبرح دائبةً تلتمس نعمةً لم يخلقها الله لتُحدِث منها لذة لم يعرفها الناس .

ولولا هذا البلاء وأنه ما وصفتُ لك لما أصبتَ على الارض غنيًا كهؤلاء الوارثين تضربُ به كلَّ لذة وجهَ أختها فتُسْلِمُه الواحدة الى الاخرى ويجذبنه بكل حروف الجر : من والى وفي وعلى بين الخمر والقمار والفسق وما لايحسُن أن يسمَّى حتى تُسْلِمه اللذة الاخيرة الى الفقر أو القبر .

ولو أن (ضجر اللذات) يصنع بكل الأغنياء هذا الصَّنيع لفسد الكون بَيْدَ أن الله أراد عُمرانه فجعل في طباع أكثر الاغنياء لؤماً خاصًا . لؤماً ذهبيا يَكْسِر من سَوْرة هذا الضجر كما يَفتأُ الماءُ البارد من الماء الحارِّ حين يمتزجان .

فالقوم إمَّا كريم يضجر فيُسْرِف وإما لئيم يضجر فيُمْسِك وكلاهما يجد لذته ويضجر من لذته ، فهم كما هم ونحن كما نحن وكلنا سواء كما ترى . وكأن أُمَّ المصيبة حين وَلدت وضعت بنتين : المصيبةُ التي تؤلم والنعمةُ التي لاتَلذ . وليس أشقى ممن مُنِع السعادةَ وأُعطِي الرغبةَ فيها الا الذى أُعطِيَ السعادةَ ومُنِع اللذةَ منها .

فلا تقل يا بنيَّ إن العصا لظهور الفقراء وحدهم فان هناك السوطَ أيضاً وهو رتبة عالية فوق رتبة العصا ولذلك خُصَّ بشرفها . . . الأغنياء .

وانظر ويلكَ هل ترى الفرق بعيدا بين الضجر من شيء لأنه موجود وبين الضجر من ذلك الشيء لأنه غير موجود . بين عدم الشعور باللذة وبين الشعور بعدم اللذة . بين ألم الغنيّ الذى لا تجده أبداً الا على شكٍّ فى أنه سعيد وبين ألم الفقير الذى لا تجده أبدا يشك فى أنه تعِس ؟

قال الشيخ علي : وتسألني عن التعاسة ما هي وكيف هي وتُريدُني على أن أَبْتَغِيَ لك مما بين ظاهرها وحقيقتها ؟ ألا فاعلم يا بنيَّ أن هذه الكلمة حقيقةٌ بأن تُنْسِيَ نفسَها ، وما ادَّعى أحدٌ معرفتها الا لأنه لا يجد أحداً يعرفها ، وكل شيء مجهول فما أسهلَه أن يكون من علم كل جاهل وما أصعبَه أن يكون من جهل كل عالم ، واني لأرى الناسَ يأتون فى وصف التعاسة بكلام كثير . وما أهونها إذنْ لو أن كل إنسان يُحسِن من وصفها بهذه السهولة . . .

لقد أُلِف هـذا الانسان من عهد القبائل فى الاجتماع الأول أن يطويَ العالَم كله في قبيلته ويجمع القبيلة كلها في نفسه فيزعم أن « كل الناس » يعرفون كذا « وكل الخَلق » يقولون كذا و« الدنيا كلها » و « كل العالَم » ، وعلِم الله ما فى الدنيا ولا في العالَم من يعرف أو يقول غيره أو هو مع غيره من ذويه الى اثنين أو ثلاثة أو جماعة منهم ، ثم بقي ذلك ميراثا فى أخبار الجهلاء وأوصافهم وفى كلام أهل المُجازفة الى اليوم .

ولكن ان شئت أن تعرف التعاسة — ولا أقول ما هي حرسك الله ولكن ما عِلمُها — وأن تسمع لها وصفاً آتيا من جانب السماء فالتمس في دار الهموم من لم يبق له هَمٌّ يحمله إذ يكون قد احتمل كلَّ هم — فان مثل هـذا المخلوق الذى لا تعرف ان كان حيًّا فى ثيابه ميِّتاً فيما وراءها أو هو ميِّتٌ فى ثيابه حيٌّ فيما بعدها — متى استفرغ دمع أجفانه ومات البكاء فى عينيه ؛ خَلَق الله في لسانه ألفاظاً كالدمع ولغةً كالبكاء ومعانيَ هي فى جملتها أوصافُ التعاسة على الحقيقة .

وأين تَحسبُك واجداً هذا المخلوق المُلْهَمَ المسخَّرَ الذى تراه كأنما ينضغط بين الأرض والسماء لشدة مايجد من حَطْمَةَ هذه الدنيا حتى تكتب من تاريخه فصلا فى ذلك المعنى وحتى تُخرج من لغة الأقدار مايصحح لفظاً واحداً من لغة الناس ؟

أَلاَ إن الأرض لاتشهد كل يوم نبيًّا مثل أيوب يمتحنُ الله صبره امتحان الالوهية للنبوّة ، واذا لم تكن المصيبة رعاك الله كأنها فى باب النقمة تاريخٌ غير إنساني فان بينها وبين معنى التعاسة الذى يضجُّ الناس منه كالفرق بين رؤية السيف مسلولاً على العنق وبين رؤيته في العنق .

ولقد أعرف رجلاً من أهل الفقر النظيف أعطى ابنته قطعةً فيها « عشرة غروش » وأرسلها تبتغي بها رزقاً من الطعام فأضاعتها فكأنما أضاعت عقلها وضاقت عليها الدنيا بما رَحُبَتْ فلم تجد لها غَوَاثاً إلاّ فى الموت يحول بينها وبين أبيها فجَرَعت من « الفنيك » جرعةً سائغة كانت فيها نفسها وابتعدت عن أبيها ولكن بُعد ما بين الدنيا والآخرة .

فهذا مثال مما يجلبُ الضعفاء على أنفسهم من التعاسة .
تموت الفتاة وتسير الجنازة ويُفتح القبر لعشرة غروش .. !

ويحدث فى العالم هـذا الفراغ وتُخرج الدنيا احـدى عجائب التعاسة ويشهد الناس ذلك المنظر القاتل وكل هـذا لعشرة غروش .. ! وماعشرة غروش يابني ؟ إنها قُوتُ حمار في يوم أو يومين ، ونَشْوَةُ سِكِّيرٍ فى ساعة أو ساعتين ، ولذةُ فاسـقٍ فى لحظة أو لحظتين ، ولعنـةُ الله على غـنيَ لئـيم فى نَفَس من حياته أو نَفَسين .

ولـكن يعلم الله كيف كانت في نفس تلك المسكينة من غِلْظة أبيها وقسوته وكيف استحالت هذه القطعة تاريخاً طويلا من الوساوس والأوهام حين أضاعتها ؛ فالناس ناسٌ لولا الوهمُ وكان الوهم وهماً لولا الناس .

ولَعَمْري ماالذي يجعل المرءَ جباناً فى لقاء الحوادث حتى يخاف الحياة فيعوذَ بالموت ، ويضربَ ماأقبل من دنياه بالذي هو مُدْبر أو يخشى الموتَ فيتعـذبَ بالحياة ، ماأدْبر منها وما أقبل ؟

أما إنَّ ذلك ليس من فقر ولا غنىً ولكنه حرصٌ على الحياة يُخالط بعضَ الأنفس ويستمكن منها حالةً بعد حالة فاذا هو قد انقلب فى آخرة الأمر خوفاً من الموت ، ثم لا يزال يَحُورُ ويَنْمِي وهو فى ذلك يَخْلَعُ القلبَ من الإيمان الذى يَرْبِطُ عليه (١) واليقين الذى يُثَبِّت به حتى يبلغ بعد حين أن يكون خوفاً من الحياة نفسها .

ومتى كان الحرص على الحياة قد صار خوفاً من الموت ورجع الخوفُ من الموت مع ذلك البلاء خوفاً من الحياة فهذه أصلحك الله حالةٌ من الجنون تَسْتَلِبُ العقل، وسواءٌ من أُصيب بها ومن خُولِطَ فى عقله وليس معها لهؤلاء الضعفاء كما يشهدون على أنفسهم الا موتُ الجبن الذى يسمَّى انتحارا أو حياة الجبن التي تسمى ذلاً ؛ ولَخَيْرٌ للمرء أن يكون حمارا من صنعة الله وتعرفه الحَمير من أن يكون حمارا من صنعة نفسه وتُنْكِره الناس ...

إن لنا على هذه الأرض حياةً واحدة عَلِم أهلُ العلم

(١) ربط الله على قلبه ألهمه الصبر وقواه

أنها حقيقة مُسرعة بين أوهام فهي ما تبرح تُجاهد كل شيء ولا تثبت أطول من مدة جهادها الى أَمَدٍ غايتُه أرذلُ العُمُر (١) ، وعرف أهل الجهل انها تتقدم الى الموت وان الموت يتقدمُ اليها فهما لابدملتقيان . لا العلمُ ولا الجهلُ يرتاب أو يشك في الموت ولا الفقر ولا الغنى ولا الصحة ولا المرض ولا شيء من خصائص الأحياء لأنه ليس على الأرض حيٌّ قديم .. ، ولكن العالم والجاهل والفقير والغني والصحيح والمريض كل هؤلاء يخافون الموت ويحرصون على الحياة الا قليلاً منهم — فليتهم علموا أن النفس روحية وأنها تألَمُ لهذا الخوف ولا تقَارُّ عليه إذ هي لاتعرف الموتَ لأنها خالدة ولكنها تعرف الألم لأنها فى غير دار خلود .

ومعنى ذلك أن الانسان يخاف الموت فيتصل هذا الخوف بالنفس فتردُّه الى حوادث الحياة فتُخيفُه هذه الحوادث فيُذلُّه هذا الخوف ، ويأتيه الموتُ من كل مكان وماهو بميّت .

(١) الهرم وارتفاع السن

ونحن انما ننصب الحبالة (١) ثم نرتبك فيها ونضطرب فكأننا لا نصيد الا من أنفسنا ، إذ لسنا نجهل أن للنفس حظاً ليس للجسد وأن الفارس لا يربط فى الإصطبل وان كان جواده فيه . غير أننا مع ذلك نحاول أن نغذو النفس من اللذة الجسمية وأن نعلف الفرس والفارس من طعام واحد . . . فهذا التناقض الذى نسيء به الى أنفسنا هو الذى يجعل النفس خائفة من الحياة إذ لا تجد فيها غير ألم التعبد للأهواء والشهوات ولا تصيب من الحياة الا ما تستذم (٢) به الحياة اليها فلا يكون من ذلك الا أن تسيء الينا هذه النفوس بتناقض آخر، فربما كان الرجل فى النعمة السابغة قد أينعت خضراؤها ثم هو لا يشعر منها الا ما يشعر من المصيبة الماحقة . ومتى فزعت النفس من الحياة كما عرفت فلا هناءة على ذلك الفزع ولا تكون الحياة من ثمة الا موتاً مستمراً أو خوفاً من الموت لا ينقطع .

---

(١) الحبالة شبكة الصيد وارتباك الطير فيها اضطرابه حين يقع

(٢) تدعو الى ذمها

قال الشيخ علي : يابني أن الحرص جبن والجبن ذل والذل استعباد وما يدخل من هذه الأبواب إلا الشر ، فكن حرًّا من الأهواء كما خُلقتَ وكما خلقتْ الحرية التي لاقَيْدَ لها من رذائل الدنيا فانك لن تُراعَ ولن تعرف مما يسميه الناس تعاسة أكثر مما تعرف مما يسمونه سعادةً ولن تجد في مصائب الحياة مايموت دونه الصبر الجميل فان عمر هذا الصبر أطولُ أبداً من عمر الصابرين .

لذلك لايغضب الفيلسوف ولايخاف الشجاع ولايبخل الكريم ولايذلُّ الأنُوفُ ولايُنافِق الرجلُ الحرُّ ولا يكذب الرجل الشريف ، وانما هذه مظاهرُ محدودة من حرية النفس فكيف بالنفس اذا كانت حرةً من كل أقطارها ؛ وقديماً علم الناس أن من لايُبالي بشهوات جسمه هو الذي يستريح وادعاً ويتعبُ التعبُ في البحث عنه وما علمتُ ولاعلم الحكماء والاطباء غذاءً تسمن عليه المصائبُ والأَحزانُ إلا الحرصَ على الشهوات

وليت شِعري ماهي هذه الشهوات ؛ اما إنها في الحقيقة

نزعات طبيعية لابد منها بمقدار لأن الطبيعة الانسانية تعالج نفسها بما يعينها على البقاء ومايجعلها صالحة له على الوجه الأفضل فهي تغري الانسان مرة وتزين له مرة وتؤلمه مرة ، كل ذلك ليجلب لها أو يدفع عنها فما تسميه لذة من لذات الجسم إنما هو علاج طبيعي من ألم طبيعي لا أكثر ولا أقل . كالأكل مثلا فما كانت الطبيعة لتغري به هذا الإغراء حتى فات عند أكثر الناس حدّ اللذة لولا أن الجوع انحلال في الجسم فإن هو أسرف عليه أو استمر به أوقع فيه الفساد وركبه بالضعف علة بعد علة .

غير أن الانسان بما فيه من شبه البهيمة ينجذب الى طبع البهيمة غالباً وينسى أن للبهائم وازعاً طبيعياً هو فضيلتها الخاصة بها فأقبل يرتع ماشاء وجد به الحرص بمقدار مايطمع فيه وغلبه الطمع على بصيرته فلا يكون في إنسانيته إلا بهيمة تخيل وتتفنن ما لا يتفنن انسان ولا بهيمة . ومانجد من مستهتر بالشهوات إلا وجدته من أجل ذلك راضياً مغتبطاً يتمنى لو أنه في هذه الشهوات بهيمة البهائم كافة ...

أُفٍّ لهذه الدنيا يحبها من يخاف عليها ومتى خاف عليها خاف منها فهو يشقى بها ويشقى لها ومثل هذا لا يكاد يطالعُ وجهَ حادثة من حوادث الدهر إلا خُيِّلَ اليه أن التعاسة قد تركت الناس جميعاً وأقبلت عليه وحده ، ولولا الخوف يُزَلْزِل قلبه لأدرك الفرق بين النَّسْمَة والعاصفة وعلم أن اللفظة لا يلزم منها أن تَخلُقَ معناها وأن ليس كل مانسميه تعاسة يكون من التعاسة .

وترى الواحد من هؤلاء لا يزال يَلُوكُ لسانَه [1] في كلمات من التأميل والسخط والألم والنَّفْرة وغيرها مما هو من لغة الحرص على الحياة، فهو على الأرض وكأنه يعيش في سحابة تجري بها الريح . ولَعَمْري كيف تَهْنَأُ الحياةُ مثلَ هذا إلا اذا كان أديمُ الأرض من وَرَق الزهر وكانت مَزَابِل هذه الدنيا رياضاً غنّاء وعُدَّت الطيور الجميلة من كلاب هذه المزابل ... ؟

كذلك لا يسعد أكثر الناس بالحياة ولكنهم يشقَوْنَ

(١) يحرك لسانه

بالحياة والموت ، ومن ثَمَّ ظلموا التعاسة فجعلوها أصغر مما هي كما ظلموا السعادة فتوهموها أكبر مما تكون .

قال الشيخ علي : وأعلم يابنيَّ أن القَدَر وان كان من السماء ولكن تاريخه ثابت فى الأرض وما كانت المصائب جديدةً فى الحياة ؛ وهذه المحابر التى كُتِب منها تأريخ الانسان لاتزال كما كانت من قبلُ تَشْرَقُ بالدماء وبالدموع ولا يزال الدهر يَمُدُّ منها ولا يزال يكتب من هذا المداد . فمَّ يخاف هذا الانسان الجديد وليس فيما ينزل به إلا ماتزل بمن قبله وما هو بخالد ولا هو بمتروك لما يُحاوِلُهُ ولقد علم يقيناً أن الله لم يخلق فيما خلق مِقْرَاضاً يُقلِّم أظفارَ الموت ؛ يريد من قدَر الله زُلالاً صافياً كأنه ماء مُرَشَّح . . يُصَبُّ من حياته فى كأس من البلور . . ! ويبتغي أن يكون فى الأرض تاريخاً جديدا سَلِساً مُنَقَّحاً ليس فيه شيء من تلك الألفاظ الجافية فى نُبُوِّها وخشونتها : ألفاظِ التخريب والتدمير والتقتيل والجوع والمرض والأحزان والهموم ونحوها .

فأما أن يكون من ذلك التاريخ القديم الذى تُمْلِيه قدرةُ الله على الطبيعة ثم لا يكون الا كالطبيعة نفسها فى النظم والنَّسق ولا يجىء الانسانُ الجديد فيه الا طِباقاً أو ناسخاً أو منسوخاً فهذا هو موضع النَّفْرة ومكانُ الأَذاة ومنه مَثَار الهمّ واليه مَسْرَبُ الدمع ؛ وذلك والله معنى ان لم تنشأ منه تعاسة الانسان فهو على كل حال من تعاسته .

الانسان كله يابني مُنْطَوٍ في رأسه وما هذا الجسم إلا أداةٌ منها مايحمل الرأس ومنها مايحمل اليه ومنها مايحمل عنه فالجسم دابّةٌ من الدوابّ لا أكثر ولا أقل . والرؤوس لايمكن أن تُوزَن بميزان حتى يُعلم فرقُ مابين رأس ورأس آخر فالانسان مختبئٌ مُحَجَّب وكأنه لايزال منه جزء عندالله فما ينفكّ يجد من نفسه مايبعثه على النُّزوع الى الغيب والفكر فى المستقبل لأن هذا المستقبل تمامٌ له ، ولا يبرح يشعر بالحياة شعورَ المتألم أوالمتعب أوالمكْدُود أوالمَغِيظ أوالمُفَزَّع أوأيّ مايكون من أشباهها لأن هذا الحاضر غير تام به ولا كامل معه ، وليس ذلك بعجيب ولا من العجيب أن

يألم الانسان لحياته . ألا يرى أنه في جسم لاراحة للروح إلا بعد تحطيمه ؟

ومن ههنا تفاوَتَ الناس فمنهم من تراه كأنه يحاول أن يكشف عن جزئه الذي فى الغيب ويصلَ بينه وبين حاضره فيتوهم في الحياة ماليس فيها ويُسَخِّرها لأوهامه باطلا ، ومنهم من يُقْبل على شأنه ويأخذ الحاضر بما فيه ويعرف أنه حَيٌّ ولكن على شروط لابد منها للحياة .

فأما الجاهلُ الأحمقُ المخدوعُ فكأنما يرى فى مرآة خياله الغيبَ كله أو مايظنه الغيبَ كله فلا يَعْدُو أن يسترسل فى ظنونه وأوهامه استرسالاً أشبهَ بالأبَد الذى لاحدَّ له ومن ثَمَّ لا يُرضيه شيءٌ مادام فى هذه الحياة شيءٌ لا يُرضيه ، ولا يُقنعه شيءٌ مادام فى الدنيا شيءٌ لاينالُه ، وكل مصيبة يخشاها أو يتوقعُها فكأنما هي نازلة به أوقد نزلت ؛ وعنده أن كل ما يمكن أن يكون فينبغي أن يكون وماهو جائز فليس مايمنع أن يكون واجباً وماقيل إنه غير جائز فهو غير مستحيل ؛ وما الذى يمنع أن تُخْسَف به الأرضُ أو تقع عليه السماء

أو يحدر اليه رَجْمٌ من الشُّهُبِ أو يَنهتِكَ حجابُ قلبه (١) أو يسلَّ البلاءُ خيطَ عظامه أو يُخالط جوفَه كلُّ داءٍ دَوِيٍّ ثم ماشئت من أو ... أو ... الى أبعد حدّ ما انتهى اليه أهل الفقر في الفقر وأهل الأمراض في الأمراض وأهل الأحزان في الأحزان وأهل المصائب في المصائب، فيذهب العمر باطلاً بالذى عليه والذى له ويجني هذا الانسان على نفسه من أثر الخوف والطمع مالا يَستقيلُهُ أبدَ الدهر فلا يهنأ بموجود ولا يطمئن الى مَرْجُوٍّ ولا تكون آماله إلا مخاوفَ مستَبْهمة لا مأتى لها من الحقيقة فيجد روح التعاسة في أشياء كثيرة ولا يكاد يُصيب العزاء في شيء قليل .

وهنا يابني الحفرة التي يُقبَر فيها بعض الأحياء ليعيشوا عيشةً وهميةً أو ليموتوا موتاً وهمياً . تلك الحفرة التي يقضي الأحمق شطراً من عمره واثباً في الأوهام بين شاطئي الدنيا والآخرة حتى اذا انتهى اليها تردّى فيها وكان الرأيُ لو ادّخرها بعض تلك الوثبات ...

---

(١) كناية عن موت الفجاءة

وأما الحكيم الذى يعرف الحياة كما يمكن أن تكون ويعرف أن كل حي من الناس فانما هو حي على شروط لواهب الحياة . ثم للحياة نفسها ثم لأهل الحياة — فهو أدرى بالمصائب من ذلك الأحمق ولكنه لا يُثيرها ولا يبحث عنها ولا يَمْتَلِق لها العِلَلَ [1] من نفسه ولا يَعْتَرِضُها فى غيره . وما نزل به منها فانه يفتح لها من قلبه سبيلاً تمرُّ فيه بين العزيمة والجُرْأة والا فبين الثبات والصبر والا فبين التوكل والإيمان ، وما أهونَ مصيبةً تُفتح لانصرافها ثلاث طرق واسعة .

وهذا الحكيم يجد فى مِحْنته لذةً تشبه لذة الدرس لمن همُّه الحكمةُ واختبارُ الاشياء ومُعَانَاةُ خواصِّها وأسرارها كأنه من مصائبه فى « مَعْمَل » للتجربة والاختراع ، فانما هو يتلقَّى عن الله مالا يُصيبه به إلا هو وما لا يصرفه عنه إلا هو وانما يستعمل رأسه للفهم لا للوهم . وهو يعرف أن علم الله أزليٌّ يَسَعُ الأزلَ كله وأن الأقدار من علم الله فهي مقسومة

(١) يخترع ويستنبط

على الدهر كله وأنه هو فى جانب الدهر لا يبلغ أن يناله ما تنال الشرارةُ من ماء البحر اذا هي انطفأت فى البحر .

هذا الحكيم يعرف أن الحياة ليست هي الانتهاء الى الموت على أي وجه ولا هي بالهَرَب من الموت فى كل وجه ، فهو لا يُبالي الموتَ ولا يخافه ولا يعبأ بالحياة ولا يرجوها ولكنه يمشي على صِراطٍ من فضائله وعلى نور من ربه فما دامت فضيلته لا تُنكره ومادام قلبه مطمئنًّا بالايمان فكل ما بين الأَرض والسماء وما بين الآخرة والاولى هو مادةُ العزيمة فى نفسه ومادة القوة فى روحه ومادةُ الابتسام على شفتيه ؛

فان نَزَل به همٌّ وأدركه خَوَرُ الطبيعة وضَعْفُ الانسانية فلم يستطع أن يخلص منه صرفه الى جهة غير جهته واستخرج منه معنى غير معناه وقابل بين راحةِ الرضا به وتعب السخط عليه ونظر في مبلغ شرِّه وما عسى أن يكون حاله لو نَزَل به ما هو شرٌّ منه ، وجمع بين الدعاء لله أن يصرف عنه ماوقع وبين الحمد لله على وقايته مما كان يمكن أن يقع ؛ ثم لا يزال يعالج الهمَّ مُسْتَأْنِياً رَبِيطاً جَأْشُه حتى تسكن اليه النفسُ من

نَفْرتها وحتى يرى هذا الهم كأنه مما لابد منه فى رياضة أخلاقه وتنزيه شمائله وكأنّ صَدْعَ الجانب الذى بينه وبين الناس أو بينه وبين نفسه إنما كان لتقوية الجانب الذى بينه وبين الله .

وأشقى الناس من يتوقّع الشقاء وهو لا يعلم من حاضره ما الله صانعٌ به ولا من مستقبله ما الله قاضٍ فيه وكأنه يَتَظَنَّى بالله فيرى أنه تعالى قد وَكَلَه الى نفسه وأَيأسه من رحمته وصرف عنه تيّار الغيب المتدفّع بالحوادث والأقدار ، بين شاطئي الليل والنهار ، فلا يدفع اليه جديداً ولا يصرف عنه قديماً ، وكأن الزمن كله يتحرك وهو ثابت قارٌّ قد حَصَرَه الهمُّ من هذا الفلك في زاوية ، ووضعه الدهر من بيت الأحزان موضع القافية ؛ والمصيبة فى مثل هذا أكبر من كل شيء لأنها لا شيء . . . ولا ينفع المرء أنه من الناس اذا لم يكن من نفسه وهذا لا نفس له أو كأنه لا نفس له إذ لا ثقةَ به ولا قوة فيه ، ولو كان وجهه جلدةً ما بين عيني الأسد لما ظهر الا جبانًا ، ولو اختلط الحاضر بالمستقبل على شيء لما اجتمع منهما ما يجتمع من غُضُون جبهته فى تعاسته التى يظن أنه خُصَّ بها ؛

فهو يتوهَّم الخوفَ ثم يخاف مما يتوهَّم ثم يخاف أن يكون الأمر أكبر مما توهَّم . . . ثم يُخيفه أن تخذَله الأقدار فلا يقوى على ذلك ثم يكون أشدُّ خوفه من أن يستمرَّ له ذلك ؛ فمن خوف الى خوف وهو تتابُعٌ يصوِّر الرِّعدة التى تعتريه لجبنه كما يصوِّر ضحك القهقهة من هذا الجبن.

وذلك يابنيَّ ضَرْبٌ من ضُرُوب استحالة النفس كأَنها ليست في صاحبها فهو يمرُّ على الحقائق فَزِعاً كما يمرُّ الطائر على الأَخْيِلَة التى تُنْصَب له على الثمر ويجزع منها كما يجزع الطفل من أرواح المَرَدَة والشياطين التى تسكن ألفاظ التهويل ونحوها مما يُفَزَّع به ؛ ثم هو من المصيبة الواحدة فى مصيبتين : أَما الاولى فشدةُ الخوف التى تُفْقِده لذة ما يكون فيه من النعم — والنعمُ لا حَصْرَ لها — فلا يشتهيها ولا يجد لها مَسَاغاً بعد أن لَبِسه مرضُ الهمَّ ؛ وأما الثانية فقوةُ اليأس التى تُضعف قدرته على الحيلة للخلاص مما نزل به فكأنما شُدَّ عزمُهُ وثاقاً . ثم لا يكون من اجتماع المصائب الثلاث (١) معاً الا أن يُورِثه

(١) هو نفسه مع المصيبتين مصيبة ثالثة . . .

الذلّ وسقوطَ الهمة وتخلْخُلَ الفؤاد واضطرابَ النفس كأنها من هذه الوَساوِس بين جُدران وثيقةٍ مُحكَمَةٍ لا نافذة منها على فضاء الغيب والغيبُ مِلْءُ الأَبَد ، فيصبح جلْدًا بلا جلادةٍ ، وعظمًا أَوْهنت منه البَلادة ، ورجلاً لو أَطاعته كل قوة فى الدنيا لما أَطاعته الإرادة ، وصنمًا من أَصنام الحياة يعرفُه العاقلُ للتحطيم ويحْسَبُه الجاهل للعِبادة ...

الفصل الخامس

قال الشيخ علي : ولقد عرفنا الحياةَ ماهي لأننا نحن أمثِلَةٌ عليها ولكن البحث فى معنى هذه الحياة لم يَنْتَهِ بعدُ لأن هذا المعنى لا يزال كما كان فوقَ السموات ، ولو استطاع الكاتبون من أهل العلم أن يَخُطُّوا فى كُتُبِهم بمداد من أضواء النجوم التي يَسْكُبُها الخُلودُ كلَّ ليلة على الارض ملءَ مَحْبَرَة الليل لكان عسى أن تَسْتَنِير مباحثهم فى ظلمات الحياة . وأنَّى لهم ذلك وليس وراء النفس الانسانية إلا الذي هو وراءَ السماء ولا وراء السماء إلا الذي هو وراء النفس ؟

ألاَ فاعلم يابنيَّ أنه مادام هؤلاء العلماء يتعاقَبُونَ على تفسير المعاني الإلهية ولم ينتهوا بعدُ فمعنى ذلك عندنا نحن الجهلاءَ أنهم لم يبدؤا بعد . . .

وما هي الحياة ؟ أمَا إنها ليست طريقاً مَسافَتُه كذا ولا قياساً ذَرْعُهُ كذا ولا وزناً مبلَغُه كذا ولا شيئاً من هذه

المعاني التي تَضربُ الأقلامُ والألسنة فى مَفاصلها بل هي فيما وراء ذلك من عالٍ الى بعيدالى غامض الى مُبْهَم حتى تنتهي الى منبع النور الذي تلتطم على ساحله مَوْجَةُ الأبد

وان أبيتَ إلا ماهو دون ذلك وُضُوحاً وانكشافاً وبَسْطاً في التأويل فقل انها فى كلمة واحدة فتحُ السماء بفكرة واحدة .

ولتَدَعْني يابنيَّ من لغة هذه الكتب فانها متى انتهت الى السماء رأيتها أكثرَ ماتراها ألفاظاً لامعنى لها إذ ليس هناك من جلال الله إلا مايشبه أن يكون معنى لاألفاظ له .

ودعني أحدثك عن الحياة بما أفهمه أنا الرجل الطبيعيَّ من فَلَقِ الصبح ومن رَوْعة الشمس ومن إقبال الليل وإدباره ؛ وبما أعرفه من هذه اللغة التي تُنْزِل بها السماء مايتصل بنا من معانيها ، لغةِ القضاء حين يسأل ولغة القَدَر حين يجيب ، وبما أستَوْحِيه من معاني هذه الاشارات التي تتحرك بها جوارحُ الطبيعة وهي مَزِيجٌ من لغة البقاء الأرضي الذي

يريد أن ينتهي ولغة الخلود السماوي الذي يريد أن لا يفنى.
فالحياة ياشاعرى العزيز لاتخرج من الدواة ولاتقطر من القلم بل أنا أحسب هذا المداد الكثير الذى أراقه عليها الناس هو الذى جعلها كما يقول الناس سوداء ... ولايكفى أن يعلم الرجل كيف يسوق المقدمات وكيف يحسن القياس وكيف يخرج معنى من معنى حتى تكون النتيجة على ماتوهم والحقيقة على مايقيس والصواب كما يستخرج. وفي علم الحياة خاصة — وهو العلم الذى لامادة له إلا من الحوادث — أن بناء من المنطق لايتخذه بيتا إلا ساكن من الخيالات...

لست أعرف الناس قد غالوا بشيء قط مغالاتهم فى قيمة هذه الحياة. فقد والله استجمعوا لها كل مافى الرغبة من الحرص وكل مافي الخوف من الحذر وكل مافي الأمل من الترقب وكل مافى الحب من الخيال، واستجمعوا فوق ذلك تلك المعاني التي لاقرار لها فى الأرض ولافى السماء: معاني النظرات الوهمية التي يرسلها المخلوق من أرضه الى عرش الله كأنه لايجرأ أن يشك فى نهاية الحياة إذ هي تنتهى على أعين

الناس ، ولا أن يجزم بهذه النهاية إذ هو لا يريد الموت وكأن الحياة لا تكفيه .

وما دام للحياة غدٌ يُرتقب وهو الذي يسمونه المستقبل فكل وهم يسهل على الحقيقة أن تُهلكه أو تُمرضه أو تُضعِف منه إلا تلك المغالاةَ الممقوتة فانها أبداً في خصْب وعافية مابقي لها غذاءٌ من ذلك المستقبل المحجوب .

قال الشيخ علي : وأنت اذا سألت رجلا عن مسألة فَسَدَّدَ الجوابَ وأحكم الصواب قلتَ هذا جوابٌ يَحْسُن السكوتُ عليه . ولكنك إذ سألتني أنا ماهي الحياة كما يفهم الناس؛ قلتُ لك هذا سؤال يحسن السكوت عليه ... لان اللغة هي هي التي أسمتها (الحياة) واستخرجت لهذا الاسم العذب معانيَه من أوهام الاحياء ، وكم فيما وراء السماء من معان تملأ الأبد ولعلها لا تملأ سطراً أو سطرين في معاجم اللغة . ولكن دع هذا وسلني ماهو الزمن الذي يقضيه الانسان من يوم يُولَد فلا يقدر أن يَرْفضَ هذه الدنيا الى يوم يموت فلا تستطيع هذه الدنيا الا أن ترفضه . وماهو هذا المَهْدُ

الذى يكبر شيئاً فشيئاً حتى يصير فى الآخر قبراً . وماهو هذا العمر الذى يمتلىء قليلاً قليلاً حتى ينتهي الى الفراغ فيغيب فيه . وماهي هذه الحوادث التي تُزلزل الناس (١) فى طريق القدر حتى يخرّوا على وجوههم فتتحول أجسامهم فى الارض الى تراب — في طريق المنفعة وتتحول تاريخهم ترابا على طريق الموعظة ؛

سلني كذلك يابنيّ أُجبكَ : هذا الفناءُ المحتومُ وهذا الشقاءُ المقضيُّ وهذا الأملُ الباطلُ وهذا النَّصَبُ الضائع وهذا العملُ الذى لا يُراد لنفسه ولكن لما بعْدَه ، كل ذلك هو الحياة . أفلا ترانا نُخادِع أنفسنا اذا سألنا عن الحقيقة التي يسوءنا أن نعرفها فنحرفَ السؤالَ الى جهة بعيدة لكيلا نرى الجوابَ الصحيح مقْبلاً علينا ولكن مُدْبراً عنا ؛

فما عسى أن تكون هذه الآمال وهذه المنافساتُ وهذا النزاع وهذا الصراع وهذه الأفراح وهذه الأتراح وكلُّ ما الى ذلك مما هو من مدلول الحياة — إلا باطلاً نَستمتعُ به قليلا ثم

---

(١) تسوقهم بعنف يقال جاء بالابل يزلزلها

يظهر أنه متاع الغُرُور ؟

ماعسى أن تكون الحياة بكل مافيها إلا مدة محدودة على ظهر الأرض تجعلها أوهام الانسان ومطامعه وحماقته وجهله وكبرياؤه كأنها الأبد كله فيكدُّ ويكيدُ ويعمل ويدَّخر ويهنأ ويحزن ويطمع ويحرص على نسبة من ذلك لا من نفسه أي نسبة أبدية لانسانية . ألا انما مَثَلُ هذا الانسان المغرور مَثَلُ رجل جمع الله عليه المصيبتين فى باصِرَته وبصيرته فَضَلَّ فى مكان فهو يُقْبِلُ ويُدْبِرُ فى دائرة من فضاء الارض لايهتدي الى الوجه ولا يذهبُ على السَّمْتِ فيتوهم أن الطريق لاينتهي وأنه وقع في صحراء لم تَدْرُسها عكَّازته . . . وليست من علم رجليه في جغرافية هذه « المسكونة » . . . وكما لاتكون الطرق عند هذا الأعمى إلا من علم رجليه فأكثرُ طرق الحياة عند هؤلاء المغفَّلين الذين يطمسُ الله على بصائرهم هي من علم بطونهم وما أدراك ماعلمُ بطونهم . . . وما رأت الحكماء أحداً قط جهل حقيقة معنى الحياة إلا وجدوا هذه الحقيقة فى بطنه . . ، ولذلك قالوا : من كانت هِمَّتُه

ما يدخلُ جوفه كانت قيمتُه ما يخرج منه ... وإنما البطن جوعٌ فشبعٌ وشبعٌ فجوعٌ ، وعلى هذا القياس لا تكون حياة هؤلاء إلا جوعاً في الشهوات والآمال لا يُطفئه إلا ما يُسعّره ولا يجلب الراحة فيه إلا ما لابد أن يُرجع التعبَ به . جوعٌ في الشهوات والآمال بالعقل لا بالبطن لأن علم الحياة عندهم علمٌ بالبطن لا بالعقل وكلاهما مُثْلَةٌ بهذا الانسان . ويالله كيف يُريد الانسان أن يحيا كما يحب ثم يحبُّ ما لا يتفق مع سُنَن الحياة ؛

من أجل ذلك شَقِيَ أكثر الناس بالعقل إذ يُقلّبون به الأمورَ ويحتالون منه الحِيَلَ ويُكرِهونه أن يعمل على السُّخْرَة في لذة الجسم ويُحْضِرونه من همّ الشهوات الحيوانية ما لا قِبَلَ لهذا الرُّوح الالهي أن يَستَكْلِب فيه (١) وإذ يُخْضِعُونه بدلاً من أن يَخضعوا له ويسيرون به بدلاً من أن يسير بهم ، فكان من ذلك طُغيانُ الحواسِ وطَمْسُها على الروح

(١) أي يظهر من الحدة الحيوانية كأنما أصابه الكلَب وهو جنون الكلاب

وتَعْفِيَتُها على آثارها الانسانية ولاجَرَمَ كان من وراء ذلك طغيانُ هذه الفَوْضَى المتراميَةِ فى الاجتماع وانْبثاقُها بالشر من كل ناحية ، وتداخَلَتْ حُدودُ المطامع بعضُها في بعض فصار الناس كالأمواج لاتقوم القائمةُ إلا من سقوط الساقطة .

وكان الناس يتعلمون كيف يسبحون فى بحر الدموع ليأمنوا الغَرَقَ فيه وليَسْتَنْقِذوا الغَرْقى منه فجدَّتْ بهم الحوادث حتى تعلموا القتال عليه وصار من لم يستطع أن يُنقذ نفسَه يجتهد أن يُغرِق غيره ... !

الانسان حيوان لولا العقلُ فلما أخضع لشهواته العقلَ صار انساناً لاحدَّ له في الحيوانية فهو من هذه الجهة لاانسان ولا حيوان ، وان كان الشيطان مطروداً من رحمة الله فخير مايقال فى هذا الانسان أنه شيطانٌ فيه موضع للرحمة ...

ولقد خلق الله هذه الحوادثَ ولا ضابط لها إلا العقلُ يُحْكِم تحديدَها ، ويتولَّى تسديدَها ، ويستعين فى أمرها بكلِّ على كلّ ، ومن ثَمَّ يستقيم من هذا الانسان شيءٌ معقول ويُصبح قد ضُربت عليه الحدودُ لايتعدَّاها ورُسِمَت له

دائرة فى الانسانية لا يُجاوزها فيقرُّ كلُّ امرئ في حيِّزه وقد صار عنده من الناس وعند الناس منه وثائقُ من العقل وبيِّناتٌ من الحق اذا هو حاكَم اليهم ضلالةً منهم أوحاكموا اليه ضلالةً منه ؛ وهنالك يرى كل عمل طيّب ثوابَ نفسه لأنه هو من فضائله كأنه شريعة لنفسه . ومتى كان العمل الطيب مما يُجزى في ثوابه عند الرجل من الناس أنه عملٌ طيبٌ ، فقد أصبح ولا غَرْوَ من سعادته إذ لو لم يجد به سعادة لما لقي منه ثواباً ، وبذلك — بذلك وحده من دون كل الوسائل الاخرى — تصبح السعادةُ عملاً من الأعمال يمكن أن يُمارسه الانسان فيسعدَ ماشاء الله أن يسعد ثم تكون الحياة على ذلك واجبات يقضيها فان تحققت أولم تتحقق فإنما دَخَلَتْ على نفسه بسرورها واما خرج منها بعذره وقد أبلى عُذْراً . ومتى صارت حياة رجل من الناس الى أن تكون واجبات يَتَنَجَّزُها ويَسْتَقْضيها من نفسه فما ثَمَّ لشهوات البدن موضع الا كموضع النار من يدي المُصْطلي لا يُراد منها الا حَرُّها ولا يطلب من حرها الا قَدْرٌ

معلوم ولا يُتتفى هذا القدر الا مدةً بعينها ولا تكون هذه المدة الا بمقدار مايُصلح أو يدفع الأذى . لا سَرَفَ في كل ذلك ولا هوانَ ولا مضيَعة

قال الشيخ علي : ولكن كل شر العالم يا بنيّ في لفظ واحد هو طغيان الحواس ، وبمعنى واحد هو إذلال العقل ، ولغرض واحد هو هذا الموت الادبي الذي يسميه المغفلون سعادة الحياة . منذ طغت الحواس أصبحت الحدود بين مطالب الانسان من فضائله الى رذائله ولا أثرَ لها لأن الشاطئ لا يُعرف تحت السَّيْل ، فما أنت ولا أنا ولا أحد يدري ماهو حدُّ الكفاية في رغبات هذا الانسان وأهوائه ، بل صارت هذه الكفاية وماينْطوي تحتها من ألفاظ القصد والقَناعة والرضا وماإليها ألفاظاً خيالية يُسايرُ ظلُّها ظلَّ الانسان فلا حدَّ لها مادام هو لا يُثْبِت لنفسه حداً ولا تتأخر مادام هو يتقدم . وأصبح أكثر الناس في رغباتهم الخياليَّة وما يعملون لها مدةَ الحياة كرجل إئتلى (١) أن يخطَّ دائرةً مركزها

(١) حلف وآلى

ليس فى محيطها فكلما رسم دائرة رأى المركز في داخلها فيجعله وراء المحيط ثم يُدير يَدَه فاذا واحدةٌ أخرى تُقاطِع الأولى ولم يصنع شيئاً صحيحاً مما يحاوله . ويمضي على ذلك ماشاء الله ولا يصنع شيئاً فلا هو يُخَطِّئ رأيَه ولا هو يرى من عمله شيئاً صحيحاً، ومابقي من الارض فضاءٌ لم يخطَّ عليه بعدُ فهناك، هناك يرى هذا الأحمق الدائرة المتوهمةَ التي مركزها وراء المحيط ...

من هذا ونحوه أصبحت السعادة وهماً من الأوهام لأنها لم تعُد فى إشباع العواطف وتغذية الشعور، وليست فى موضعها الذي هو بين الضمير والعقل ولكنها فى إشباع جسد لا يشبع مادام حياً، وفي تغذية حاسة لا يَزيدها الغذاء إلا شَرَهاً وضَراوةً، وفى موضع مجهول بين هذه الحواس لاحدَّ له إلا كالحد بين مايجد المُعْدِمُ ومايتمنَّى . فالسعادة على ذلك هي فى الاستعداد للسعادة ... ؛ وكفى بهذا عَبَثاً .

ولَعَمْري ماذا تكون الحياة بل كيف تكون ؟ أليس يعلم الانسان أنه سائرٌ الى الموت ويعلم كذلك أنه طالبٌ مالا يموت ؟

فلاجَرَمَ كان شعوره بهذا التناقض مؤلماً وكان هذا الألم هو منشأ الهموم التي لاتدعه لنفسه ولاتَدَعُ نفسَه له، وكانت حقيقة هذه الهموم التي تجمعها كلها هي شعور الانسان — شعوراً فطرياً جرى منه مجرى العادة — بالمنازعة بين مايطلبه هو في الحياة وبين الحقيقة التي تطلبه هو من الحياة (أي الموت) . ومن ثَمَّ يضطرب كيانه العقلي فيؤثر كل شيء في نفس هذا الانسان تأثيراً أكبر من حقيقته لأن حقيقة هذا الانسان لم تَعُدْ في نفسه بل في مطامعه . . . فهو يابُنَيَّ كالوعاء المثقوب تصُبُّ فيه البحر ولايزال فارغاً ، والحياة عنده دائماً هي طلب الحياة . وكفى بهذا عبثاً . ولاتحسبنَّ أنه لايبالي بما مضى من عمره بل هو يستشعر فوق ذلك الخوفَ من أن يكون الذي مضى هو أكثر العمر وأطيبُه ولذلك لايبرح شقياً بما يحاول إذ يحاول أن يجمع طيِّبات الحياة ويَستحوِذَ عليها في القليل من عمره ليستمتع بها فيما وراء ذلك كأنَّ الحياة التي قِوامُها من الغذاء لاتفارق الانسان مادام هذا الغذاء في بيته وكأن الله يبيع المستقبلَ لمن اجتمع له من الدنيا مايتوهم أنه يقومُ ثمناً للمستقبل . !

لا يبرح هذا الانسان شقياً وهو أبداً من الهم والغيظ والتوقد واشتعال الأمل والاضطراب فى أسباب الحياة كالسكة المحماة، (١) يحسب ذلك من نفسه قوة وفضلاً وسعة فى الحياة ولا يدري أن هذه النار المشبوبة فى صدره تقطع منه أكثر مما تقطع به وأنها كما تعطيه قوة المضي فى هنات الحياة وهيناتها تعطى الأقدار الصلبة مثل هذه القوة عليه فلا تكاد تصدمه من أي أقطاره (٢) حتى يتثلم ويتفلل.

وهل تحسب مثل هذا يكون عداده فى أهل السعادة وهو من الحرص على الحياة يكاد يشم تراب قبره في كل حادثة تلم به، ولا يزال يصلب على كل باب من أبواب الأيام حين يفتحها الصباح وحين يغلقها الليل ويرمى بالنبل المسموم من فضوح الدنيا وشهوات النفس الدنيئة ويقتل ضميره كل يوم قتلة الكذب والغدر والإثم لأن ذلك من وسائل الحياة التي تبسط عليه الدنيا؟

---

(١) نصل يحمى فى النار فيكون ذلك أشد لمضائه

(٢) أي من أى جهاته في الحياة كالصحة والغنى والامن ونحوها

وما ظنك بسعادة أولها حبُّ النفس وآخرها بغضُ الناس ، ومن مقدماتها منازعةُ الفرد للمجموع ومن نتائجها منازعةُ المجموع للفرد ، ومن مبدئها درسُ الشر علماً ومن غايتها مُزاولةُ الخبث عملاً ، ولها اسمُ السعادة وفيها معنى الشقاء ، ومن شروطها على صاحبها أنها لا تُمْتِعُه الا بما يَمَلُّه ولا تَتبرَّج له الا فيما لا يناله ولا تُظهره للناس أبدا الا ليروا فيه رذيلة من الرذائل ، ثم لا تكون مع ذلك فى موضعها الا كالفقر فى موضعه : هذا يُوازِنُ بين نعم السماء التى تنزل على الضمير وبين هموم الارض ، وتلك توازن بين هموم السماء التي تنزل على الضمير وبين نعم الارض ؛ وآخرُ أمرها ان لا يعرفها صاحبها الا على الضِّد مما يعرفها الناس فهم يسمعون لها الاصواتَ العاليةَ من الأمر والنهي والجاه وما إليها وهو يعلم ان هذه الأصوات لم تخرج منها الا لأنها كبيرة فارغة . . ؟

قال الشيخ علي : وبذلك يا بنيّ خسر الناس لذة الحياة فلا أدري أهم بَشَرٌ أم آلهة لأني أرى كل حي كأنما يريد أن

يرم صدعاً فى الكون وأن يُصلح من هذه الدنيا ونظامها ما لم يَصلح له . ولماذا ؟ لأن الدينار الواحد نواة ذهبية ولكن هذه النواة لا تُخرج لكل انسان نخلة من الذهب ... ولماذا أيضاً ؟ ولأن أكل هذه النخلة حين تؤتي أكلها لا يكون الامرأ . ولكن أليس فى الأرض غير المال ما يمكن ان يُستلذ وأن يسمى نعمة . وأين هي تلك السوق التي تُعرض فيها النعم الهنيئة ويقف على جانبيها ملائكة الله يبيعون بالدرهم والدينار ؟ يبيعون المريض من أولئك الأغنياء عافية والضعيف قوة والحزين مسرة والخائف أمناً والفزع اطمئناناً والهرم شباباً والمهزول جسماً رَوِيّاً والميت رجعة أخرى ...

ألا فليعلم الانسان أن هذا العالم لا يصلح على غير ما هو عليه وما لا بد منه لنظام الحياة فسيأتي إن خيراً وإن شراً ، فكلنا يسمي الصعاب التي تعرض له فى طريق الحياة عقبات لأننا لا نبصر ماوراءها ولا نعرف فى أي موضع تقرّ من نظام الحاضر أو نظام المستقبل وهي لو تعلمون وسائل لما بعدها ، ورُبَّ صخرة حالت فى طريقك لتلفتك الى هاوية

من ورائها أو لتتقي بها عدواً يَدْلُفُ اليك من ورائك .

والأعرج الذي يتأبط سِناده (١) ويتخذ منه رجلاً تبدأ من الكتِف لا يكاد يعرج بضعَ سنين حتى يستفيض صدره ويكتنز عضله ويتفتل ويصبح لحماً بادِناً كأنما جمع في زنده حجمَ يده الى حجم رجله التي ابتُلي بها ، وكان مرهفاً دقيقاً متهدمَ الصدر بارزَ الأضلاع خاويَ العُرُوق ممسوحاً في جملته ؛ ثمَّ أنت لا تراه إلا ساخطاً متبرِّماً يكاد يتحطم غيظاً وهو يلعن سنادَه وما حمل واليومَ الذي حمله فيه والسببَ الذي حمله به ويرى كأن العرج هو الذى قطعه عن شأوِ المعالي وكان سبّاقاً . . . ويظن عند نفسه أن هذا العرج قد جعله في مِشْيته الممثّلَ المضحك على مسرح الحياة .

ولا كلَّ هذا يارجل فهل نسيتَ ويحك أن السُّعال كان ينفضك نَفْضة الموت وأن البرد كان قد اتخذ من أضلاعك سقفاً يأوي اليه وأن الأمراض لم تبرح ترميك آونةً بعد أخرى

(١) وضعناها لهذه الحالة التي يعرج عليها من أصيب في رجله لانها سناده

كأنها تلين عظامك العاسية للضجعة الأخيرة وأنك كنت لا محالة هالكا تنفثُ رئتيك من شفتيك، وتبصق روحك تحت رجليك، وأنه لولا الداء الذي يسمى العرج لهلكت بالداء الذي يسمى السل؟

هذه واحدة يا بنيّ وما من واحدة إلا هي أختها وحكمة الله لا تختلف بل هي هي في كل شيء وان كنا لا نعلم وما خُلق شيء عبثاً فتعالى الله الملكُ الحقّ، ولقد أعرف أن ما لم يُقضَ لي فهو مقضي لغيري وأنه لا بد أن أذهب في هذه الحياة بقسط من مصائبها لأنه جزء من نظامها يتوقف على وجودي ويتوقف وجودي عليه وهل أنا بدنٌ يملأ الأرض ورأسٌ طبق السماء فيكون الفلك عمامتي، والقضاء غمامتي، وكل خيرٍ لهامتي؟ إن أنا يا بنيّ من هذا الناس في أقدار الحياة المكتوبة إلا كالجندي في العسكر نصبته الحرب آلة حية تحركها الألفاظ والاشارات فهو يندفع الى الموت ويشوي من لحمه على النار متى أرادت خطة الحرب أن تنبعث وتتحرك وانما هو بجسمه وروحه وعقله نقطة صغيرة في خط صغير من خُطَطٍ كثيرة مثله رُسمت بها

فكرة أمير الجيش على صفحة الميدان ، فليس للجندى أن يسأل عند الحركة لماذا . . . إذ هو لا يجد عندئذ من يقول له لأن . . ؛ ولكن متى أزفت الآزفة وحقت النهاية بالنصر أو الهزيمة رأى العمل الذى وراءه كأنما انقلب أحرفاً وكلمات يستوضح منها فكرة القائد كما رسمها .

ومن الأسئلة فى هذه الحياة ما يولد حين يموت جوابه كما رأيت فهو حمق من السائل ومضيعة لأنه لا جواب عليه وربما اعتده الأحمق معضلة من المعضلات وكد ذهنه فيه وقصر همه عليه وجعل يلقى به الناس ويفتتح له الأحاديث وذلك سخف لا يوجد به الجواب الصحيح ولكن يضيع فيه السائل إذ يستنفد من وسعه وعمله وحيلته ثم لا يرد عليه من كل ذلك سوى الخيبة . وهذا أعزك الله سر من أسرار ضيق الناس بالحياة وتبرمهم بأقدارها لأن أكثر أعمالهم وآمالهم من جنس ذلك السؤال فما أقل من ينتهز من يومه قبل أن يذهب يومه وما أكثر من يريد غداً قبل غد...

ولكأنى بهذا الانسان يود لو أسرع الفلك فى دورته

وجعل يرتمي به المرامي البعيدة لينهب ما في الغيب نهباً ولينال الممكن كله وشيئا من المستحيل أيضا ... فيحيا بعد ذلك حياة طيبة عذراء لا تلد لياليها من مواليد الغيب قليلاً ولا كثيراً .. ! دونك آمال الناس فانظر هل تجد في هؤلاء الحمقى من يصب آماله إلا في قالب يسع ضِعْفَيْها على الأقل وهو يحسب أنه بتوسيعه لها يُخفي جانب الاستحالة فيها ولا يدري أنه يُخفي جانب الممكن المعقول أيضا . يصبها في قالب التمني وما موضع التمني في عالم الحِسّ وفي هذه الحياة الأرضية التي لا تزال تضرب جيلاً بجيل ، وتدفن قبيلاً بأيدي قبيل ويُهملها الانسان في الكثير وهي لا تُهمله في القليل . وهل التمني أن تكون حوادث الحياة ما أريد أنا وما تريد أنت وما يريد فلان إلا كما يتمنى كل انسان من هؤلاء أن يكون غيرَ نفسه وكما يتمنى الطفل حين يجيب معلمه خطأً ويعلم أنه أخطأ — أن يكون الجواب حقيقةً كما أخطأ ؟

وقد يقال إنه ليس في العلماء أحمق ممن يكدّ ذهنه في ابتكار جواب غريب لمسئلة لا تقع لانسان ولا يحتاج أحد

الى جوابها ، فكذلك لم أر فى الجهلاء أحمق ممن يسأل الحياة سؤالاً لاجواب عليه أو لايفهم الجواب عليه . كل ذلك حمق وكل ذلك سخف وكل ذلك عبثٌ وباطلٌ ولكن يا أسفا على الناس كل ذلك أيضا من مذاهب الحياة وكل ذلك من الواقع .

فالناس من بين طامع جري ، إن نفعته الجراءة ذهب بمنفعتها الطمع ، وقانع ساكن ان أفادته القناعة ذهب بفائدتها السكون ، ومُتَخَيِّلٍ على الغيب يستجمع له والواقع قد نَفَذَ فيه ، ومُتَبَرِّمٍ بحاضره يبني على السماء والأرض تهدم منه ، وقليلٌ من الناس المؤمنُ الوَثِيقُ ، الذي يشعر بقوة الله في كل ضيق ، فان لم ينصره الله على الحياة لايخذله فيها وتراه لايشك فيما يعرف ولا يريد أن يعرف مايشك فيه ، وهو يعلم أنه ليس شيء من المصائب والنعم يمكن أن ينزل في غير موضعه من بناء الحياة وان خَيَّلَ الينا الجهل أنه في غير موضعه إذ ليس في هندسة الله مكان مختل ، وأن النعمة الصحيحة ليست في لذات الانسان الحي ولكن فى حياة هذا الانسان إذ الحياة هي التي توجد اللذة ، وأن القوة

التي تسمو بالحياة حتى تسخّر لها الطبيعة تسخيراً انما هي قوة العقل فان وهَنَ العقل صارت الحياة طبيعة حيوانية لالذة فيها مما اختُصَّ به الانسان دون الحيوان من رَوْح الله بل تكون اللذة كلّ اللذة هي فقدان الألم أو اطفاءه إن تَسَعَّر

وتالله لو أُفرغت طيّباتُ الدنيا فى جوف هذا الحيوان الانساني الذي وصَفْتُ لك ممن يسمونهم الأغنياء والمستمتعين وأهلَ الحظ والهناء مازادت فى لذته على ما يكون من افراغ حَقْل من البرسيم في جوف حمار ...

قال الشيخ علي : وكما يفقد أكثر الناس السعادة فى كثرة الاستعداد لها والإغراقِ فى وسائلها يجدها بعضهم فى إهمالها حين لا يبحث عنها ويذهب باحثاً عن حقيقة الحياة .

ويا عجبا للناس كأنهم ملكوا الأعمار، وضمنوا لأنفسهم تقلُّب الليل والنهار ، فقلّما يفكّر أحدهم إلا فى زاد الدهر البعيد والحياةِ المُتطاولة والأمَدِ الواسع وهو لا يرتاب فى أنه لا يعيش غير عمر واحد محدود ولكنه لا يدري أنه يحمل على نفسه من تلك الأطماع شقاء بضعة أعمار طويلة عاليةِ السنّ

ويسوقها بين يديه ظالمةً عرجاءَ تطلبُ السعادة فى طريقٍ لا آخرةَ له فهي تسير لأن بين يديها غرضاً ماينفك مائلاً على بُعْدٍ منها ثم تبعث لان الطريق لاتنتهي ثم تقفُ عاجزة لأن الحياة قد كلَّت ثم تقع وما بها حركة لأنها انتهت الى الحفرة المجهولة التي تنشقُّ تحت قدميْ كل انسان فى الساعة التي هو رَهْنٌ بها ولو كان طريقه في النِّعم واللَّذات على وادى الجنة بين الشمس والقمر .

كل شيء هو ماشئتَ أن تتوهم ولكن الحياة هي الحياة . هي الحقيقة التي تريد أن تُعْرَفَ ، والمدة التي تعمل على أن تنقضي والمعنى الذي تطير حوله الأقدار وتقع لتلفِتَ الناسَ اليه . هى الحياة التي لاتتسع لأكثر من قضاء الواجبات ولاتحمل جسدَها إلا رَيْثَما تُبْليه واسمُها الحياة ومعناها النجاح . وهي الحياة لا المالُ والحياةُ لا الشهواتُ والحياةُ لا المطامعُ ، وانما قيمة الحياة فيما تذهب فيه لا فيما يذهب بها ، فكل لذة لا تجد لروحك أثراً فيها فهي لذة ميِّتة وحقيقٌ بك أن تحسب أن شيئاً من عقلك أو من فضيلتك قد مات فيها .

ولقد نقلوا في أساطير الأولين عن (ميداس) أنه بلغ من فرط الغنى أن لا يلمس بيده شيئاً الا استحال ذهباً فأرادت آلهة الخرافات أن لا ينخدع الناس فيه ولا يسحر على أعينهم ويسترهبهم وأن يعلموا أنه انسان وأن فرط الغنى مثلة به فمسخ « أبولون » أذنيه فكانتا . . . أذني حمار . ولعل فرط الغنى يا بني لا يكون في الأعم الأغلب إلا مع هذه الآذان . . . وما أملحها نادرة وأبدعها اشارة وأحكمها ملحة فان كل ما في الحمار لا بد منه لتكوينه حماراً سوياً إلا أذنيه الطويلتين . فلو حملهما انسان كميداس رزق غنى الحيوانية فهما برهانان على أنه ليس بانسان صحيح ولم يستطع أن يكون شيئاً حتى ولا حماراً من الحمير .

وأي شيء هذا الغني الذي يأكل ويتمتع ولا يرتعي من لذات الحياة إلا الخضراء الناضرة وقد سلط على هلكة ماله أو سلط ماله على هلكته (١) فان ذهبت تعتبره إنساناً لم تر فيه من الانسان إلا النصف الاسفل . . . أهو حيوان ؛ فأين

(١) يريد أنه متلاف أوشحيح

عمله الطبيعي إذَنْ فاني لا أرى هذه الحيوانات كلها إلا عاملة لنظام الطبيعة كما تعمل الطبيعة لها . أم هو انسان ؟ فأين عمله الاجتماعي الذى يُسْنِي منزلتَه اذا أصبح الناس على منازلهم وأين الحدُّ الانساني الذى يصله بمجد الماضي أو يدلُّ عليه فى عمل الحاضر أو يُلْحقه بأمل المستقبل ؟

إن الطبيعة يا بنيَّ لا تُغْفِلُ خطأً ولا تَنْسى مُذْنباً ولا تصفح عن إساءة ولكنها تضرب بيد ألطف مَسًّا من الهواء وأخف موقعاً منه على حين أن صفعتها زلزلة لا يقوم لها بناءٌ حي ، فلو أن مثل هذا الغبيِّ قد أُعطي مَعِدَةَ حمار أو أعصابَ بغل أو قوةَ فيل أو نحو ذلك لتمَّ تمامُه بالمال ووجد فى هذا المال مَسَدَّ حاجته كيف مَسَّتْ . غير أنه أعطي شَرَهَ الحمار دون معدته وأعطي فى هذا الباب من البغل والفيل وغير البغل والفيل دون ما يحمل ذلك وما يبعثُ عليه فكأنما مُسِخ من باطنه مسخاً على حين أن طبيعته الانسانية لا تخلو على هذه الشهوات ولا تصلح بها ولا تتطعَّم فيها من الحياة . وقد حدَّثوا عن امرأة من ذوات النعمة الفاشية فى أمريكا اتخذت كلباً فوقع منها

بموضع محبة شديدة فاستصفته وتحفت به وذهبت كل مذهب في ترفيهه وفتحت عليه من دنياها العريضة فنصبت له السرير، وفرشت له الحرير، وأبدلته سماع الموسيقي من سماع الهرير، ومنعته العظم يعالجه ويقرضه، وحرمته على الجوع يقعده وينهضه، وما زالت به تراأمه وتحنو عليه فاذا هو يدوي ثم يضعف ثم يمرض ثم هلك، وكانت المرأة كأنما تقتله بالنعمة شر قتلة وتصب عليه العذاب صبًا من ألوان ذلك النعيم؛ فكيف بصاحبنا الغني حين تبالغ الطبيعة في ترفيهه على مايشاء له الهوى من سنة الحمار والبغل والفيل كما بالغت صاحبة الكلب في ترفيهه على سنة الانسان؟

قال الشيخ علي: الحياة يابني مدة والمدة ضائعة لولا العمل والعمل على مقدار المنفعة والمنفعة بآثارها وهذه الآثار هي تاريخ الحياة. فالأحمق الشره الذي يعيش مقبورًا في بطنه والغني اللئيم الذي يعيش مقبورًا في خزانته والفاسق العاهر الذي يعيش مقبورًا في رذائله ومخازيه والدني السفلة الذي يعيش مقبورًا في جرائمه وآثامه؛ كل أولئك لا تاريخ لحياتهم

ولا حياة لتاريخهم فهم أناس خُلِقوا بخصائصهم لتمثيل ألوان العذاب وأصناف العقاب ، يقع ذلك عليهم من الله ثم يقع منهم على الناس وانما يُعانُ المخذولُ منهم على احتمال أمره بما هو فيه من الغُرور وما يُطَوِّع له ، وما كان الغرور وصاحبه فى عاقبة الحياة وَرَجْعِ الأمر إلا كرجلين من الحَمْقَى ضمَّهما طريق فاصطحبا ثم أفضى بهما السيرُ الى جَبَل قطع عليهما ، فقال أحدهما لصاحبه إني أراك شديدَ الأَسْر قويَّ البِضْعَة وما أرى إلا أن تحمل هذا الجبلَ و تُلقيَه بعيداً من هنا فلا مذهبَ لنا إلا من ورائه ... قال له صاحبه إني كما وصفتَ وإن بي لقدرةً على حمله فما عليك أنت إلا ... أن تضعه على ظهري .. ! فلا الحاملُ أطاق فحمل ولا المُعين استطاع فأعان وانما هما كحِماري العِبادِيِّ الذي قيل له أيُّ حماريك شرٌّ فقال هذا ثم هذا ...

وهكذا يُعين الغرور على طلب الدنيا ويُزَيِّن للمغرور فلا تراه أبداً إلا على زِينة من أمره [1] حتى تذهب الحياة

(١) أى فرحا بما لديه

فى باطل كالحق أو حق كالباطل، فاذا حسَمَ عنه الموتُ مادةَ الغرور وجاءه باليقين الذي لا مِرْيَةَ فيه قال ويحي لو رجعتُ لعلي أعمل صالحاً فيما تركتُ ؛ وآهِ لو عرفتُ حقيقةَ الحياة قبل الموت أو عرفت حقيقةَ الموت وأنا بعدُ فى الحياة :

أيها المغرور : ما أراك إلا دائباً في طلب الحياة حتى تفقدها من شدة الطلب فلا تكاد تستوضح ماهي ، فإياك وإياها لا تأخذ معنى الحياة من نفسك إنَّ لنفسك أغراضاً حيةً تريد أن تكون هي الحياة ، ولا من الناس إنَّ فيهم أغراضَ نفسك ، ولا من مدة عمرك فانها لا تبلغ طَرْفةً واحدة من عين التاريخ . ولكن أعدْ نظراً على ما وراءك وخذ معنى الحياة من ستة آلاف سنة عُرفت من تاريخ الحياة نفسها ثم من عمر الأرض كله ثم من تاريخ الموت المجهول أوَّله وآخرُه ؛ خذ معنى الحياة من هذه الأفواه الصامتة التي لا تكذب لأنها تحفظ الحقيقة الانسانية ؛ من هذه القبور التي تملأ الرَّحْبَ ؛ من هذه الهاوية التي ينصَبُّ فيها فراغ الحياة دائما لأن تحتها مجرى التيار المتدفّع من النهاية الأرضية المعروفة الى

الأبد الذي لا تُعرف له نهاية . خذها من هذه الكلمة التي وضعتها السماء للأرض ، هذه الكلمة الأَزلية التى تحقق الإخاء والمساواةَ فى الناس جميعاً بلا شذوذ ولا تأويل ، الكلمة التى يكون القبر زاوية فى معناها ، كلمة الله عز وجلّ فى قوله تعالى « كلُّ منْ عليْها فانٍ ويَبقَى وجْهُ ربّكَ » .

أيها المغرور . خذ الحياة حقيقةً لا وهماً وعملاً لا علماً واسمع للحياة ان كنت تعرف لغتها أو اسمع للموت الذي يعرف كل انسان لغته فان كل ذلك يُعلمك أن الرجل الحُرّ لا يعرَف على أي حالة يعيش إلا اذا قرر لنفسه على أي حالة يموت ، وأَن الحياة ليست فى الوجه التى توَجد عليه من الغنى الى الفقر ولكن فى الوجه الذي تنتهي عليه من العمل الصالح الى العمل السيء ، وليست فى ترْفيه الحواس الغليظة ولكن فى النفس والضمير : الضمير التقيّ لثواب الدنيا وجمال الحياة ولذة الخير ، والنفس الطاهرة لثواب الآخرة ونَضرة الخلود ورحمة الله .

قال الشيخ علي : فلا تسأل يا بنيّ ما هي الحياة ولكن سَلْ هؤلاء الأحياء أيكم الحيُّ . . ؟

الفصل السادس

قال الشيخ علي : واني مُحدّثك الآن حديثاً يشفي نفسكَ من الخَبر ويفتح عليك أبواباً من العِبْرة والموعظة ويُحْضِرك طرَفاً من الدنيا بأقداره وعِلَلِه ومذاهِب حكمة الله فيه كأنما أنت شاهدٌ أمرِه ، فلتعلمَنَّ أنّ في المال مَشْغَلةً عما سوى المال وأن الحرص عليه حقّ الحرص لا يُداخلُ أمراً من أمور الحياة فيعترضُ بين وِرْدِهِ وصَدَرِهِ الا ساءَ أحدُهما أو كلاهما(١) وفَسد الأمر، فعسى أن يتصل بما هو أجلُّ منه خَطرا وأسنى منزلةً فلا يكون ذلك الحرصُ الا مَضْيَعةً ولا تكون الرغبةُ فيما يُسْتَخلَف الا سبباً في ذهاب ما لا يُستخلف .

ولتعلمنّ أنّ المال شيءٌ غير الحياة وأن الحياة شيءٌ غير المال وان ما يَخْتَدِعُ الانسانَ فيتلوّن له من سَراب هذه السعادة انما يكون أكثرَ ما هو كائنٌ من بَريق المال يَحْسَبه

(١) أي الورد والصدر وهما كناية عن مبدإ الامر وغايته .

شيئاً حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً ، وعسى أن لا يكون فيما أقبلَ من نعيم الدنيا الا ما يُدبرُ بصاحبها وأن لا تُصيب فيما زُوِيَ عنك من حظها الا ما يُقبل بحظ نفسك على نفسك

ثم لتعلمنَّ أنه إن كانت للقدَر فَتْرةٌ عن رجل من الناس فقيراً أو غنيا أو بين ذلك فما هي غفلةٌ ولا معجزة ولعل الرجل إنما يُمدُّ له في الغيِّ مدًّا طويلا حتى اذا جاء يومُهُ انفجرَ عليه بما لا يُطبق له سدًّا ولا يستطيع له ردًّا .

وأنه رُبَّ كلمةٍ تعارفَ الناس معناها وأجْرَوها على مذهبها في كلامهم فاذا هي نزلت بعضَ منازلها من الحياة كان لها معنى آخر لا تفسره الا الحياةُ نفسها ثم لا تفسره الا على ضد مأخذهم ومقصدِهم فيقول الناس « فلان الأمير » ومعنى ذلك فيما تراه من حوادث الحياة وأقدارها فلان النذل . . . ويقولون « هذا الغني » ومذهبُ الحياة أنه الشقيُّ بغناه ، وفلان أعزه الله وانما هي أخزاه الله بعزه ، ويحسدون فلانا إذ يرون أن الله عز وجل قد مكَّن له وآتاه من بسْطَة المال والجاه فهو يستعِدُّ للحياة بأفضل عُدَّتها ، ثم تقع الواقعةُ ويتغشَّى فلاناً هذا

ماشاء اللهُ من الحوادث والأقدار فاذا هو إنما كان يستعد للموت بأقبح عُدَّته ...

ولتعلمنَّ كذلك أن الغاية من هذه الحياة كمالُ الحيّ في جسمه ونفسه فان تمَّ بالفقر فذلك غناه وان نَقَصَ بالغنى فذلك فقرُه، ولا شأنَ لاصطلاح الناس فيما هو خاص بين المرء ونفسه . وهذا معنى بسطته لك آنفاً ولكني مُتلقّيك بمثاله من رجل وامرأة ولا عليكَ أن لا تسمع حديثاً عن الباشا و « هانِم » أوأبي زيد وأم الخير ولاعليَّ أن أجيئك بالمثالين على باخرة[1] وما بلادنا من هذه المخازي بمُنْتَزَحٍ ولكني أردت إمتاعكَ من لذة الحديث على مقدار إمتاعك من حكمة الحادثة، والكلامُ عن رذائل الحياة في بلادنا هذه كلامٌ غثٌّ يتجافى عن الرقة في أكثر مناحيه واذا وجهتَه الى أكثر قومك فانما أنت تشتمهم به أو هم يتلقونه من هذه الجهة ولا مناص أن تقع بك ظِنَّةُ السِّباب وان كنت واعظاً ويقال عاقٌّ وان كنت بَرّاً وغاشٌّ وان كنت من الناصحين.

(١) من خارج البلاد

الرجل البخيل

أما فلان هذا فهَرِمٌ بخيل لو مُسِخ حجرا لتحطمت من غيظها الأحجار ، ولو كان على بخله حديداً لما لانَ الحديدُ في النار ، ولو صوّره الله طِيناً أجوَف لما طنّ في يد أحد على نقر ، ولو خلقه مرةً أخرى من تراب لما جُمِع هذا « التراب » الا من ثياب أهل الفقر ...

وهو نبيُّ أُمّةِ البخل ، أما مُعجز ته فهي قدرتُه على أن يستنبط غير المألوف من المألوف ، ويستَغلّ الصّفر فيُخرج منه أَلفاً الى أُلوف ؛ وانه على ذلك لآيةٌ فما رآه المؤمنون الا قالوا اللهمّ غفرا ، ولا رآه الجاحدون الا زادوا عُتُوّاً وكفرا .

وكم تمنّى وهو يتهالكُ حِرصاً أن يكون كإبليسَ في أنه لا يموتُ الا متى هَرِمَ الدهر ، ولا يذهب من الأرض الا حين لا يبقى فى تاريخ الأرض عامٌ ولا شهر ، واذا خوّفتَه الموتَ والحساب قال ويلكَ دع عنك ، واذا علم انه سيُعطَى كتاب أعماله فى الآخرة قال ياليت صُحُفه من « ورق البنك » .. !

على أن دِرْهَمه في أيدي الناس هَمّ ، واسمه في أفواههم سَمّ ، وكم لأمواله من قتيل فمن (استلف) ، فقد ذهب به التلف ، ومن اقترض ، فقد انقرض ، وكم من بائس قشعت غمامته ، ثم غالت هامته ، (١) وقضت دَيْنَه ، ثم أبكت عَيْنَه

فوالذي نفسي بيده إنّ دراهم هذا الخبيث لتُعدُّ من اللُّصوص ، وإنها للئيمة على العموم أما هو فلئيم على الخصوص ، يُرسِل الدرهم في يد المحتاج فيذهب فيه ديناره ، ويقدح فكره الملتهب فلا تقع إلا في بيوت الفقراء ناره ، ولو كان مخلوقاً يوم عرض الله الأمانة على السموات والأرض والجبال فأَبَيْن أن يحمِلنها لحمل وحده الأمانة ، واذا كان مبلغُ القول في في وصف كل غني كريم أنه « صراف » في خزانة الله فجهدُ القول في هذا اللئيم أنه لِصُّ الخِزانه ... (٢)

---

(١) أي قتلته والمعنى أنها تنفس كرب المحتاج حيناً ثم تكون له كرباً لا نفس فيه

(٢) الغني الكريم الذي يعرف حق الغنى عليه انما يعرف أنه مؤتمن على مال الله لانفاقه في وجوه الخير على نفسه وعلى الناس ولكن البخيل يدخر ولا ينفق

وهو على غناه كأنه فى الناس بؤس المفلس فى القمار، وكأنه لحقارته ذيل الخمار، إن طلع عليهم فطالع زحل، وان غاب عنهم فوباء رحل، ومتى ذكروه، فكأنهم أنكروه، واذا قضي عليهم أن يسموه، فكأنما شتموه، واذا وصفوه قالوا وجع الأظفار، وذنب بلا استغفار، واللهم قنا عذاب النار.

أما وجهه فلو أنزل الله مرآة من السماء فنظر فيها لصدئت من قبح خياله، كصدإ ذلك المخزون من ماله؛ وأما روعته فلو خرج على الحسان لابتلاهن بما يفجأ الظباء من رؤية الفهد، وامتلكهن بما يعتري المرضع اذا كشفت عن طفلها فأبصرت الثعبان فى المهد؛ وأما جهامته فلو نظر اليه البدر لغرب، ولو طلع عليه الفجر لهرب؛ وأما روحه الخفيفة... فلو بعثت في خلق آخر لما كانت إلا بقة صيف، فى رقبة ضيف، أو بعوضة تلسع العاشق المهجور فتوقظه وقد ظفر بالطيف؛ وحياته كالبلاء المحتوم، وغناه كالكنز المختوم، وأما هو فكالقبر المكتوم.

وأحسب لو رسمه أمهر المصورين فأبدع فى

خطَطِه (١) وألوانه ، وأنطقه من عينه وعنوانه ، وجعله آية فنّه وافتِنانه ؛ وترك من يراه لايحسبُ إلا أن المصوّر قد سرَقه ، أو أن الله تعالى مسخَهُ على ورقة ، لَبَقِي مع ذلك فى رسمه مَغْمَزٌ لا تُصلحه إلا يدُ الشيطان الرجيم ، ولا تلوِّنه الا شُعلةٌ من نار الجحيم ؛ ومَن للمصوِّر بشرارتين من الصاعقة يُنزلهما فى الرسم لتظهر بهما عيناه ، ومن له برقبتي البخل والرذيلة يُطْبِق عليهما يُسراه ويُمناه ، ومن له بلونين من غضب الله ونقمته يُظهر بهما فى الصورة معنى فقره وغناه ؛

ولستُ أطيل فى القول فما أنا ببالغٍ من القول بعضَ صفاته ، وهيهات أن يصفه على الحقيقة الا من يعلم لغةَ الملائكة فينقلَ الى لغة الناس كتابَ سيّئاته ...

---

(١) أى الخطوط

قال الشيخ علي : ذلكم هو (الكونت فيكتور). رجل أملق أموالَ الناس وزادها في ماله وجمع بين سوء حمل الغنى وسوء حمل الجاه وعرف النعمةَ ونسي المنْعِم بها فكأنما فتح الله عليه من هذه الدنيا ومكَّن له في أبوابها وأفشى جاهَه ونعمتَه على ما ابتلاه به في خاصة نفسه من المَحْق ليجعله واحدا من أولئك الذين يخرج للناس من تواريخهم قِصصاً في الأخلاق محكمةَ السبك في نَسق التأليف الالهي المُعْجز الذي يأتي بالحادثة الى موضعها حيةً وميتةً، ويُنزل الكلمةَ في مُستقَرِّها من الموعظة ولو أن فيها ذَهابَ نفس وإدبار نعمة، ويُديرُ المَثل والفلَك بأسلوب واحد.

وقد أسنَدَ هذا الرجلُ في حدود السبعين وكادت تحْطِمُهُ السِّنُّ ولا يزالُ مُتأبِّدًا [1] لم يَستتر سقفُ بيته امرأة ولا ضحكت الشمس فيه على وجنة طفل يتبسم. وقد نشأ على أن حب المال لا يستقيم الا ببغض النساء لأنه أكثر ما يجمع لهن وأكثر ما ينفق عليهن ولا يرى في المرأة الا أنها « ثَوْرة

(١) يقال تأبد اذا طالت عزبته وقل أربه في النساء

مالية » و« سُوق فى البيت » و« أزمة يحتال الرجلُ للخلاص منها بالوقوع فيها » . ويقول إنها منذ أكلت من الشجرة الملعونة فى السماء جعلت الرجلَ شجرتَها الملعونة فى الأرض فهو ما عاش ينبُتُ وينمو وهي ما عاشت تحصُدُ وتأكل . . .

وقال مرة « إن الرجل لا يزال عقلاً حتى يتزوج فاذا هو فعل فقد صار من زوجه وأولاده سلسلة بطون . . فقيل له ولِمَ لا يكون يومئذ من زوجه وأولاده سلسلة عقول ؟ قال الى أن يصبح أطفاله القدماء رجالاً يكون هو قد صار طفلهم القديم . . .

وجاء يوماً سمسار يُساوِمُه فى أرض له وجعل يُراوغه ويترقّى الى خديعته بما أُوتي السماسرة من خبث ودهاء ويُقبل به مرة ويُدْبِر به مرة والكونت فى كل ذلك يعبث به ويُنمي له (١) ثم صرفه على طمع كاليأس فلما ذهب مُدْبراً قال ويحي لو أن هذا السمسار كان امرأةً جميلة إذَنْ لأدارني فى يده كما يرقص الدينار على الظُفْر ، فالحمد لله إذ خلق النساء

(١) يتركه فى قليل الخطأ حتى يبلغ أقصى الخطأ

على نظام رحيم فجعل فى هذا الشر المحتوم موضعاً للهرب ...

ولما بلغ الخمسين — بعافية من الله — قال أحسبنى لو كنت متزوجا يوما فان امرأتي فى هذه الساعة تلتقم ثدي أمها ... فسأنتظر حتى تصلح لي . فأجابه بعضهم وحتى تصلح لها أيضا ...

وتواصفوا عنده الجمالَ مرة وأفاضوا في حديث النساء والنعمة بهنّ ، وقد تعالَم الناسُ ذلك البغضَ منه — فلما أضجروه قال حسبُكم ياقوم ما أراكم إلا تخلقون إفكاً . ان هذه المرأة في حقيقتها غير تلك المرأة فى وهم الرجل . فهي هي حتى يبعث عليها وهمَه ويصبغها بألوان نفسه فكأنها منه أمام الفانوس السحري . إن المرأة خَصم عنيد لا يقتل بالغضب ولكن يقتل بالضَّحك وشرُّ مافيها أنها ان لم يكن منها قتل فليس معها حياة .[1]

تقولون إن الرجل محتاج الى المرأة . فقد كان ذلك أيام كانت المرأة كأنها فى عملها للرجل رجلٌ آخر ... فتلك

(١) يريد بالتى لم يكن منها قتل المرأة لا تكون جميلة فاتنة

حاجة اليد الى اليد وحاجة الظَّهير الى الظَّهير ، ولهيَ مُناقلة طبيعية في الجنسين بين قوة تحتاج الى ضعف يخفف من سَوْرتها وبين ضعف يحتاج الى قوة تشُدُّ منه ، فلو كان العالَم كله رجالا إذن لطالت أنيابُهم كثيرا ولما وجد على الأرض من يخترع مِقصاً للأظافر …

أنا لست أنكر أن المرأة شيء طبيعي وماهي بِهُولةٍ من الهُول (١) ولا مَسْخ من المُسُوخ ولا أنا آسفٌ على خروج آدم من الجنة بذنبها فاني رجل اقتصادي ولقد كان من هذا الذنب رأسُ مال كبير . فايَّاكم وايَّايَ لاتظنوا أني أُكابر أو أُماري ولاتحسبوني رجلاً جلفاً يكره الجمال ويريد أن يكون للمرأة بديلاً من رأسها النحيف المكلَّل رأسُ جاموسة … وبدلاً من يدها الرَّخصة الناعمة ظِلْفُ بقرة … حَسْبكم ياقوم — حسبكم الله — لاأُطيق هذا العبث بي ولكني أسمعكم تقولون المرأة وتصفون المرأة ولا أرى المرأة نفسها كما تحدثون وتصفون ، بل أرى مخلوقة غريبة الأطوار

(١) الهولة كل مايفزَّع به الصبيان

في هذه المدنيَّة وأرى خرقاء ان لم يكن معها الافلاس فلا أقلَّ من أن يكون معها النـدمُ أوالغيظُ أوالسخطُ وربما كانت بلاءًا ماحِقاً يُزَفُّ الى الرجل يوم زواجه باحتفال ... يُخيَّل اليهـا من الفكر فى المـال أن الرجـل هو مال أيضاً وتريد أن تتزوج ولماذا ؟ لأن المحراث لا يلتَمِع نصلُه إلا بعد أن يجدوا له الثور ....

امرأة متأنقة لا تريد إلا أن تطلع الشمس كل يوم على زيّ جميل ليكون لزوجها كل يوم همٌّ جميل . ثم هي أحسن ماتكون حين تخرج من بيتها كأن بيتها مُنخُلٌ لا يُمسِك منها إلا الحثالة ...

اننا ياقوم لِقاءَ المرأة لا تِلقاء مُعجـزة من معجزات الأنبياء فنحن نستطيع أن نقول هذا خطأ فيها وهذا صواب منها ولـكنها على أي أحوالها لا تريد أن تكون معهـا أبداً إلا على حالة واحدة . تريد أن تُشبِه نفسها لانها لا ترى أكمل من نفسها ، أما الرجل فهو اذا رأى فيها نقصاً فذلك عندها لأن عينه عين رجل وتكاد أهدابها تكون من شعر اللِّحى

والشوارب ... فمن ههنا لا يرى الخبيث تلك الحَسَنات النسائية التي تترقرق من المرأة في كل شيء صافيةً جميلةً كنور القمر .

ترى هذه المرأةُ أن كل حَسَنٍ في أعمالها لا يكون إلا أحسن شيء لأنها حسناء . ولكنها لا تُقِرّ أبداً أن كل قبيح في أعمالها ينبغي أن يكون أقبحَ شيء . ولماذا ؟ لأنها حسناء أيضاً ...

هذه المرأة الجميلة قد ظنت عند نفسها أنها شيء مقدس ولذلك لا تريد أن تعمل عملا كبقرة البراهمة . فياليت الرجل كان شيئاً مقدَّساً أيضا كعجل المصريين القدماء ...

ياهؤلاء ان الرجل مخلوق قويّ ولكن معظم قوته منصرف الى حواسه فمن ثَمَّ كان في يد المرأة ضعيفاً لأنها على ضَعفها ينصرف مافيها من القوة الى عواطفها فلا يلتقي الخصمان إلا كانت الهزيمة على الرجل وقد كان لولا سِفاهُ رأيه في مَنظَرٍ عن هذا ومُستَمَعٍ (١) ، فما رأيتُ قط رجلاً

(١) المراد بعيداً عنه

يهوى امرأة إلا اعتدَّ سلطانه في أنه يشعر بسلطانها عليه ، وكان رضاه في أنها راضية عنه فهكذا هكذا . جعل الرجل حاجته الكبرى في المرأة وبالغ في توهمّ هذه الحاجة وافْتَنَّ في تصويرها ألواناً وضُروباً فجعلت المرأةُ حاجتَه اليها سببَ كل حاجةٍ لها وبالغت في الطلب واحتكمت فيما تطلب وانْصاع الرجل في يدها كالبهيمة السائمة وجعله التمدن الفاسد في رأيها كآلة الساعة ، علامةُ ضبطها واتقانها « أن لا تقدم ولا تؤخر » . . !

وإن تَعْجَبْ فعجَبٌ أن هذا الرجل نفسه اذا هو كبَحَها مرةً عن حاجة تطلبها أرضاها بحاجة أخرى لم تطلبها فكأن هذا المسكين إذْ تعبَّدَ لها يأبى الا أن يكون عبداً بشهود وأدلة . . .

وتحسب المرأة اليوم أنها غير المرأة من قبل وغيرُ ما كانت حالُها كأنها رُقِيٌّ في التاريخ فقد غيَّرت نفسها بالفنون والعلوم والأزياء وبهذا التحكم الباطل وبهذه الدعوى الفارغة ، وأنا أوَّلُ المؤمنين أنها غيَّرت نفسها ولكن هل غيَّرتها الطبيعة؟

أيها السادة : إن مع كلمة هاتِ كلمة خُذْ ، لولا كلتاهما لخربت الدنيا وتقاصرت الأمور والأحوال ، وكلُّ عمل وكل

عامل يتركب منهما فالدنيا كلمتان « هات وخـذ » والحياة كلمتان « هات وخـذ » والمرأة التي تصفونها كلمتان أيضاً ولـكنهما ... هات وهات !

قال الشيخ علي : ومرَّ هذا الكونت في فلسفته يمضغها مضغ الماء ، وربما أصاب شيئاً ولـكن ماذا تنفع كلمةُ الحق يُراد بها الباطل ؛ وهذا رجل يتكلم كأنه ابن شجرة لا ابن امرأة .. ! على أن من تعلق شيئاً من أمور الحياة وُكِلَ اليه ، وهو بَعْدُ لم يعرف غير المال يجمعه ويدَّخره وقد خلقه الله رجلاً مالياً ويَسَّرَه لما خُلِقَ له ، وكثيراً مارأى وجهه في المرآة فكان يُعجبه من مَنْخِريه أنهما في تَفَرْطُحِهما « كحافرَيْ حصان الجنيه الانجليزي » ...

ولما استوفى عمرَ السبعين وأصبح في يُبْسه وموته كأنه جذر قَرْن من الزمن خرج في عيد مولده الى سَوَاد المدينة [1] منحدرا الى قرية يملـكها ، وانطلق يَجْتَلي مناظر الطبيعة فكان لايرى في السائمة والطير والنبات والأزهار إلا شبابا وطُفولةً

---

(١) ريفها وماحولها من القرى

وكان وحده منظرَ الهرَم المُستَميت في هذه الطبيعة كلها.

وأعجبته شجرة قائمة على مَسِيل الماء، وأعجبه أن يَتفيَّأ ظلها وقد تَحفى بروحه المُتعَبة بَرْدُها ونسيمُها فانطرح يتثاءب هُنيْهةً واعتزم أن يسافر الى شبابه البعيد على مَطيَّة النوم فكبَس رأسه على ذراعه فاذا هو نائم كأنما جرَع السمَّ فَخَمَدَ من فوْره .

ورأى فيما يرى النائم كأن الأرض تُرقِّصُه على أعشابها لتمسح عن أعضائه التعبَ، ثم أبصر السماء في مثل تحاسين الطاووس من ألوانها وأصباغها كأنما أشرف على الأرض فجرُ يوم من أيام الجنة، ثم نظر فاذا ضوءٌ رطبٌ يتندَّى وقد أصاب شفتيه الذابلتين ولمح على أثره وجه حسناء كأنها فِلْقَة القمر فكان ذلك الضوء قُبلتها وابتسامتها وكان على قلبه «بَرْداً وسلاماً»؛ فنصب لها يديه يتناولها فاذا هي تتخطى الغمامَ هابطةً اليه واذا هي على الارض واثبة نحوه واذا هي أمامه ضاحكة واذا هي ملء صدره وذراعيه، فارتجف جسمه رجفةً شديدةً كأن فيها شوقَ سبعين سنة من الهجر وما لبثت عُقدة أجفانه أن انحلَّتْ فنظر فاذا يدُ فتاة قروية ناعمة تهزه برفق .

فانتهض الكونت كأنما نَشِطَ من عِقَال ولما تَصحُ عيناه من سَكْرة الحُلُم فكان يُخيَّل اليه أنه يرى جمال السماء والأَرض فى طلعة هذه الفتاة وعلى غُرَّتها . ثم كشف لها عن رأس كَفَرْوة الأَرنب البيضاء وانحنى متأدبا وقال بلطف : أشكرك ياسيدتي .

أما هي فابتسمت له وقام فى نفسها أنها هي ردَّت عليه روحَه وانها لولم تنبهه لما انتبه آخرَ الدهر كأنما حسبته ميتا ، وظهر هذا الفكر في ابتسامتها فأكسبها شيئًا من قوة روحها وجعل لشفتيها الحمراوين جمالاً كجمال الشفَق اذا افترَّ عن نور الفجر .

وتأملها الرجل بمبلغ مافى نفسه من لذة الحُلُم « وبعث عليها وهمه وصبغها بألوان نفسه فكأنها منه أمام الفانوس السحري » . . . وماخلق الله لذةً أهنأَ للنفس من لذة الأَحلام فكأنما ترى فيها النفسُ شيئا من تحقيق المستحيل ؛ وإن فى أعقاب هذه اللذة بعد اليَقَظة ما يُشعِر المرء بالأَمانيِّ كيف جاءت وكيف ذهبت فكأنما كان فى حياة أخرى وكأن نفسه تتمسك بهذه الحياة ولا تريد أن تُسلِمَها فتكون ذكرى

الحلم أرْوحَ للنفس من الحلم على الحقيقة، لأنها نَتاجُ ما بين لذة لم تكن شيئا ولذة صارت شيئا .

وثبتت صورة الفتاة في عينه على ما اشتهى وكانت زهراءَ اللون حوْراءَ العينين ساجيةَ الطرف أسيلةَ الخد باسمةَ الثغر حسنةَ التكوين كأنها ريحانة تَرِفُ رَفيفاً، وتكاد من فرْط رقتها تتكلم ابتساماً حتى لا يحسب من رآها أن الشمس طلعت يوماً على أبدعَ من ثغرها واللؤلؤ ولا أحسنَ من خدها والورد . وكأن الطبيعة يعتريها أحياناً من سوء الحِرْص وسوء الخوف وسوء الحيلة بعضُ ما يعتري الشحيحَ الذي يخبأ أنفَس ذخائره في أخَسّ الأمكنة وأقبحها منظراً وفيما لا حفْلَ به من الأداة والمتاع فكانت « لويز » على ما وصفنا من الجمال والظرْف ولم تكن مع ذلك إلا قرَوية .

أما صاحبها فما أشبهه بعُنُق النَّسْر . شيخٌ مضعُوف، كالعِرْق المنْزوف، والعظم الملفوف ؛ مَمْسُوحُ العَضُدَين، (١) ناسِلُ الفَخِذين، كأنما يتوكأ منهما على عَصَوَيْن ... غير أن

(١) ليس عليهما لحم وكذلك ما بعده

له عيناً يَتوَقّدُ فصّها ويَستَنفِضُ الناسَ طرفُها (١) فلا يملك من تقع عليه أن يضطرب وكذلك اضطربت الفتاة . وما كاد الرجل يلمح اضطرابها حتى طبع الله على بصيرته فحسب ذلك معنًى من الغزَل وانطلق وراء خياله يمرّ به على آمال الشباب الفانية ، وكان لحظُ الفتاة ينسابُ في عروقه دماً يغلي فحسب أن جسمه قد ثابَ اليه (٢) وأنه بُعِثَ خَلقاً جديدا لهذا الحب الجديد. ويبالغ في التّظرف ويجلس قريبا منها يَستنبئها وهي تُطَرّفُ له من أخبارها (٣) فعلم من روايتها أنها شريفة النسب خالصة العِرْق وقد نبا بها المنزل وانحطّ الدهر على أهلها فهي ذاهبة الى المدينة تلتمس حياةَ التقوى في دير العابدات . . وعلمتَ هي من رؤيته أن في هذا الموت الماثل أمامَها حياةً وأنه لا مذهبَ لها من ورائه اذا هي أفلتته إلا مذهبُ القدَرِ المجهول ، ورأته كأنما يَتشرّبُ لفظَها ولا يسمعه وأبصرت هواها في حمالِيقِ عينيه فجعلت حيناً تبسم له وتلحظه وحيناً

(١) اذا رأوها أرعدوا هيبة (٢) رجع اليه بعد الهزال
(٣) تذكر له طرفاً منها وتخفي عنه مابقي

تلحظه وتبسم له وما تلفظ من أنة في بث حزنها الا أحس المسكين أنها نقرة على أوتار قلبه . ولعل الانسان لا يمكنه أن يحب الا اذا هيأت له الطبيعة مجلس الحب على مايشتهي وعلى ما هو مذهب الحب في نفسه .

وقد مذعت له الفتاة من خبرها [1] وكتمت عنه أنها طريدة منبوذة استنزلها فتى من عشيرتها على أن يتحللها وكان منها معقد فؤادها ثم طوّح بها عاره وغدره ولؤمه جميعاً فخرجت هائمة على وجهها ولفظها قومها كما تطرح الثمرة اذا دب فيها الفساد من عبث الطير .

قال الشيخ علي : وانقلب الاثنان كلاهما صيد وصائد . أما هي فأصابت رجلاً مجنوناً بها يحبها حب الجد والأب والزوج والعشيق فان ثاب اليه عقله من جهة بقي مجنوناً من ثلاث جهات ، وحسبت أن الموت مصبحه أو ممسيه فهو همها عشية أو ضحاها . ولقد كانت من الضائقة والعوز وشدة الاختلال بحيث لو عهد اليها أن تغسل الزنجي حتى

---

(١) ذكرت له قطعة منها دون سائرها .

يبيض لقاء درهمين لطمعت فيهما ... وأما هو فقد ظفر في زعمه بالمرأة الطبيعية التي نبتت مع الأزهار، وطلعت في سماء الحياة مطلع ضوء النهار؛ وحسب أن هذه الفتاة التي تناهز العشرين انما هي زيادة عشرين سنة في عمره ينتهبها من القدر انتهابا، ويقضي بها دَيْن الحب طفولةً وشبابا.

ولست أدري كيف عَزَبَ العقلُ عنه ولا كيف خذله رأيُه ولا كيف وهى ركنُ فلسفته وكان من قبل وثيقاً، ولا كيف أحبَّ منذ الساعة وقد كان يتصاونُ عن النساء ويحسب أن بغضهن عَقْدٌ لا يحلُّه الا من يحل عُقدةَ نفسه؟

ولكن الحب يا بنيَّ لا يكون عجيباً بلا شيء يُعْجَب منه وكثيراً ما يتملأ الرجلُ بغضاً ليحب بعد ذلك بمقدار ما أبغض فمثلُه كمثل من يبحث عن البرهان بطريقة من طرق المغالطة التي لا تُؤَدِّي اليه فمتى أصابه كانت قوة البرهان بطريقة استخراجه العجيبة أشدَّ منها في البرهان نفسه.

وهي الأرواحُ ما يزال بعضُها يتسلَّط على بعض وما إن يزال في كل روح معنى هو الوسيلة الى هذا التسلُّط ومنه

مَساغُه ومأتاه ، فلو قلتُ ان في مِسلاخ ذلك الرجل معنى الحمار لما كان في الفتاة الا معنى العَصا ، وكذلك انطلقت وهي تسوقه في طريق مصائبه وعند العصا تفرغ حيلةُ الحمار ولو كان الحمار أبيًّا .

***

(في الحب)

مَن هذه الهيفاء التي تَستَميلُ ولا تَميل ، وقد استبدَّت بالجمال فلا يُرى في غيرها شيءٌ جميل ؛ طالعةٌ كالشمس فكل نجمة من ضوئها كاسِفَة ، لاهيةٌ كالنسيم وفي كل قلب من حبها عاصفة ؛ وقد عبدها العشاق باطلاً كما يعبد المجوس الشمس ، وتمنَّوا في دلالها المُحالَ كما يتمنَّى المرءُ من أمْس ، وكتب عليهم هواها المحتوم ، « جُندٌ ما هنالكَ مَهْزوم » .

وكم تمنَّوا لو أن لين أعطافها ، يتعدَّى الى انعطافها ، ولو أن بعض ابتسامها ، يُشرق على ظُلمات اليأس من غرامها ، وهي تقتل منهم برضاها وغضبها على السَّواء ، كأن حبها الموتُ متى قُضيَ جاء به الداء وجاء به الدواء ؟

(في الحفلات)

ومَن هذه الطالعةُ في غلائلها ، المعروفةُ في الحسن بدلائلها ، المشرقةُ كالبدر في ظلمة الحلك ، الضاحيةُ كالشمس في قبة الفلك ، تعترف بالهوى في ألحاظها ، وتُنكره في ألفاظها ، وتُقبل بعينها سائلة ، وتلتفت بجيدها مائلة ، وقد حسَرت عن زَنديها ، ووضعت رمزا للحب تلك الوردةَ على نهديها ، فلاحت للمحبين كأنها قُبلٌ قُطفنَ من خديها ؛

(في الرقص)

ومَن هذه الزهراء كالنار المشبوبه ، الحسناء كالدُمْيَة(١) المنصوبه ، المشرقةُ في زينتها كغُرَّة الدينار ، اللائحة في ميناء الدموع كما يلوح المنار ، وقد شفَّ قلبها عن الجوى كما يَشِفُّ الزجاج ، وتدافعَت من طرَب الهوى كما تتدافع الأمواج ، وهي ترقص على حركات القلوب في الضلوع ، وتسترسل كما تسترسل تلك الدموع ، والأبصارُ قائمة على قوامها ، والنفوس

---

(١) التمثال الجميل .

حائمة منها على حِمامها ، وما هي في عين المحب الا خَطَراتُ الطَّيف ، أو رقةُ نَسماتِ الصيف ، ولا رقصُها الا معركة في الحب قام فيها اللحظُ مَقامَ السيف ؟

(في الموسيقي)

ومَن هذه الباسمةُ كالأزهار ، الساجعةُ كالأطيار ، التاركةُ عشاقَها كالشمس بين طرَفي الليل والنهار ، القائمةُ كالكأس في اليد ، الناعمة كالحمرة في الخد ، وهي تُحيي بالصوت لأنه يخرج من صدرها ، وتُسكِر باللفظ لأنه يمرُّ من ثغرها ، ويكاد يُخلَق من نَغَماتِها القلبُ المفتون ، ومن حركات انامِلها العقلُ المجنون ؛ اذا صدَحت فحمامه ، واذا رقصت فغَمامه ، واذا أرسلت من يدها (صيحة) الاوتار أقامت للطرب (القيامه) ؛

*
* *

تلك هي دُرَّةُ الصدفة المطروحة على ساحل الموت ، وهي حمامة ذلك القفص البالي المصنوع من العظام ، وهي

خطيبة الكونت فيكتور ..!

وتلك هي « لويز » القروية الساذجة كانت نبتةً في الطين، فأصبحت زهرةً في وعاء ثمين، ولأن تكون نبتةً مهملة وتنمو خيرٌ من أن تكون زهرة مرعيّة وتجفُّ .

ولقد رأى الكونت أخزاه الله أن أحسن ما يكون الاستمتاعُ بالجمال حين يكون الجمال فنًّا وفتنة ، فأما الفتنة ففي عيني لويز وجمال تكوينها ، وأما الفنُّ فلا سبيل اليه من هناك ولا من فلسفته وليس الا أن يبسُط يده كلَّ البسْط حتى تنبت له تلك الزهرةُ من أغصان الذهب والجوهر، فأنفق واتّسع في الانفاق وجعل آمال شيخوخته كلها مُقترحاتٍ في زينة الفتاة ، فبرعت البراعة كلها في الرقص والموسيقي وأحسنت من الفن النسائي في أساليب الظرف والجمال والزُّخرف ماترك هذا الهرِم المتصابي يفاخر الناس كافةً بأنها خارجة من قريحته ...

وأعجبُ مافي أمره أنه على كثير ما أنفق وطائل مابذل لم يكن يرى أنه أنفق على لويز ما لا بد منه لمثل لويز ...

وهو منذ أصبحت فى كَنَفِهِ استبدلَ الحرصَ على المال بالحرص على الحياة وعرف أنه لا بد فى الحب من وسيلة وان قلب المرأة ليس فى يد أحد ولا فى يد المرأة نفسها بل هو يحتكم فيما يختار ويختار على ما يحتكم ، وأنه ليس أشدُّ عُنفاً من هذا القلب فهو ان لم يُحْيِ قَتَلَ ؛ يحب المرأةَ عاشقٌ غير محبوب ويريد مُراغمتَها على حبه فيقتله قلبها لوعةً وضنًى بما يُطَوِّع لها من صدِّه أو بغضه ، وتحب المرأةُ ثم يمنعها قومها ويُرغمونها على غير من تحب فلا يقتلها الا قلبُها .

وان (فكتور) ليعرف أنه فارغ الخِلقة … من وسائل الحب كلها ويعرف أنه فى أحمض أنواع الهوى . . . لا يعدل أكثر مما تعدل قشرةُ الليمونة المعتصَرة فكيف به فى الثمر الحلو وكيف به فى حب لويز ؟

لم يبق إذن الا أن « يُخرج الوسيلةَ من يده » والمال أضعف الوسائل فى الحب الصحيح وان كان أقواها فى الحب المكذوب على أنه لا يجعله قويًّا من ضعف الا أن يظل يُمِدُّ بعضُه بعضاً . فاذا أنْفَضت اليدُ أو أمسكت فلأَن يقبض المحبُّ على الريح أيسرُ من أن يضع يده على ظبية شاردة …

ومن أجل ذلك توسّع الـكونت فى البذل حتى كأنه كيس مخروق ، ولم يعرف لها طلباً إلا بلغ فيـه رضاها وحسب أن فى رضاها محبتها فكان يأتي بالحاجة التي تطلبها والحاجة التي لم تطلبها « وأبى إذ تعبّد لها إلا أن يكون عبـداً بشـهود وأدلة » .

وبقيت «لويز» تتربّص به الأجلَ فكانت له كحرف التسويف ولا تزال تُدافِعُـه عن نفسها وتَرُوضُه على الصبر وتُمَنّيه انها تستتم فنونَ الجمال من أجله وأن هذا القمر متى تمّ فسيدخل معه فى المِحَاق . . . لامحالة . وتظن باطلاً أنه لم يبق منه إلا كما بقي من ذَنَب الوزغة (١) تضرب به يميناً وشمالاً ثم تموت بيْدَ أن الموت لم يستنقذها منـه وان كان يرأف بها أحيانا وتدخله الرقّة عليها فيُنيب عنه (الروماتزم) (٢)

(١) هي دويبة معروفة وهي وسام أبرص جنس واحد ولـكن سام أبرص كباره وهذا الاخير هو مايسميه العامـة (البرص) واذا قتلت الوزغة حركت ذنبها قليلا ثم ماتت

(٢) هو في العربية الرثية بفتح الراء وسكون الثاء ولـكننا آثرنا هذه اللفظه لموضعها

ليريحها بضعة أيام ...

وكان الرجل يخشى غضبها ويطمع فى رضاها فكان يستعين ببعضه على بعضه ويعلم أنها ترى الصبر أحسن ما فيه فيترك أقبح ما فيه جانباً ويصبر . فلما استوت فتنتها ولم يبق من باطلها ما تتعلل به أو تمتلق به علة ورآها قد أخذت زخرفها وازينت واهتزت وربت ، صار منها كحرف الجر لا يريد إلا أن يكون الجار والمجرور (متعلقين) ... وفرغ صبره واستيقن أن له آخرة وأن صاحبته لا تزال فى أول دلالها ، وكانت تحسب الدهر نائما عنها فاذا عينه قد انتبهت في أجفان هذا الشيخ فنظر اليها نظرة لا صواب فيها.

وباغتها الرجل فخيرها بين أمرين خيرهما شر : إما طريق الى صدره ، واما طريقة من غدره ، ومع الأولى الوصية بالمال ، ومع الأخرى أن تذهب في الحال .

وكذلك غلبها على أمرها وانتصر فى معركة كان لابد أن يخر فيها أحدهما صريعاً وقد استحال أن يكون المغلوب غيرها ، وإن عشرة تنتهض منها بعد حين خير من عشرة

لا تَستقيلها ، ورأت الظبية أن لا مَناص ، فوقعت في يد القنّاص .

(ياليـل)

الليل مُنسَدِل كأنه حجاب مضروب بين الحياة والأحياء ، مجتمع الظلمة كأنما هي ذُنوب النـاس في نهارهم جعلت الملائكة ترسلها الى السماء ، وتَغَشَّى الأرضَ معنًى من خشية الله فنفرت له دموع المساكين ، وأقبلت عليه أنفاسُ المحزونين ، وبرزت له فى آثار الظلم دعواتُ المظلومين ، وقد ارتفع الى الله صوت يتقطع زفرات ، ويتلهّب حسَرات ويسيل من الدمع قطَرات ؛ وكان صوتَ « لويز » وهي تزفر الزفرةَ تكاد تنشقُّ لها وترسل الأنَّة تكاد تُدْفَنُ فيها وما بها الغيظُ فتُمْسِكَه عنها ولا بها الحزنُ فتمسحَه بدمعها ولا بها الهمُّ ولا بها الغضب ولا أمرٌ مما يتواصَفُه أهلُ البلاء ويشُونه فى أحزانهم وانما ذلك شيءٌ إن يكن من الحياة فليس بالحياة وإن يكن من الموت فليس بالموت ولعله مُنازعة الحياة

والموت على قلبها .

مابكِ يالويز وقد بتِّ زوجَ الكونت الغني وهو عما قليل آخذٌ ما أمامه وتاركٌ ماوراءه ، وما بك أيتها المسكينة وقد كنت فقيرة بائسة لاتملكين قُوتَ يوم فقبضتِ على أعناق سبعين سنة تجمع المال وتكنزه ، وما بك عَمْرَكِ اللهَ وقد خرجتِ من الكوخ الى القصر وصعدت من العريش الى العرش وان كانت حواء قد طُردتْ من الجنة فقد طُردتِ أنت الى الجنة . . ؛ وفي الجنَّة قومٌ يقادون اليها بالسلاسل . . !

قالت المرأة وهي تُناجي ربها : إلٰهي ماذا قضيت عليَّ ؟ لقد وضعتَ الدنيا على راحتي وكأن مملكة آمالي مرسومة في كفي ، ولكن أي فرق بيني وبين تمثال من الذهب الخالص في منزل هذا الرجل . لقد رددتني من فقري وذلتي الى رجل رددته أسفلَ سافلين [1] فما يُريني الدنيا التي أعرف أنها الدنيا ولكنه يُريني الآخرة . . .

ياوَيْلَتَا إن لم يخجل الرجل من شيء أفلا يخجل من أنه لا يخجل ؟

(١) أى بلغ الغاية من الهرم أو التلف أو الضلال أو ما اليها

أبَى هذا الموت لشقائى إلا أن يتخذني زوجته وكنت خليقةً أن أجعله أسعد رجل فى الدنيا لو اتخذني ابنته . اللهم إنك رزقتني العافية فى كل جوارحي ولم تصبني إلا فى القلب .

ياويلتا ما أنا إلا لعبة فى يد هذا الطفل لا يلذه شيء أكثر من تحطيمها فى طُرُق لذته، وقد خلقت يارب من يحطم القلوب الصحيحة ولم تخلق من يستطيع أن يجبر القلوب المكسورة وأنه ليس فيما برأتَ وذرأتَ مخلوق أشد تعباً ممن يفتش فى قلبه عما ليس في قلبه وهل فى الممكنات أوفى اشباه الممكنات أن أجد فى ناحية من قلبي حب هذا الزوج ؟

لقد عرف الناس أن قلب المرأة كثير العَبَث وهذا الذي يسمونه دلالاً ويحبونه فى الحب انما هو شيء من عبثه، وأن هذا القلب انما خُلق ليحب ولذلك أُعطي قوة يخلق بها الحب من العدم . غير أنهم جهلوا فيما يجهلون من أسرار المرأة أن ذلك القلب انما جاءه العبث بالرجال من أنه لا يطيق أن يعبث به أحد من الرجال، ومتى وجد من هؤلاء من يريده بنادرته ويجعله من هزله مَعْرِض السُّخرية وموضع العَبَث

لم يكن فى الدنيا أحد أبغض الى المرأة منه وان كانت الدنيا كلها فى طلعته وان كان مخلوقا من رونق الشمس .

أليس النساء يُحببن حتى الكلاب ويرفهنها ويُغالين بها ويُنزلنها منزلة الولد فى الحب والانعطاف والتوجّع والتحزُّن ؛ فسبحانك اللهمَّ ان هذا القلب الذى يسع حب الكلب يضيق عن حب كثير من الرجال إذ يحبون المرأة حباً ليس فيه شيء من روحها -- حب الزينة أو الاستمتاع أو الخدمة — فكأنهم بذلك يبغضونها بغضاً فيه كل روحها .

ياويلتا أعجزتُ أن أجد فى هذه العاجلة نفساً أرى فيها نفسى وهل حرِّمَت عليَّ كلمةُ الحب فلا تفيض بها صدري ولا ينطاق بها لساني ، وهل خُلقتُ لؤلؤة لا كون فى عِقد من الحصى ووسمني الله بهذا الجمال ليعذبنى بهذا القبح ، وما عسى ان تردَّ عليَّ هذه النعمة ما دمت لا أجد لها سبيلاً الى قلبي وما دام هذا القلب لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس . . ؟

ضلَّ ضلالكم أيها الناس إذ تحسبون النعمة حقَّ النعمة فى الغنى وحده وتُمضُون الأمرَ على ما تخيلتم من ذلك ولا تدرون

أن الله ينتقم بالغنى أشدّ مما ينتقم بالفقر . فلو أني ابتُليتُ بالمصيبة وأنا امرأة خاملة لاحتملتُها وقلتُ خمولٌ عرفته فما يَبْلغُ بي ولا يزيدني بنفسي ولا بنفسه معرفةً ، ومن رحمة الله بالفقراء الخاملين أن في كل بلاء يعتريهم ما يعينهم على حمل بلاء أشد منه ؛ ولكن الضربة اليوم لا تصدع الصدَفة بل تسحق اللؤلؤة فاللهم لا قوة إلا بك .

وما أشبهني إذ قتل هواي هذا الكونت بزنجي من زنوج أمريكا اغتال سيّدا من البِيض فلم يجدوا له عذابا إلا أن يشدوا قتيله في وثاقِهِ وتركوه يَبْلَى تحت عينيه ويسيلُ جَوْفُهُ تحت أنفه ويَتَناثَرُ لحمه على صدره ، وهكذا يقتله القتيل وحده بالرُّعْب والجنون قِتْلةً لا وصف لها في الحياة . ولقد كنت بائسة يطير بها القضاء ويقع فلا تزال دَهْرَها تحت جناح مخفوض من رحمة الله أو فوق جَناحٍ منشور من الأمل في رحمته ، فلما وجدتُ الغنى واستَشْرَفتُ لسعادة شغلني الله بهمّ نفسي فشغلتني نفسي عن النعمة فلا تزيدني النعمةُ إلا همًّا . وقد كتب الله عليّ أن يقتلني بغضُ هذا الرجل

فوهبني الغنى من يده وحسِبَ الناسُ أن ذلك لكيما أستمتعَ به وعلم الله أن ذلك لكيما أتّصل بقاتلي . فاللهمّ قد أُحيطَ بي وليس ورائي منفسَحٌ فمن حيثما التفتُ لا أرى غير ما قضيت علي أن أرى ، وهذا امتحان أينما أتوجهْ في الحياة لا تقابلني الحياة إلا بمسئلة من مسائله المعضِلة .

إن كلمات القضاء لا تُقرأ لأنه لا ينزل بالناس إلا معانيها . على أن الكلمة الأزلية التي يكون معناها هذا الزواجَ وهذا الزوجَ لابد أن تكون جملة كاملة من غضب الله في السماء لا يقابلها إلا سيرةٌ كاملة من ازدراء الناس في الأرض .

قال الشيخ علي : ونفَرت دموعُ هذه المرأة تخفّف من يأسها وانه ليأس أكبر مما تحتملُ نفسها من الصبر لو أنه من وجه ذلك الزوج وحده . . . فكيف به ومع ذلك الوجه شبابُها الهالك وآمالُها الضائعة وغُصّةٌ من شماتةَ الناس وازدرائهم وبلاءٌ من نعمةٍ سابغةٍ ستنقلب فضيحةً وسُخْرية ؟ واهاً لكِ أيتها المسكينة . إن مصيبة الأغنياء لتكشف

نفسها فهم يحملونها ويحملون آراء الناس فيها ، وان المصيبة لتكون واحدة ولكنها ترتد اليهم من قلوب الشامتين من أعدائهم والمتربصين بن حسادهم والمتوجعين من سائر الناس وكأنها مصائبُ كثيرة .

والمرء لا يأخذ من الله بشرط ولا يعطيه الله على شرط ، فان كان فى الغنى تلك النعمةُ ففي الغنى هـذا الهمُّ وما رأيتُ أيسرَ اضطراباً من الماء الراكد قُذِفَ بحجر الا الغنيَّ الغافل قذف بمصيبة .

ويحكم أيها الأغنياء متى رأيتم ثمرةً لا تسقط أبداً من غصنها الأخضر ، وثمرةً تسقط من الغصن ثم تردُّ اليه فتعلقَ به وتنضج عليه فاعلموا يومئذ أن غناكم هذا نعيم لا رزيّة فيه ولا مصيبة لأن هذا الكون حينئذ يكون فوضى لا نظام له ولا قرار .

*
* *

وانصدعَ الفجر وأقبلت الحياة تتنفَّس من مَباسم الأزهار ، وتتغنَّى بألْسُن الأطيار ، والفتاةُ مُوجِسةٌ أن ترى طلعة شيخها كأن هذه الطلعة صبحٌ غير الصبح ، وودَّت

لو وقف الزمن فان لم يمكن فوقوفُ الأرض فان لم يمكن فوقوفُ قلب هذا الشيخ، وخُيِّل اليها أنها ستقترفُ بإثم منكرَ اذا هو بادرها قُبلةَ الصباح على مثل شفَق الشمس من خديها، وأنها لا تُرمَى بمَسَبَّة أوجعَ ولا أمضّ من قوله حبيبتي ... وانسلخَ الليلُ وطارت الأحلامُ وأفصحت الحقيقةُ واستيقظ الكون .

(على المائدة)

زَهَراتٌ ناضرة كأنما اختبأت فيها ابتسامة الفجر ، عاطرة كأنها رسالة اللقاء بعد الهجر ، بديعةُ التنميق تحسبها قصيدةً من شعر الألوان ، متفتحةٌ للحب وكأنها لكتاب الحب عنوان ، مُتلائمة مُصففه ، مُتلائمةٌ كالشَّفة على الشفه ، قائمةٌ في جلالها وحسنها ، كأنها في خِلقة الجمال آيه ، وكلُّ زهرة في لونها ، كأنها لدولة من دُوَل الحسن رايه ؛ وقد جلست اليها غادة فتانة كأنها في رقتها رُوح النسيم وفي نضرة شبابها روحُ الحديقه ، ولاحت الأزهارُ كأنما هي خيالاتٌ

جمالها وظهرت الغادةُ كأنها هي الحقيقة .

تلك هي «لويز» في صبيحة عُرسها على المائدة وقد أثبتت في كل زهرة لحظاً من لحاظها ولا يشك من رآها في تلك الحال وهي ترتقب ظهور زوجها أنها تنفَّسُ على هذه الأزهار شبابَها ونضرتَها وحسنَ مُلاءمتها وتحسدها على أن ليس فيها أعواد من الحطب ... تُفسد نظامها وتنكِّر بهجتها وتَغُضُّ من حسنها كما ابتليت هي بزوج من عُود ... (١) وإنها لكذلك إذا خفَقَ أقدامٌ وضوضاء وموكبٌ وشيٌّ كالموسيقى فالتفتت بجيدها حتى أبصرت الكونت داخلاً يتوكأ على خادمين وله نَغَم مختلف ... وآهاتٌ وأنَّاتٌ ، ومع هذا النغم سُعال كقرع الطبل . وكان (الروماتزم) قد دبَّ دبيبهُ في مفاصله تلك الليلة وبات يَفتِلُ في عروقه وأعصابه ، ووَعَكته الحمى واجتمعت اليه عِلَلُ الشيخوخة كلها تهنئه بالزفاف ... غير أنه لم ينس مع هذا البلاء كله أن عروسه

(١) في المثل (زوج من عود خير من قعود) وقد أصابت الكلمة حقها في هذا الموضع

يرتقبه على المائدة ، فحفزه الشوق وعاوده الصبي فطار اليها بجناحين من خادميه

ولما بلغ ظلها أفلتَ الخادمين ثم ارتمى عليها يقبلها رياءً ومُصانَعَةً ثم تمسَّك بها يستند اليها ثم انحطَّ الى يمينها ، وما كادت تناوله قدح اللبن يرتضعه ... حتى غمره الألم وهاج داؤه ففتح فاه وصدحت الموسيقي بنغم مختلف من آهات وأنّات ومع هذا النغم سُعال كقرع الطبل

ورأت «لويز» ذلك فرقصت أحشاؤها ..! فلم تملك المسكينة أن اقتلعت جسمها من الكرسي وانكفأت هاربة الى حجرتها وانطرحت في غمرة أخرى من الألم ، وبقيت هناك مُلقاةً يُدارُ بها وكانت لم تغتمض في ليلها فاصطلح على جسمها همُّ الليل والنهار

﴿ فصل خامس في السنة ﴾

وزالت هذه الغشيةُ عن الكونت بعد أيام كانت العروس فيها من رَوْح الأمل كالمختلِعة[1] اذا أخذت كتابَ

(١) هي التي تكره الرجل فتختلعه لتتزوج بغيره وهذه الكلمة في الاصل يراد بها الطلاق ببدل

طلاقها ، أو الأَمَةِ اذا وُعِدت بعَتاقِها ، وكان دعاؤها لله كلمات لا تَعْدوهنَّ ؛ تقول اللهم رُحْماكَ فأنت المصيبُ وأنا المصابة ، تلك قوتك وهذا ضعفي . وكانت اذا حمدت الله تَوارَدَتْ مع زوجها فيما يحمد الله به من حيث لا يشعر أحدهما أو كلاهما كأَن للحب الشديد والبغض الشديد لغةً واحدة فكان هو يقول الحمد لله إذ لا تراني ، وتقول هي الحمد لله إذ لا يراني .

وباغتها الرجل مُنْصَبًّا عليها فلو أن ميتاً طالعها من قبره ما كان أروعَ لها منه . قلبٌ حيواني يسكن من أضلاعه الخَرِبة في شقوق ، وظهرٌ كالقوس يحمل من روحه سهماً ليس له الا المرُوق ، وعروقٌ ناشرةٌ كأنها في جلده المتغضّن خُيوطٌ في خُروق ... ودخل عليها كما يدخل الشتاء بكلُوحه وبَرده ، على الروض النَّضر والبقيةِ الضعيفةِ من وَرْده ؛ ونظرت اليه فلم يقع من نفسها الا موقعَ الهموم على الهموم ، ولم يكن في عينها الا كما يكون الحلمُ في رأس المحموم

وجلس اليها الشيخ يتطفّل ويقترح ؛ وكانت لو يزتعرف أن

السنة أربعة فصول ، أما سنتها هذه فكانت فصولها بعد اقتراح هذا البغيض خمسة : الربيع والصيف والخريف والشتاء وشهر عسل الكونت ... فقد لجّ الرجل فى عناده وأبى الا أن يكون له ولها « شهر عسل » ، ومما زاده لجاجا وعتوّا أنه كان يخشى أن ينسلخ الشهر فقد ذهب نصفه في تجرّع « الدواء » ولم يبق « للعسل » الا ريثما يمحق القمر أياما معدودات . ثم انصرف من لدنها على أن ترصد للسفر أهبته وأن ينطلقا على جناح غراب [1]

واستقبلت العروس ليلتها وجعلت تقلب وجهها فى السماء وترنو الى النجوم بعينين قد ثبت فى إنسانيهما خيال ذلك الرجل كما يثبت خيال القاتل في عين المقتول [2] فلم تر فى هذه النجوم الا هَرَمَ الدهر وتحجّر الأيام وقد استيقنت أن نجمها طامس لا محالة [3] وكأنما خرج عن الفلك ، وضلّ

(١) أي باكرا جدا . (٢) اكتشفوا أن صورة القاتل تثبت فى انسان عين المقتول حتى ليمكن علاجها ونقلها بآلة التصوير .
(٣) أى ذاهب الضوء

فى ذلك الحَلك .

وماهي إلا خطرة الفكر حتى لاح فى مرآة نفسها خيالُ ذلك الشاب الذي اختلَبها أياماً بالهوى ، وكان لها منه الداء وكان له منها الدوا ، وأغواها فى عُرْف الناس ولكنه هو ماضلَّ وماغوَى . وكان هذا الشاب قرويًّا ظريف الهيئة مستوي القامة عريض الصدر تامَّ الخِلْقة وثيق التركيب قد ارتوت مفاصلُه واستحكم نَسْجُه وله مع ذلك خِلابة ، وفي لسانه دُعابه ، فما أطَلَّ حديثَه وأنداه ، وما أحلى خبَرَه اذا كان من الغَزَل مُبتداه.

وقد أحبَّ الفتاة أكثر مما أحبته ولكنها كانت غريرة لاتتبيَّن منزلةَ مابين الحب والاستسلام ، وبين مايعدُّه الرجل وعدا بالفعل ومايراه وعدا بالكلام ؛ ولم تعرف أن هذا الحب سلاحٌ ذو حدين فالمرأة تَقتُل به من ناحية الرجل فان غفلت مرة عن نفسها قُتِلت هي به أيضا من ناحيتها ، وأن حب الرجل حُبٌّ مجنون بطبيعته فاذا لم يكن حب المرأة عاقلا

انقلب كلاهما حيوانا طامسَ القلب [1] لا يُبالي ماجنى على نفسه . وأن الرجل يُقاد من رغبته مادامت أملاً فى قلبه فهو يَعِدُ المرأة ما شاءت وشاء لها الهوى حتى اذا انقطع هذا الزمام انقطع ما بين لفظ الوعد ومعناه فأخذ منها ما أخذ وترك فى يدها ما أعطى ، وما عسى أن يكون قد أعطاها إلا آمالاً ومواعيدَ وغُروراً من زُخْرُف القول ؟

وكذلك أمرُ الرجل والمرأة ؛ تحسب الفتاة اذا هي أحبَّتْ فاستأسرت لصاحبها أنها تبذل فى مَرضاته أعزَّ ما تملك وتُنَوِّلُه خير ما استُؤمِنَتْ عليه وتعطيه مالا تَستَعيض منه آخرَ الدهر وأن ذلك أحرى أن يُؤْدَمَ بينهما [2] وأن يكون ميثاقاً للحب غير منقوض . ويحسب الرجل أنها لم تُنِلْه إلا شيئاً هيِّناً قريب المَنالة ، فان كان سَرِيَّ الخُلُق نبيل النفس رثى لها مما صارت اليه وندم كما يندم على الإثم ولا يكون همه إلا أن يلتمس المخرج من أمرها فان طارحتْه حديثَ الزواج رأى أن من فرَّطت له حَرِيَّةٌ أن تُفرِّط فيه ،

(١) لا يعي شيئاً (٢) المراد المحبة والاتفاق

وبَهَتَها [١] بهذه الكلمة وسلِم . وان كان لئيم الطبع خسيس النفس شدَّ على رقِّها واتخذ من ضعفها قوةً ومن خوفها أمناً حتى اذا ملَّها تنكَّر لها ثم أنكرها فان استقضته ماوعد من زواجها رأى أن الزواج قد سبق أوانه ... فلم تَعُد تصلح له ولا يصلح لها . وكلا الرجلين سافل دنيء زَمِرُ المرُوءة [٢] وان قال الناس فيهما سَرِيٌّ ولئيم .

فالسحابة تَنْهَلُّ بمائها ، ثم تجتمع مرة أخرى فى سمائها والزهرة تُقْطَف لحسنها ، ثم تنبت مرة أخرى فى غصنها ، ولكن العذراء حين تُفرِّط فى خِدْرها ، وتضع نفسها دون قدرها ، لاتبرح شقيةً حتى تنزل فى قبرها .

وهكذا لا يزال الرجل في عُتُوِّه وظلمه كالساحل ولا تزال المرأة فى ضعفها ولينها كالموجة ، فلو أن ألف موجة عاتية يَصْدِمن الساحلَ لاستباحهُنَّ وما سَلَبْنَه مقدارَ شبرٍ من الرمل . وما اعتركَ رجل وامرأة فى خُلق العِفّة الا كانت هي الساقطة وحدها فى الاعتبار لأن العفة انما عُرفت

(١) أبهتها في وجهها (٢) قليل المروءة

بالمرأة من أصل الخلقة وإنما يتصاون الرجل تشبهاً وتقليداً فإن هو زل مرة وقارف الإثم فقد أخطأ في التقليد ولم يفقد شيئاً من طبيعته ، ولكن المرأة متى فعلت ذلك فقدت من نفسها وغيرت في تكوينها وأخطأت في الأصل الذي بُنيت عليه طبيعتها وقامت به شرائع الله ومرّ فيه نظام الأمم فلا جرم كان عقابها على الخطأ عقاباً نفسياً يجمع من شدة الطبيعة الى عنت الشرائع الى قسوة الاجتماع ، ولهذا كان شر عيوب المرأة ما عاب فضيلتها الخصيصة بها .

قال الشيخ علي : وانطلقت نفس «لويز» لمسرى خيال حبيبها وكانت تبغضه دون البغض إذ هو مُسعِدها ومُشقيها فصارت بعد زواجها تحبه فوق الحب اذ لا ترى لها مُسعداً غير ذكراه ولا تعرف على ظهر الأرض من أشقاها غير الكونت . ولما ذكرته انهملت دموعها فجعلت تبكي حتى انحلت سحائب همها ثم أشرقت كما تصحو السماء في أعقاب المطر فلو رآها أشعر الناس في ذلك الجمال المشرق الحزين الذي تورّد حتى التهب لوقف عندها وقفة العابد في المحراب يشعر بالقوة

الأزلية ولا يحسن أن يصفها. وأي شاعر تحيط نفسه بهذا الشقاء الذي رفعه جمالها الساحر من بين آلام الأرض وألحقه بذلك الألم المنفصل من السماء الذي لم تشهده الأرض الا مرة واحدة يوم جلست حوّاء تبكي بعد خروجها من الجنة؟

ويالله ما أروعَ الجمالَ حين يتألم ويحزن ويَحْضُر الجميلة همُّها. إنَّ مَثَل من يُحاول أن يصف دموعَ هذه الجميلة وحسراتها وصفاً ناطقاً يتنفّس به القلبُ كمَثل من يريد أن يخلق من سحر البيان زلزلةً تَرْجُفُ بها الأرض حين يبالغ في وصف الزلزلة، وما اللغة الا أداةٌ فكيف وَيْحك تستعمل هذه الأداة في صفة قوة تعجز عندها كل وسيلة حتى الشعور الذي أبدع اللغة؟

لقد جمعت المقاييسُ بين أقطار الأرض وطوَتْ ما بين الأرض والسماء وداخلَتْ ما بين أنجم السماء بعضها من بعض، ولكن أية أداة تعيّن لنا درجة الاحساس بين نفس عاشقة مُدْنَفَة تشهد آلامَ نفس معشوقة، وبين عيني شاعر غَزِل وثاب الخيال تنظران في عيني امرأة جميلة باكية،

وبين ألم جامد جاف يضطرب في نفس الرجل وألم سائل مندفق تضطرب فيه نفس المرأة : إن هذه الأنفس انما تشعر بمقدار ما فيها من الاحساس لا بمقدار ما في الحقيقة من مادة الشعور ، وكأي من رجل أبله متغفل يدور مع الآلام والأوجاع دوران الغبار في العاصفة فاذا رأيته توجعت له وداخلتك الرقة عليه وثارت نفسك من أجله ثورة السخط على هذا الاجتماع الانساني وتمر بالرجل ثم تنساه . ولكن هناك طفلة . طفلة صغيرة قريبة العهد بالغيب (١) قد ضلت بيت أبويها في المدينة المترامية فمشت ذليلة ضائعة يتحير الدمع في عينيها ، كما تحير الألفاظ بين شفتيها ، وقد ساورها الخوف ، وتوثبت نفسها فزعاً لهول ما هي فيه ، وجعلت عيناها تتوسلان الى الناس بالبكاء ، ولسانها يتلجلج بألفاظ مرتعدة كأنما ينتفض عليهن قلبها الصغير ، وهي في ذلك لا تبرح تمثل أبويها فتضطرب اضطراب الفرخ اذا سقط من وكره ولم ينتهض ، وترى أن المصيبة قد انحصرت فيها وحدها من دون الناس فتبكي بكاءا

(١) كناية عن صغر سنها وحداثة عهدها بالوجود

تكاد تنشق له ثم تعود الى التوسل بعينيها الدامعتين وبألفاظها المتلجلجة . فانظر وأنت أبو مثلها ما عسى أن ينزل بك من الحسرة ويتغشاك من الهم اذا رنت اليك هذه الطفلة من وراء دموعها تسألك أن تدلها على بيت أبويها الماثل فى رأسها الصغير وهي تحاول بذلة ومسكنة أن تنقله الى نفسك وتبنيه فيها بألفاظها واشاراتها الضعيفة لتهتدي أنت اليه ؟

فالمصيبة ليست مصيبة بمادتها ولكن بما يقابل هذه المادة من نفوسنا ، ومن ثم فهي لا تؤثر فينا بنفسها ولكن بالكيفية التي نقابلها بها .

قال الشيخ علي : ثم سكنت « لويز » هنيهة لذكرى أيامها الأولى وهي تعلم أن لا رجعى لها فقد استيقنت أن هذا الغنى ضرب بينها وبين الفقر حجاباً ولكنه رفع بينها وبين الشقاء حجاباً آخر كان ذلك الفقر وحده هو الذي يمنعها منه ، وكأن القدر لما اختط لها التعاسة رسم هذه الخطة بقلم من ذهب . واستشرفت نفسها لخاطر غريب ألم بها فأضحكها على مابها من الهم ، فقد أحضرت خيالها ذلك

الحبيبَ الأول في شبابه الغضّ وقوته الثائرة ونشاطه المهزوز وأرادته على حب امرأة في أرذل العُمُر وهو عمر (الكونت)؛ يلوح وجهها في العين كما تلوح القِفار، ويمتدُّ أنفها بين الوجنتين كأنه جُحْر في أحجار، ويضحك ثغرها الادْرَد[1] فلا تشك أنه في تلك الصحراء «غار»؛ وقد ثابَرَتْ عليها الأمراض، حتى أصبح جسمها بين يدي الموت كالخيط بين شِقَّي المِقْراض؛

ثم جعلت ذلك الحبيب يتزوج منها لمالها وغناها وقد أصابَ عندها ملءَ أطماعه ذَهَباً وفضة، ثم وصلت بين شعلة فؤاده الملتهب هوًى وشباباً وبين هذا الجسم الفاني الذي يُشبه حُطامَ اليَبيس[2]، ثم نظرت لترى ما يكون من أمره وأمرها ثم ما يكون من الحب حين لا يكون الا مُراغَمَةً فاذا الحُلُمُ قد انهال، واذا الوهمُ قد استحال، واذا الشاب لا يُحبُّ تلك المرأة ولا في الخَيال ... فَجَهَدتْ أن تذكر في تاريخ الناس من يكون قد امتُحِن بمثل هذه المصيبة

(١) الذى سقطت أسنانه

(٢) كالتبن ونحوه من يبيس النبات

وصبر لها فأبى عليها الواقع أن يُخرج لها مثالاً واحداً، فكدَّت ذهنها فى تصوُّر هذه الحال وتقليبها على وجوه مختلفة فلم تستقم لها صورة صحيحة، وثبَتَ عندها أن حب شاب قوي فى الثلاثين لعجوز هالكة سبعين هلكة[1] ... أمرٌ يكاد يكون فى استحالة الجمع كطرح السبعين من الثلاثين في حساب العدد. وعجبتْ أن يستأثر الرجل وحده بهذه الأَنَفَة ويلتمس لنفسه فى هذا الباب ما يُنكر على المرأة أن تستنكره كأن هذه المرأة عجماء لا تبالي من صاحبها الا العلَف، ولو انتهى بها الى التلَف، وكأن كل امرأة انما هي اسم، على جسم، فليس على الرجل الا أن يختار اسماً ثم يُثبته فى وثيقة الزواج بعد أن يُساوِم عليه، أو كأن المرأة بلغت من الجَفاء، وضعف التمييز بحيث لا تأبى أن تتخذ أعواد فِرشها، من أعواد نعشها، وأن تقيم لها قبرا فى البيت، وتنظر كل صباح في وجه مَيْت، وإلا فكم من فتاة كالقمر أخفاها نهارُ المَشيب، وكم من عروس للحب زُفَّتْ الى غير حبيب، وكم

(١) فى سنّ السبعين

من وجه صبيح ، يقبّله ثغر قبيح ، وكم من كَعاب ، سال عليها اللعاب . . . وكم من حُسن هو رمزُ الحياة قرَن به الموتُ رَمزَه ، وكم من قدٍ أهيفَ كالألِف لا يرى الا شيخاً أعجفَ كالهَمْزه . . .

وهنا انتبهت «لويز» الى زوجها المتهدِّم الذي هو همزةُ القَطْع والى تَصابيه المضحك وحماقته العمياء وحبه الأخرق فانتفضت من الغيظ وكاد بعضُها يحطم بعضاً وجعلت خواطرُها تَنْبِضُ في رأسها كلمح البرق وأخذت تلتمس الوسيلة لرد هذا البلاء عنها أو مدافعته ، بَيْدَ أنها كلما ابتدأت فكرا انتهى بها الى قولها : ما عسى أن أصنع ؟ هي لا تفكر الا فيما ينبغي أن تصنعه ولكن الفكر يُفضي بها الى هذا السؤال بعينه فكأنها من الهم والحَيْرة منعزلة عن نفسها وقد نفر منها فكرُها وقلبُها وحظُها جميعاً ولم يبق معها الا روحُها المعذبة ، وهي كذلك بينها وبين زوجها وبين القَدَر .

ولبثت زمناً لا تجد من رأيها الا قِطَعاً وأشلاء حتى لمحت من نافذة القصر مركبة تَدْرج في الطريق ورأت سوط

الحوذي يتلقى الأمرَ منه الى الجوادين فلا ينزل عليهما الا انطلقا مِلءَ العنان كأنما يحاولان الهرب منه ولا يعلمان انهما يهربان به ، فرثَتْ المسكينة للبهيمتين ثم كأنما حُشِرت لها كل مركبة على الأرض في صَعيد واحد فلم تذكر أنها رأت قط سائقا ليس في يده سوط ما دام بين يديه حيوان .

وظلَّت واجمةً عند هذا الخاطر هُنَيْهَةً لأنها ما برحت تتلقى من ضَرَبات القدَر وهي تعدو في الحياة عَدْواً فيه من السرعة بمقدار ما في هذه اللَّذعات من الألم . ثم قالت تُرى أي حيوان في مِسْلاَخ (١) هذا الهَرِم ؛ وما كذَّبَتْ أن قلبت الخاطر على وجهه الآخر فتناولت السوط واستوت على مركبة الأقدار ولم يبق أمام عينيها الا سبيلُ الحياة وظهرُ الكون ...

وكذلك فاءَتْ من غضبها الى رضاً أقبحَ من الغضب ورأت أن هذا الشيخ المأفونَ الذي يَتَطاوَع (٢) للصِّبى وقد جاوز السبعين وهَلكَ في الدهر ثم لا يستحي أن يجعلها مُثْلةً على

---

(١) أي جلد (٢) يتكلف حتى يستطيع

أعين الناس وأن يكون لها مُخْزِيةً ولا كالمخزيات جديرٌ به أن يجد منها كِفاءً ماوجدتْ منه وجديرٌ بها أن تُبدله من شهر العسل شهراً هو أحقُّ به وأهلُه وهو على ذلك أقرب الأشياء من العسل لأنه .. « شهر النحل » :

قال الشيخ علي : هكذا يُفسد الرجلُ المرأةَ وهو يدري أو لا يدري فهو يبتغيها مَتاعاً ويريدها مَلْهاة ثم لا يقدِّر فيها غير الطاعة لما ابتغى وأراد كأن الطينة الإلهية التي جُبِلَ منها الرجلُ شديداً متماسكاً ، بقيتْ منها بعده هِنَةٌ ضعيفة فتركتْ حتى رَكَّتْ وانسحقت ثم خُلقت منها المرأة ذليلةً طائعة . . :

وإن أقذر خلق الله ليكون معه الدرهم فاضلاً عن حاجته فلا يجد ما يمنعه أن يبتاع به الزهرةَ الناضرة ، ولكن العجيب من أمره أنه اذا احتازها لا يلويها بين أصابعه ولا يُدنيها من أنفه إلا بعيداً بعيداً وقليلاً قليلاً بل إنه ليستحي لقَذَره من طُهْرها ولِنَتْنِه من عطرها ، فلا يحملها حتى يتجمَّل لها ، ولا يظهر بها حتى يكون أهلَها ؛ وما أدري كيف أدبته

الطبيعة هذا الأدبَ مع روح الجمال ولا تؤدب مثل ذلك الهَرِم الأحمق مع الجمال نفسه ؛

ويَعْمَدُ الرجل متى أصاب مالاً الى الطيّبات من صُنُوف الطعام ومَلذّات الشراب فيَتَضلّع ويَتَمَلّأ وليس فى ذلك من حَرَج إذ هو ماله ينمو فى باطنه فان ربح أو خسر فانما « المُضاربة » في مَعِدته . . . ثم يعمد أقبح خلق الله وجهاً وأظلمهُم سُنّةً وأشأمُهم طلعةً بذلك المال نفسه الى أجمل النساء فيُرْخِي عليها أستارَ بيته ويُساهمها قبحَه وجمالها ، وانما هي فى رأيه بعضُ الطيّبات وصِنفٌ شهيّ من طعام القلب ؛ فتُرى فى أي جهة ينمو هذا المال الذي بذله وتندّى به فاني لا أرى له نمواً فى قلبه ولا فى قلب تلك الحسناء ؛ أما هو فما إن يزال يعرف منها البغض وأما هي فما إن تزال ترى فيه القبح ، وأحسب لو أنفقتَ ما فى خزائن الأرض كلها على التأليف بين الحسن المبغِض وبين القبح المحب ما ألَّفتَ ذاتَ بينهما ولا زدتَ كل واحد الا من طبعه (١) وكيف

---

(١) تشذ الطبيعة في هذا المعنى أحيانا فيكون من النساء من

يرى هذا الدَّميم أن مرآة بيته التى اشتراها وبذل فيها واختارها على عينه لا تُظْهره أبداً إلا دميماً وهو كلما بالغ فى رَوْنقها وصَقْلها بالغت هي فى إظهار قبحه ودَمامته، ثم يريد أن لا تراه امرأته الحسناء إلا جميلاً فاتناً ولا تكلمه إلا فى الحب ولا تقبله إلا قبلة الهوى كأنه هو الذي خلق لها عينين ولساناً وشفتين . . ؟ ولَعَمْرُ الله لو أن فى أضلاع هذه المرأة قلبَ رجل من صيارفة اليهود قد جُثِمَ على مَنْكِب الطريق وسرَّحَ الذمةَ والدين، والظنَّ واليقين، وجُنودَ إبليس أجمعين، في طلب الدِّرهم يأكله سُحْتاً، ويَنْحته من أيدي الفقراء نَحْتاً، لما رأته على ذلك المال وذلك القبح إلا كالخِرْقة فيها دينار؛ فهي هي لم تخرجها قيمة الذهب الغالية، عن كونها فى اليد والعين خرقةً باليه.

أيريد الرجل لسعادته امرأة لا نَفْسَ لها ولا قلب؛ لعله يحاول ذلك ولكن كيف تُسعده إذن؟ إني رأيت في

لا تعشق الا القبيح الخلقة ثم لا تهواه الا لقبحه وذلك واقع ولكنه نادر وله تعليل لا محل له في هذا الموضع

معاشرة الحزين للحزين شيئاً من الفرح يتنفس به الحزنُ على الحزن فليت شعرى أي مَهْنَأ "(١) أكثر لذةً وأحسن إمتاعاً من معاشرة اثنين كلاهما يهنأ الآخر ؟

أيها الهرِمُ الأحمق الذي يستبدُّ بالجميلة الفاتنة إنك تعبث بذَنَب السفينة فاذا انحرفت هنا وهنا زعمتَ أنها تضلُّ الطريق لسوء تركيبها . . . ألا فاعلم ويحك أنك لا تصلح أن تكون رُبّانَ هذه السفينة ، واذا كنت تستطيع أن ترفع شراعاً أو تحرّك مِجْدافاً فما أنتَ وهذه الباخرة ؟ ماذا تصنع ويلك في آلات هذا القارب الذي صنعته يد الله ليخوض لُجَجَ الحب في بحر الشباب الى ساحل السعادة وليس بينه وبين الهلاك إلا أن يرتطم فى ذلك البحر بصخرة الموت التي لا تكون أكثر ما تكون إلا من رأس رجل هَرِم .

عَسيتَ تقول انك غني مِلْءَ الأمل الواسع وإن هذه

---

(١) هو مايعبر عنه الناس بلفظ الهناء ولم يرد الهناء في منقول اللغة بهذا المعنى الذي يستعمل فيه ولكن المولدين أجروه فى أدبهم وفشت الكلمة بينهم فى النظم والنثر

الحسناء ستُفضي من طريق مالك الى طريق حبك لأن المال زعمتَ أوسعُ طرق الحياة وأطولُها وفيه منفذ الى كل طريق شئتَ أو شاء الهوى . فلعَمري إن هذا المال كما تزعم ولكن لا يذهبنَّ عنك أنك لا تعرف الا فاتحة الطريق الى هذه الحسناء وأن خطط الآمال ليست من « شوارع التنظيم » أو الطرق السلطانية التى يُفضي كل منهما الى جهة بعينها أو جهات لا يُخطئها من انطلق بسَبيلها . فقد تبدأ تلك الحسناء من طريق هذا الغنى الذي تفتحه لها ثم لا تلبث أن تنعطف الى مذهب من مذاهب قلبها ثم تأخذ من هناك في ناحية من نواحي مصائبك لأن سبيل حبها وسعادتها من تلك الناحية ثم تُفضي من كل ذلك الى طريق من الحياة اذا هي أبصرتك فيها رأتك وليس من ورائك للبغض مَذهب ورأت وجهك ثَمَّتَ كأنه رُقعةٌ مما تُكتب عليه أسماء الطرق وقد كُتب عليها « شارع المَقْبَرة » . . .

أنت أيها الأحمق استنقذتَ هذه الحسناء من الفقر ثم جعلتَ تُباعِد ما بينك وبينها فأخذتها خادمة وجعلتها سيدة

وبصرتها بما كانت تجهل من فنون الجمال وأساليب الهوى ثم جعلت غاية كل ذلك إمتاع جسمك الفاني ولذة قلبك الخرب فنسيت نفسك بادئ الرأي ولم تذكر الا الفتاة فاتخذتك صديقاً، ثم نسيت الفتاة آخرا ولم تذكر الا نفسك فاتخذتك عدواً. فلولا تركتها على جهلها وغرارتها ما دام العلم بالحب لا يكشف منك للحب الا عن خرافة ..؟

ويا عجباً من غرام الشيوخ بالفتيات: فان أكثر من أنت واجد من المحبين وأهل العشق متى أصابه الكبر وذكر حوادث حبه رأى فيها ما يسميه جهلاً وما يسميه حماقة وما يسميه غفلة وما يسميه خطيئة، كأن الهرم يجعل الأشياء نفسها هرمة إذ ينزع منها أوهام الشباب وغروره فلا تظهر من ثم الا حقائق مخلصة. فما عسى أن يرى الشيوخ فيما يسمونه غراماً. بل ما عسى أن يرى الحب في هؤلاء الشيوخ «المتطفلين» (١) الا ما يسمى حماقة وجهلا وغفلة وخطيئة: يحب الفتى الناشئ حباً طاهراً يستوجف قلبه (٢) فيقول

---

(١) من التطفل أو تكلف الطفولة (٢) يذهب به

أكثر الناس : أحبَّ قبل زمن الحب . ويعشق الرجلُ الهرمُ عشقاً فاسدا يستَوْقِدُ ضلوعَه فلا يرضى أن يقول مرة واحدة ولا أن يقول عنه أحد إنه أحب بعد زمن الحب ، مع أن الفتى رجلٌ يُبْنَى والهَرِمَ رجل يُهدَم . ولو لم يضرب الله على بصره لعلم مما تَشْرَعُ الطبيعة أن أحق الناس بالخيبة رجلان : رجلٌ وُجِد قبل زمنه فلا يُحسن أن ينفع أو ينتفع ، ورجل أتى بعد زمنه فلا يُحسن أن ينتفع أو ينفع .

متى كان الرجل حُقوقاً فقط وكانت المرأة واجباتٍ لا غير فقد خلا الرجل من العقل وخلَت المرأة من القلب وخلا الاثنان من هذا المعنى الروحي الذي يسمى الحب . فان لم يستطع ذلك العاشق الهرم ان يستردَّ لنفسه الصِّبى الذاهب حتى تحبه تلك الحسناء طائعةً فليسترجع لتاريخ الأرض وحشيتَه الأولى حتى تلوذ به تلك المرأة كارهة .

ويلٌ للانسان من هوى نفسه فلولا هذه الحماقة فيه لما وُجد على الأرض خطأ ، لأن كل انسان حين يخطئ فانما يريد حقيقةً من الحقائق غير أنه يجعل مركزها فى رأسه

ولا يعتبرها الا من هناك مع أن مركزها في العالم .

(شهر النحل)

قال الشيخ علي : كل خَطْب عَظُم مدة هان بعدها الا خَطْبَ المرأة فانه متى عظُم لا يزال يعظم ، وما رأيتُ في أصناف البلاء كالمرأة السَّلِيطة اذا هي استَكْلَبَتْ[1] فكأنما جعل الدهر الجائر أيامها خطاً من خطوط مداره ، واتخذ من دار زوجها متحفاً ثم أودعه تلك المجموعةَ من آثاره . . . ويارحمةً لهذا الزوج فهو كلما خرج من بيته خرج خزيانَ يتنقَّب ، وكلما انقلب اليه انقلب خائفاً يترقَّب ، ولا تزال تعرف في عينه نظرةً مغلوبةً وأخرى مسلوبة ، وفي قلبه مصيبةً مستقرةً وثانيةً مجلوبة ، وترى على وجهه سِمَةَ استِخذاء[2] كأنها مَسْحة استهزاء ، ولوحه ظلاً على فمه ، كأنه ظلُّ النَّخْوة الهاربة من دمه ؛ ولا يزال مع امرأته المكابره ، كأنها ذَنْبٌ وكأنه ندامه ، وقد جمعت عليه الدنيا والآخرةَ ، فكأنه من

(١) يقال استكلبت المرأة واستسعلت اذا أشبهت الكلاب والسعالى والمراد البذاءة والشر وسلاطة اللسان (٢) هو الذل والخضوع

خوفها في موت ومن لسانها في « قيامه » . . . !

وما في خلق الله أعظم من المرأة فهي طبيعة وحدها غير أنها الطبيعة الدقيقة الحس، وليس يدرك الرجل حقيقة نفسه قبل أن يخلطها بنفسه. فاذا رأيتها خاملة مغمورة، أو ساقطة مزجورة، أو ميتة في الأحياء مقبورة، فلا ترين أنها مغلوبة للرجل ولكنها مغلوبة لاحساسها، وقد وفر الله عليها من القوة ماشاء، ولكنه غمز منها موضعاً دقيقاً فخرجت بحيث تراها أقوى الأشيا، وترى هي نفسها كأن لا قوة فيها، وهذا سر من نظام الطبيعة فان أشجع الناس الذي لايخاف شيئاً يخاف أشياء كثيرة من نفسه. فلولا أن يد الله في إضعافها ماقامت للرجل معها قائمة.

وهذا الموضع الذي أسلمها ضعيفة مستخذية انما هو جهلها بتصريف احساسها، فليست القوة الا شيئاً طبيعياً في هذا الوجود كامنة ما كانت، وانما الشأن كله في العلم بطريقة استعمالها، ومامن رجل يداري المرأة نوعاً من المداراة فترضى عنه وجهاً من الرضى الا رآها في يده أضعف ماخلق الله

هينة لينة سمحة مطمئنة ان كانت دون الملائكة فهي فوق الناس ، إذ هو انما يستولي على إحساسها فيأمن أن تصرفه فى غير مرضاته ومحبته ومن ثم تصبح كأنها صورة من ارادته . فان جهل الرجل كيف يداريها وانقطعت الأسباب المختلفة بينه وبين رضاها ولم يكن أهلاً منها لما هي أهله منه استوقد إحساسها وبصرها كيف تناله ومن أين تأتيه فابتلي منها بفتنة ماتهدأ وقدتها ، فما السابح فى البحر اذا أراد أن يقيد الموجة العاتية بالحبال ، ولا المصروع اذا حاول أن يدفع بيده ما أفزعه من جن الخيال ، ولا الطفل يبتغي أن يمسك القمر فى الماء ، ولا المجنون يتطاول فيقتلع النجم من السماء ، بأقدر ممن تبغضه المرأة اذا زعم القدرة على إرغامها ، وتصريف زمامها ، ومن تمضغه المرأة اذا زعم القدرة على إسكاتها ، والسلامة من بركاتها ... ، ومن تحقره المرأة اذا زعم القدرة على ردها ، وارجاعها دون حدها ، ومن تصول عليه المرأة اذا ادعى القدرة على إسقاطها ، والقوة على التقاطها ، فليس يعجز الرجل فى سلاطة المرأة اذا

هي سُلِّطت عليه ما يكون من حدَّة جِنانها ، وشدة عِنانها وشِرَّة لسانها ، فكل هذه وأمثال هذه انما هي ضُروب مما تُحاول من إظهار عَظَمتها الطبيعية المغلوبة ومن أجل ذلك قلَّما كانت المرأة السَّليطة الاغالبة .

ولقد يَعجز الانسان أحياناً كثيرة أن يكون نفْسَه إذ لا تنقاد له الطريقةُ التي يغلب بها على الحوادث أو يجاريها أو يُنَبِّه لها الحَذَر ومن ثَمَّ يُنكر نفسه كأنها غيرُ التي يعرف من قبل ، ولكن المرأة متى ثارت لا تعجز أبداً أن تكون نفسَها وما نفسُها إلا أعظم ما في الخليقة من الخير والشر .

قال الشيخ علي : كذلك صارت « لويز » مع زوجها وانحازت اليها طبيعته الغالبة فكانت قويةً به وبنفسها وكان ضعيفاً بها وبنفسه . ألاَ وإن أخلاق المرء انما هي أعصابُ أعماله فانظر ماعسى أن يكون في البغض أشدُّ من أعمال امرأة أبغضت بعقلها وبقلبها ، ولحاضرها ومستقبلها وصارت حياتها كلها من الشر والسُّوء ، كأنها لعنة يصبُّها الله على رأس هذا الهَرِم ؛

وكذلك اندمج في إرادتها كما يندمج الثعلب في فروته الجميلة الناعمة . ترميه بالنظرة حين يتكلم فتقف الكلمة بين حلقه والوريد ، ويجيئها وقد أجمع النية أن يأمرها فلا تأخذه عينها حتى يسألها ما تأمره ، ويجهد أن تعلم أنه زوجها ثم ينقلب وهو يتمنى لو تعلم أنها زوجته ... ويوسع قلبه عزماً ثم يراها فيخشى أن تكون اطلعت على أن في قلبه شيئاً من العزم ؛ وهو لا يعلم بزعمه كيف أنكرته وكيف تغيرت عليه وكيف تنكرت له ولكنه يريد أن يسأل كل شيء عن ذلك إلا وجهه ... ذلك الوجه الذي جعله الحب أقبح ما عرف من دائه ، وأشد ما خاف من أعدائه ، وما أفضى اليها مرة وهو يحمله الأعرف أنه من ذنبه في حبها وأنه من عذرها في بغضه ، فيطرق إطراقة يتكلفها ويحسبها تشفع له عندها لأن فيها ذل الشيبة ، وألم الخيبة ، وشدة الهيبة ، ولكن وجهه يظهره وقتئذٍ مظهراً ليس في معنى السماجة أسمج منه إذ يكون كاللص الذي لا ينكر على ملأٍ من الناس أنه سارق وهو مع ذلك يحرص على أن لا يؤخذ منه ما تجشم في سرقته .

وقد عرفت المرأة انها لا تغمز منه الا مكاسر عظمه الواهن ولا تطأ منه الا كل مفصل مرضوض ولكنها عرفت كذلك أنه ظالم لنفسه إذ حمّلها ما ليس في طاقته ، وظالم لها اذا أرادها على ما ليس فى طاقتها فهو ظالم أشبه بمظلوم . وما مثله في حبها الا كمثل الفراشة لا ترجع دون المصباح الا أن تخالط نارَه فما تحتال من حيلة الا أحسّت منها حتفها وتلفها ، غير أنها لا تزال تنزع من ذلك الى ما ينبغي أن تنزع عنه وكلما تهافتت انحص جناحها من ناحية ، ومع هذا وذلك لا تسكن ما دامت فيها حركة تنبعث .

وما من شيء الا وقد جعل الله فيه النفعَ والضررَ فمن التمسه على حالة منهما لم تؤده الى الأخرى ، وما تُغني الانسانَ معرفةُ الاشياء على حقائقها الا اذا عرف مع ذلك فروقَ ما بينها وتبيّن الحدودَ الفاصلة بين الشيء والشيء الآخر وبين الحالة والحالة في الشيء الواحد . فقد يكون الافراطُ من الدواء ، داءً مع الداء ، وقد يجتمع من طعامين ، بلاء لا يكون من جوع يومين . والمرأة هي هي فى

حاجة الرجل اليها ولكن كل امرأة تكاد تكون جنساً بعينه في حاجتها الى الرجل فمن ههنا أحبت وأبغضت . ولو أن هذه المرأة مما تُنبِت الأرضُ وتَسقي السماء لقد كانت تصلح مع كل رجل كما تصلح لكل رجل ؛ ولكن لها قلباً ، وحِساً مع هذا القلب ، ونفساً مع هذا الحس ، ورقةً مع هذه النفس ، فهي ان لم تحب الرجل من هذه الجهات الاربع لا تكون قد أحبته ذلك الحبَّ الروحي العجيب الذي يوصَف بأنه حبُّ المرأة .

قال الشيخ علي : وقد رأت « لويز » أن زوجها خَرِبٌ من كل جهاته وأكبرُ ما فيه أنه كالأرض الفضاء اذا ضُرب عليها سُورٌ وجُعل في هذا السور بابٌ ووُضع على هذا الباب قُفْل . فما غناه العريضُ ولا ماله الكثير ولا اسمهُ في أهل الغنى الا كتلك الحدود المضروبة على ماوراءها من الفراغ والفضاء .

وكانت ترتاع لذلّه وترقّ لخضوعه وتودُّ لو استطاعت أن تراه غير من هو فتعرفه غيرَ ما عرفته وتجزيه غيرَ ما جزَته ولكنه لم يكن يحبها أبداً الا باديَ المَقْتَل ولا يريد مع ضعفه أن يَعدِل عن مَحزّها ، وما أماتت من نفسه نَزعةً الا

انبعثت فيها نزعة أخرى كأنه رأى فى غضبها جمالاً لم يره فى رضاها وأحس من سَوْرة شبابها وفَوْرة غيظها ما يعالج منه خمودَ الهرَم وبردَ الموت فى عظامه ، فاعتاد منها ماتجزيه ، واعتادت منه ما يُخزيه ، ومرّ على ذلك دهر أمات فيه الوفاء ، ومرض الحياء ، فاذا تاريخُ هذه المرأة كلُّه لعَنات ، واذا عرض ذلك الرجل كله طعَنات ... وأصبحت ملكةً عليه وأصبح معها كما قال ذلك الحكيم : من أراد مُصاحبةَ الملوك فليدخُل كالأعمى وليخرُجْ كالأخرس ... !

﴿ وبعدُ ﴾

فان آلام النَّزْع وان لم تكن هي الموتَ ولكنها أشدُّ منه حتى ان الموت ليكون راحةً منها ، وقد مدّ الله فى نزع الكونت مدًّا طويلا فكان يقظانَ العين نائمَ الروح وكأنه مقبور في جلده ، وكانت زوجُه لا تألوه موتاً فلا يراه أحد الا ظن أنه لِما به[1] ولكنه لا يموت لأن أيامه كانت بعض

---

(١) أى فى الموت

ما كُتب في الأزل من تاريخ هذه البائسة ، وقد حمله الله على الأمل والأملُ مطيةٌ دائبةٌ لا تكلُّ ولا تنقطع ولو ذهبت تقطعُ مسافة ما بين الضدين لتجمع أحدهما بالآخر ، فما يزال يحسب ان لزوجته فيئةً بعد شِرة الصبى وأن تقادُمَه في الهرم وتقدمها اليه سيُصلحان ما أفسد الدهرُ منهما جميعاً؛ وليس في الناس أحمقُ ممن يدفع نفسه الى ما يظن في حين تدفعه نفسُه الى ما يستيقن .

أما هي فرأت أنه لا سبيل الى انهزامها أو تراجُعها بعد ما أنزلت أخلاقها الى المعركة ... كأنها ماتت قبل أن تموت فليس يضرها أن تقع في هذه المعركة هالكةً وليس ينفعها ان تخرج منها حية ؛ وكل شيء تستدركُ منه الحيلةُ الا ما أفات المرأة من شرفها النسائي . فبسطت عنانها في يد الأقدار وانطلقت على أثرها صاغرة .

وقطع الفلكُ في دورته عشر سنوات حتى تفرّى الليلُ عن صبح لم يشهده الكونت (١) فترك لامرأته ما جمع وترك

---

(١) كناية عن موته

فيها ذلك الموتَ الحيَّ ... وتركها فى تلك الحياة شجرةً مَرْداءَ[1] ، غير أن اللذات لم تُبْقِ عليها بعده فقد لا تقتل الآلامُ اذا أسرفت على النفس ولكن اللذات لابد قاتلة ، وكأن الطبيعة تأبى على الانسان أن لا يلذَّ بالعيش الا حيث تكون لذته اختلاساً فانما رُكِّب على أن يَشُدَّه ما يُؤلمه ، ويبنيَ منه ما يحسبُ أنه يَهدِمه ، فان هو حَمَل نفسه على لذتها وأطلق لها ما بين هواه ورأيه فقد أراد لبنيته الضعيفة وَضْعاً ليس في هندسة الحياة فلا تترك فيه اللذاتُ الا أمراضا ، ولا تحمل منه الأرض الا أثقالا . ولو لم تكن هذه اللذةُ المُسْرِفة سبباً الى الموت لما رُكِّب فى غريزة الانسان كرهُ الموت من حب الاستمتاع بها .

* * *

وبِيعَ ذلك القصرُ وما ضمَّه ، وكان فيما يحويه بعضُ رُفُوف من الكتب يُباهي الأغنياءُ بتنسيقها ليظهر من

(١) لا ورق فيها

ألوان جلودها رسمٌ ليس في الحائط .. فاشتراها أديب تأدّى اليه خبرُ الكونت وامرأته فانه ليقرأ منها ذات يوم في كتاب يصف البأساءَ والضرّاءَ من هموم الحياة إذ ندرت ورقة كانت بين صُحُفه، فالتقطها فاذا فيها رُوحان تعتلجان (١) بين هذين السطرين :

الفقرُ خُلوٌّ من المال ، ولكنَّ أقبحَ الفقر خُلوٌّ من العافية .

« فكتور »

والغنى أن تملكَ من الدنيا ، ولكنَّ أحسنَ الغنى أن تهنأ في الدنيا .

« لويز »

(١) تصطرعان وتقتتلان

الفصل السابع

قال الشيخ علي : وإن في نفسي أشياء من كلمة بين الكلام قد ضلَّ بها الناس ضلالاً بعيدا ، لا أعرف كيف استُحْدِثَتْ ولا من أين انْصَبَّت على الدنيا وقد خرج الناس من أن يهتدوا فيها الى حقيقة مُخْلَصَة إذ لم تُوضَع فى لغاتهم موضعَ شرح وإبانة ولكن موضع غموض وإبهام .

ويا عجباً للانسان كيف اهتدى الى التعبير عن المعاني الالٰهية التي يكون المعنى الواحدُ منها تاريخاً طويلا لقَدَر من الأقدار المُستكِنَّة فى غيب الله من لَدُن يُقْضَى الى يوم يقعَ ، وكيف تُلْقى في نفس هذا الانسان معاني الغيب فيردُّها ألفاظاً يحمل منها السماءَ بأفلاكها على بضعة أحرف ؟

على أن أعجب ما فيه أن يُعبِّر عما تناله قوَّتُه بألفاظ صريحة خالصة لا لَبْس فيها ولا اختلاط ، فاذا انتهى الى ما يضعف عنده أو يعجز دونه أشار اليه بحروف مُبْهَمَة

لا يكون لها في نفسه من الدّلالة الغامضة أكثرُ مما يدلُّ المجهول على أنه مجهول. فالانسانُ متى أحسّ القوة رأيته كأنما يحاول أن يُسمِع السماء بطنين ألفاظه المكشوفة عن معانيها أنه موجود على الأرض، ويحاول أن يُظهر للأرض بصراحة هذه الألفاظ أن له إرادةً تعمل مع الأقدار في تسخير الطبيعة. ولكنه عند العجز والضعف وعند ما يتخيّل صفاتٍ من القوة الأزلية ولا يُحِسُّها تراه يرسل الكلمة الخفيفة التي تشير الى كبريائه بشيء من الصراحة اللغوية المحدودة والى ضعفه وعجزه بإبهامها المُطْلَق فما إن تزال في هذا الوجود اللغوي خاليةً من المعنى على وجه التعيين والنّص حتى يقع بها قدَرٌ من الأقدار فيكونَ هو معناها. وضعفُ الانسان لا حدّ له فلا حد لما يستعمل من الكلام المبهم الذي يحمل ما شئتَ ان يحمل، ولولا ذلك لما صحّ أن تكون الفَصاحةُ نفسُها وسيلةً من وسائل التّعمية في مُحاورة الخصوم.

قال الشيخ علي: أما الكلمة التي أشرتُ اليها فهي لشمول معناها الطبيعي وإبهامه كأنها لغة للنفس الانسانية أين وُجدت

ولكن ليس للانسان أن يفسرها بل هو يتعلل بها ويتعلق عليها ويعلم أنها كذا خُلِقَتْ . لأنه إن قدّر معناها قدّره على قياس لا يَبْرح يطوي هو من طَرَفه ليعرف ماذا يبلغ وما هي مسافته ، ويَمُدُّ القَدَر من طَرَفه الآخر ليُفسد عليه ما عرف .

فهي كلمة يستوي عندها خطأُ الانسان وصوابُه ولهذا يراها واقعةً في موضعها وفى غير موضعها ولا معنى لها عند هذا الانسان الا أنها اتجاه حركة القدَر ، وهي « الحظ » .

الحظ يا بني كلمة غامضة غموض النفس الانسانية يتعزى بها أهل الارض جميعاً ويُظهرون فيها إيمانهم الفطري الذي لابد منه للقلب ، فما دام هذا الكونُ على تركيبه العجيب وما دام هذا التركيب على غموضه المُعْجِز بحيث لا يمكن أن يُعرف بجملته ، وما دام فى هذا الإعجاز موضعُ حَيْرة للعقل فلا بد فى اللغات من ألفاظ تصوّر كل ذلك وتَصِفُهُ على تلك الوجوه العجيبة بحيث تكون اللفظة إقرارا من الانسان وان جَحَد وصورةً لإيمانه وان كَفَر . وهذه الكلمات من أوضاع الإلهام فلا تخلو منها لغة من اللغات وهي بعدُ

فى تفاوتها وظهورها كدرجات الإيمان من أدناها الى أعلاها، فمن لم يؤمن بالله وجد في لغته لفظاً للقدر وهو الإيمان بعمل الله ؛ فان كفر بالقدر اعترضته نفسه بكلمة الأمل وهو الإيمان برحمة الله فان جحد هذه اعترضته طبيعته الانسانية بكلمة الحظ وهو الايمان بقدرة الله . ولا أحسب أن فى الأرض رجلا يكفر بهذه الأربعة جميعاً .

ومن ههنا كان الكفر نفسه لا يخلو من إيمان وكان الكافر كأنه إنما يؤمن من أضعف موضع فى الكون ؛ وما أشبهَ الإيمانَ بجبل راسخ يحمل الناس كافةً غير أن المؤمن يصعد مرتقياً من جهة والكافر ينزل منحدراً من الجهة الأخرى .

والعجيب أن كلمة « الحظ » نفسها يضعف معناها ويقوى بعكس مايكون فى الانسان من قوة الايمان وضعفه . فالرجل المؤمن القويُّ فى إيمانه بالله فلّما يفهم من هذه الكلمة الا أضعفَ ماتريد النفسُ منها ، فهي تبعثه على تذكُّر قضاء الله والاستكانة لقدره والتعزي عما فات بما لا يزال فى الغيب ، ولكنك واجدٌ ضُعَفاءَ الايمان لا يفهمون منها الا القوةَ

المسخّرة لحوادث الدنيا ولا يريدون بها إلاّ تسخيرَ هذه القوة فى منافعهم ، ومن ثَمَّ تَهيجُ الكلمة فى أنفسهم من معاني السخط والارتماض أكثرَ مما تبعث فى نفوس المؤمنين من معاني التسليم والاستكانة ؛ وهذا عجيبٌ من طباع الناس لولا السببُ الذي كشفته لك .

وما أراك تُحْسِن معرفة هذا السبب مالم تعرف حقيقةَ ما أُريد بكلمة « الايمان » فلست أريد بها ذلك المعنى الذي يتعاون على تمثيله البنّاءُ والنجّار والحدّاد وغيرهم من أهل الصناعات حين يَشِيدون المساجدَ والبِيَعَ والصوامعَ ونحوها من أمكنة العبادة ، فإنْ هي إلاّ بعضُ مظاهر الدين الاجتماعية لا غير ، ولا يمكن أن يُحْصَر الضميرُ الانساني بين حائطين . وانما الايمان هو ذلك المعنى الذي يُلقِي على روحك السَّكينةَ لأنها متصلة بالله وفي ضميرك المحبةَ لأنه متصل بالناس ، وهو ذلك المعنى الذي يُعلمك ما أنتَ ممن حولك وما حياتُك مما وراءها ، وهو ذلك الاعتقادُ الكبير الذي تصغر عنده الحياةُ بما فيها من الخير والشر

وتهون بما فيها من النفع والضر لأنه قائم على الفكر الذي هو بقية ما نفخ الله من روحه في الانسان الأول،[1] فلا يضعف أبداً مادام في الكون قوة ولا يفتقر أبداً مادامت الطبيعة غنية بجمالها ولا يسقط أبداً مادامت السماء قائمة ولا يموت أبداً مادامت الحياة باقية، ومتى خضعت له استحال عليك أن تذل لصغائر الحياة لأنه هو لا يذل، ومن مظاهره تلك العظمة التي تكون في الأبطال فيستهينون بالحياة إذ هم أهل الموت، وفي العظماء فيتنزهون عن الدنايا إذ هم أهل الأخلاق، وفي الحكماء فيزهدون في حطام الدنيا إذ هم أهل النفوس.

ومن ثم كان الايمان الصحيح حرية صحيحة لأنه يعصم من ضروب الذل كلها، وكان منفعة خالصة لأنه الحد القائم بين النفس وشهواتها، وكان عزاء نافعا لأنه العقل السماوي الذي يلهم الانسان حكمة كل مصيبة أو يلهمه الثقة بالحكمة التي

(١) يشير الى قوله تعالى في خلق آدم عليه السلام (فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين)

يجهلها ، ولو أن للفضيلة عبادةً لكان لها من أخلاق كل رجل صحيح الايمانِ مسجدٌ تعبُد اللهَ فيه .

ولا يصح إيمانُ المرء حتى يتبيَّن له طريقاً الى ربه فيرى كأن قطعةً من السماء في باطنه تضيء له الحياة ، ومتى عرف هذه الطريق وامتدَّ بها ضميرُه الى حيث يتصل بجلال الله فمن هذه الطريق نفسها يَردُّ مصائبه الى الغيب كما جاءت من الغيب لأن للقدَر طريقين : فواحدة يندفع منها وهذه لا تُعرف الا بعد أن تقع الواقعةُ فتدلَّ عليها بنفسها ، والأخرى هي التي ينصرف اليها القدرُ في حركة الدهر وهذه لا يُوفَّق الى معرفتها غير السُّعداء ، ومَن كَتَب الله لهم أن يكونوا مظهرَ حكمته أو مظهرَ حمده ؛ فقومٌ يجدونها في إيمانهم الوَثيق وآخرون يُصيبونها في حكمتهم البالغة ، والمؤمن انما هو صورة قلبية من الرجل الحكيم ، والحكيمُ انما هو صورة عقلية من الرجل المؤمن . فاذا نزلتْ بأحدهما المصيبة وبلغت منه ما لا يبلغ الصبرُ فتح لها طريقَ السماء من باطنه فيبصرها كأنها مُدْبرة ، والمصيبة متى وُجدتْ

كالحياة متى وُلِدت لا محلّ للعقل أبداً في أولها ، فان هي ذهبت مُدْبِرةً اعترضها المرء على عينه فتنكشف له عن معناها فيتبيّن حكمةَ الله منها ويرى حينئذ كيف تُنقِّح يدُ الله في تاريخه .

وما أرى المصائب في نظام الكون الا حركاتٍ ظاهرةً تسيرها نِعَمٌ مجهولة لا تزال من وراء الغيب ، وكثيراً ما يكون من هذه المصائب ما ينبّه الله به الناسَ من غفلاتهم حتى لا يقعوا في أشدَّ منها اذا تُرِكوا لما هم فيه . فليست النازلة هي المصيبة ولكن المصيبة من جهلنا وضعفنا ، ألم تر الى كل نعمة مع الجهل والضعف كيف تَحْمُق (١) وتضعف حتى لا تكون مع صاحبها الا قريباً مما تكون المصيبة مع صاحبها ؟

قال الشيخ علي : والحقيقة يابنيَّ ان من لم يكن كُفُؤاً لما يناله هلك بما يناله ، فالحظُّ توفيق والتوفيق أن لا يكون لك إلا ما تصلُحُ له فأنت بذلك مطمئن ومن ثمرة الاطمئنان الرضا ومن غاية الرضا أن تستَمْتِعْ بما أنت فيه ؛ فأيّما رجل أصابَ فاطمأن فرضيَ فاستمتعَ فهذا هو ذو الحظ وان كان

(١) بمعنى تكسد من قولهم حمقت السوق بضم الميم أى كسدت

عند غيره لم يُصِبْ الا قليلاً ولم يطمئنّ الا من ضعف ولم يَرْضَ الا من عجز ولم يستمتع الا بأهون المَتاع ، فان كل امرئ يريد لنفسه لا لسواه وان أول التوفيق أن تريد ما يُصلِحك وأول الخِذْلان أن تريد مالا يَصْلح لك ، وما الطمعُ إلاّ فقرٌ حاضرٌ ولو كان طمعَ الغِنى .

وإن هذه النفوس لَتَبْلَى من طول ما يلبسها قَدَرٌ ويخلعها قَدَر ، فلقد رأيتُ غير الموفَّق حين يجُور في إرادته ويضلُّ في مَسْعاه ويلتمس من الغيب ما يُقَدِّر لنفسه دون ما قُدِّرَت له نفسُه ، لا يبرحُ يكدُّ ويسعى وكلما لَبِسَ حالةً من دنياه فاضت عليه فخلعها أو ضاقت عنه فخلعته ، ولا يزال ذلك من دأبه ودأب القَدَر حتى يَهِنَ ويضعفَ ويصيرَ الى البلى في نشاطه وحزمه وفي طِماحه ورغبته ، وقد أنفق من حياته مالا يُرَدُّ في ابتغاء مالا يُدْرَك ، وهذا كله هلاكٌ بطيء يأتي على العمر ، وما العمر بمقدار الزمن الذي تعيش فيه ولكنه مقدارُ ماتوفَّق من عيشك .

وهل سمعتَ برجل كان يحفر قبره منذ عقَلَ معنى الموت

وقد نذر أن لا يحولَ عنه ثم لم يزل يُوسعُ الأرضَ من عمله ويفسحُ في جوانب هذا القبر ، وعمّر طويلاً وثبرَ على ذلك دهره حتى أصبح قبره يأكل القبورَ أكلاً ، (١) ثم أدركه الموتُ فانطرح فيه رمّةً باليةً فاذا هو لا يملأ من جوفه عملَ يوم واحد مما كان يعمل ، وبقيت الحفرة كأنها فمٌ مفتوح تصيح منه الأبديةُ : أين الميت العظيم الذي أعدّ كل هذا لجيفته .. وما بالُ هذا الساعد وما بالُ هذا المَنكِب وفيم كان ذلك العملُ وما هذا النبوغُ الميت الذي ضاعت فيه الحياة ولم يَعظمْ به الموت ؟ إنك إن لا تكن سمعتَ بهذا الرجل فلقد رأيتَ كثيراً من مثله يعملون للحياة عملَ ذلك الأحمق بعينه للموت ، فهو لم يمت بمقدار ما أعدّ لنفسه وهم لا يعيشون بمقدار ما جمعوا لأنفسهم ، ومنهم من أنفق العمر في أكثر من حاجته ومنهم من أضاعه في غير حاجته والعمرُ لا يُستخلَف ، وكلا الفريقين طَرَفٌ من قياس واحد في الخذلان وان كان أحدهما يبتدئ من عكس الجهة

(١) كناية عن السعة كأن القبور في جوفه

التي يبتدئ منها الآخر .

لايوجد على الأرض من يملك شيئاً في الأرض غيرَ محدود ولكن مامن أحد يملك طمعاً محدودا فى نفسه ، ومن هنا كثر مايسميه العامة « سوءَ الحظ » وانما هو سوءُ التوفيق

أما حسنُ الحظ فما أحسب الناس يعرفون ماهو ؛ وما أراد إلا رغبة مجنونة لا يُقِرُّها العقل ولا يستقيم بها نظامُ الدنيا ، وانما عَرَفَ الناس في كل وجه من وجوه الحياة كيف تكون الخيبة وكيف يمرض الأملُ وكيف يَهلك الطمعُ وسمَّوا ذلك « سوء الحظ » فحسبوا أن لهذه الأحوال ضداً وجعل كل واحد يتمنى لنفسه هذا الضد ويصفه ويسميه « حسن الحظ » لأنه زعمَ لاسوء فيه ؛ كالذي يسمع بالموت فيحسب أنه يعرف ماهو الموت ؛ والحقيقة أنه لايعرف منه شيئا وانما عرف الحياةَ الهالكة .

يأبَى كل أحمق إلا أن يختط لله خِطَّة يبني عليها مستقبله فكأنما يريد أن تمشي يد الله في التقدير على أجزاء الصورة التي في خياله ..! ولو جمع الله أبنيةَ الأمانيِّ من أوهام الناس ومثَّلها

وكشف عنها الغطاءَ فأبصرناها لرأينا ثَمَّ « مدينةَ المستقبَل » التي لا يملك أفخمَ قصورها إلا الصعاليك ... أما أنا فلا أرى كلمة « الحظ » فيما نأمله وفيما نتعلل به إلا لحناً من الألحان الطبيعية التي خُلقت في أفواهنا لنتغنى بها تحت الأحمال الثقيلة من مصائب الدنيا وأطماع النفس كي تجمَّ الطباع وتنشط للسير بأحمالها ، فما الانسانُ إلا دابّة للحمل وعليه أن يحمل من معاني المادة التي يعيش فيها أو يعيش بها ، والزمنُ نفسه بحكمته وعلومه وحوادثه انما يعلمنا كيف نحتمل الأسْواء والهمومَ أكثر مما يعلمنا كيف نتّقيها .

قال الشيخ علي : ولكن يا بنيَّ ماهذا الذي يرتفع بالخامل ويتقدم بالعاجز ، ويجعل النَّكِرة معرفةً والمعرفةَ نكِرة ، ويضربُ وجهَ الحق عن مستحقه ويُفلِجُ(١) الضعيفَ وما يَسمو به أمل ويَحرمُ المُجِدَّ ومايشك في الظفَر ، ويخالف في سبيل الأقدار بين نصيب ونصيب ، ويقطع في محاولة الامور بين الأسباب والغايات ، ويُبعد المنفعة مما به تمامُها فاذا هي

---

(١) أي يظفره بحاجته

مَضَرَّة ومَفْسدة ؟ لعلك تقول : إن كل هذا يجتمع في كلمتين هما « السعدُ والنحس » وهما تنطويان في لفظة واحدة وهي « الحظ » . ألا فاعلم ان هذا من وضع الانسان لا من وضع القَدَر وهي مذاهبُ لغوية تمرُّ بين أنفسنا وبين أفهامنا ؛ وقد جئتني بجُمَل تنطوي في كلمتين ، وكلمتين تجتمعان في لفظة ، وأنا آتيك بجُمل في كلمات فى صوت واحد ؛ فما هي صرخة الألم مثلا ؟ أليست قطعةً طويلةً من كلام النفس يجمعها الحِسُّ الثائر المتألم وينتفض فيها فلا تكون الاصواتا واحدا . وانظر أين هذا الصوت مما يشرحه لك الطبيب من أسباب ذلك الألم وعَوارضه فى كلام طويل وعبارة سابغة لا يتألم منها حرف مع أن أحدهما إنما يفسِّر الآخر كما ترى .

وأنا فلا بد أن أعلمك من أين خرجت هذه الأسماء . لقد خرجت من تاريخ النوع الانساني كله ، فان هذا الحيوان العاقل كان يشعر بمعاني الأشياء قبل أن يضع ألفاظها ، وكان السخط والغيظ والحسد والمنافسة ونحوها من غرائزه الطبيعية إذ هي المعاني التي بثَّها الخالق فى نفسه لتُنشئ فى

الأرض تاريخ هذه النفس . فكان اذا تعادى رجلان أو فئتان فبغى بعضهما على بعض أحس الغالب منهما أن قوى الطبيعة معه وأيقن المغلوب أن قوى الطبيعة عليه لأن الانسان لم يكن عرف نفسه بعدُ وكان هو وحده يمثل فى هذه الطبيعة المخيفة الرائعة فكرةَ الخوف العاقلة .

فهذه الثقةُ فى القوى الطبيعية المجهولة من الانسان وهذا الشك فيها والخوفُ منها هما الأصل فى تاريخ لفظتي السعد والنحس .

ولقد كانت الأمم القديمة كلها تتوسل الى الغيب المجهول بوسائل غريبة من الطلاسم والتمائم والتعاويذ ونحوها من الأعمال والعادات المأثورة في تاريخ كل أمة ، لأن ذلك المعنى بعينه قد ارتقى مع العقل واشتد مع الانسان فخرج من مخافة الطبيعة الى الرغبة في إخافتها حتى تنزل على حكم الانسان فى اجتلاب الخير ودفع الشر ، والزمن لا يأتى على الغرائز فيمحوها ولكنه يحوّل منها شيئاً ويهذّب منها شيئاً ، ومن هنا كانت كلمة « الحظ » فاشيةً فى المتمدنين لأنها آخر صورة مهذّبة

من تلك الغريزة الأولى .

أمَّا إن فى حوادث القدَر أشياءَ لا نَفهم وجهَ الحكمة فيها وهي الحظوظ والأقسامُ فذلك صحيح فى نفسه بمقدار ما هو خطأ فى أنفسنا ، والشذوذُ فيما يقع من حوادث الدنيا وفيما نشهد من تصاريف القدَر أمرٌ معلوم ، ولكن لماذا لا يكون قاعدةً لأشياءَ نجهلها ما دمنا نجهل الغيبَ كله ولا نعرف منه شيئاً ؟

ما رأينا قطُّ فى تركيب هذا الكون المعجز شيئاً خارجا عن موضعه ولا شيئاً زائداً فى موضعه فلِمَ نظن مثل ذلك فى الجهة التي تتصل بنا من حكمة الله ، جهة السعد والنحس ؟

يابنيَّ انما قَربت النعمةُ من فلان لأن القدَر يسوقها اليه ، وانما بعدت النعمة عن فلان لأن القدَر يسوقها الى غيره ، واذا أراد الله أمراً هيَّأ أسبابَه فربما سعى المرء بكل سبب فلم يُفلح ثم يقع له سببٌ لم يَمْتَهِدْ له وسيلةً قطُّ فاذا هو عند بُغيته واذا هو قد ملأ يديه مما كان قد يَئِس منه فلا يكون عجَبُه كيف خابَ فى الأولى بأشدَّ من عجبه كيف

نجح فى الثانية . وهذا هو مظهر إرادة الله فان صادف من بعض النفوس الضعيفة حسدا أو غيظا أو سخطا أو منافسة أو نحو ذلك مما يكون مظهراً لضعف الإيمان فى النفس تحوَّل المعنى الى لفظ يحمل كل هذه العواطف الوحشية فلبس الكلمةَ التي تَسلبُ الإنسانَ قوةَ نفسه وتكاد فى إبهامها تسلب الأقدارَ قوةَ الحكمة أيضاً وهي كلمة «الحظ» . ألا ترى أن أحدا من الناس لا يتعلَّل بهذه الكلمة ولا يحتجُّ بها ولا يَسكُن اليها الا من غيظ أو سخط أو حسد أو عجز أو ماهو بسبيل من هذه المعاني ؟

قال الشيخ علي : فلم يبق من معنى « الحظ » إلا أن يقال : وَلِمَ وُفِّق فلان ولم خُذِل الآخرُ وماهو بدونه وربما كان أحقَّ منه وربما كانت المنفعةُ به أكثر والنعمة عليه أظهر ، وَلِمَ كان ذلك سعيداً وبأي شيء صار سعيداً ، وهذا شقياً وبأي شيء عاد شقيا ؟ الى نَسَق طويل من هذه المسائل التي لا تجيب عليها السَّماءُ ولا تكُفُّ عنها الأرضُ أبداً .

ولكن ياهذا لِمَ تُخفي أنت وحْشيَّتَك المهذَّبة وتكاتم

الغيظَ والسخط والحسدَ ثم تحتال على أن تخرج هذه المعاني الخشنة في ألفاظ لينة وأن تعترضَ على القدرَ في أُسلوب من التسليم والرضا وتطرحَ بينك وبين الله لفظةً ان لم يكن معناها مخاصمةَ القضاء فمحاسبته والا فمَعْتبةً عليه .

وهل تعلم أنت ماهي شعوبُ الحوادث وفنونُها ، وما الذي سيفعله المجدودُ (١) حين تُقبل عليه الدنيا والمحرومُ حين تُدبر عنه النعمة ، وماذا يكون مما يترتّب على الحرمان أو ينشأ عن الحظ ، وهل تدري لِمَ أساء بعضُ الأغنياء حَملَ الغنى دون البعض وَلِمَ أحسن بعض الفقراء حملَ الفاقة دون البعض ، وَلِمَ ابتُليتْ طائفةٌ بالتمنّي وابتُليت غيرها بالضجر مما تتمناه الأولى وحُبِّبَ الى تلك ما بُغِّضَ الى هذه ، وَلِمَ انتُزعت نعمةٌ بعد أن استمكنَ حبلُها ، وأقبلت الأخرى بعد أن استيأسَ أهلها ؟ أليس من كل هذا يتهيأُ البقاء للحياة الانسانية في نظام لايخفُّ على نوع الانسان فيهمله ، ولايجور عليه فيستأصله ؟

---

(١) ذو الحظ

وهل الناس إلا خطوط في لوح الغيب، يستقيم ما يستقيم منها ويعوج ما يعوج لأن كل ذلك مما لابد منه في جملة الوضع وإحكامه ؛ فاذا أردت أن تسأل لِمَ استقام هذا ولِمَ اعوجّ ذاك ثم ما قصر وطال ثم مادق وجلّ ثم ما علا وسفل ثم ما انفرد واختلط فسل لِمَ خُلقت الدنيا ولِمَ خُلق الناس وسل الخالق ولا تسل الشيخ علي . . .

كل ذلك يا بنيّ حكمة وكل ذلك انتخاب وقد ظفر العلماء في حركات النظام بما سموه « الانتخاب الطبيعي » وعرفوا أن ذلك سرٌّ من أسرار التقدم والارتقاء ، فاعلم أن ما نحن فيه من معنى « الحظ » انما هو « انتخاب إلهي » وذلك سرٌّ من أسرار الحياة والبقاء ؛ وما من حركة لي ولك ولكل انسان إلا هي تمسُّ قطعة من تاريخ الحياة وطائفةً من الأحياء ، فليس من حيٍّ هو لنفسه وحدها وليس من حقيقة هي لنفس واحدة ، وان عرف الانسان بعض الحقيقة من نفسه فأكثر الحقيقة لا يعرفه إلا من سواه ، ومن أجل ذلك يقضي نظامُ الحياة بما نسميه « الحظ » وان كنا لا نفهمه

كما يقضي به نظام الحياة ؛ وانما قوة الحركة وضعفها على حسب ما يراد بها فى الدفع والجذب. فكن واثقاً بالله مؤمناً بالقدر خيره وشره فالثقة وحدها حظ عظيم ، والله تعالى يُصيب الناس بنيَّاتهم إذ هي حقائقهم الصريحة وإذ هو وحده المطَّلع عليها فهو يوفِّق السُّعداء للنيَّة الحسنة ثم يُسعدهم بهذه النية على الوجه الذي يعلم أنه من سعادتهم فان لم يكن لهم الحظُّ الذي يريدونه فلهم الحظ الذي يُلائمهم، وربما كان زمامُ العافية بيد البلاء، وكانت النعمة فى عاقبة المصيبة وكان الانسان عابساً من طلعة القدَر والقدَر يضحك له .

واذا لم يكن للأقدار نواميسُ أرضية تجري عليها وتقع بحَسَبها فان أقرب ما يصحُّ أن يُعَدَّ من نواميسها فيما أرى هو نيَّاتُ الناس .

وما النيَّة إلا خُلاصة الفكر والضمير ونتاجُ ما بينهما فلا تَنْطوِ على ما يسوءك أن تنِمَّ به ألسنةُ الغيب وانما الحوادثُ من هذه الألسنة ، ولا تعقُدْ هَوَى ضميرك على ما تحسبه أملاً من حيث لا يكون إلا حسداً للناس ولا يُعْقِب إلا نكداً

لنفسك، وما تظنه عزماً وهو طمعٌ فى الله ومخادعة للقدر.

وَحَسْبُكَ من المتاجرة مع السماء بضاعةٌ صالحةٌ من الايمان الذي لا غِشَّ فيه، ومن المتاجرة مع الأرض بضاعة طيبة من النيَّة التي لا دَنَسَ فيها، فإن ربحك من هذه البضاعة التي لا تكسد فى أسواق السماء والأرض أن يُلقِيَ الله عليك محبةً منه وتأييدا وسَكِينَة، وان رأى الناس أنك خسرت شيئاً من الغنى أو الجاه أو مَتاع الدُّنيا فانما تعلم أنتَ يقيناً أنك لم تخسر إلا الهمَّ والشقاءَ والتعبَ بالدُّنيا وأهلِها.

ويومئذ يكون لك من حسن الإيمان وحُسن النيَّة وحسن الأخلاق ما تعرف منه كيف يكون « حُسن الحظ »

الفصل الثامن

« الحرب »

رُقعةٌ من الأرض كأن فيها شيئاً من الطينة التي خُلِق منها الانسان ، فهي تُمطَرُ من دِمائِه ، وكأنما عرفته في سماء الله فلا يكادُ يَنزل بها الجَيْشان ، حتى تُعيد أرواحَ أكثرهم الى سمائه ، ينجذبُ اليها الجندي لأن فيها تُرابَه بل لأن فيه من ترابها ، وينطرح عليها لأن اقترابَ مَنِيَّته في اقترابها ، ولا تزالُ تصرعُهُ وكأنها من شوقها تضمُّه ، وتُلقيه على صدرها ميّتاً أو جريحاً كأنها تُعلِمه بذلك أن الأرضَ أمّه . وهي مَزْرَعةُ الموت نباتُها الرؤوس ، فمنها قائمٌ وحَصيد ، وثمراتُها النفوس ، فمنها داني القِطاف ومنها بَعيد ، وقد رواها بالدم الحيّ فنبتَ فيها العظمُ وأثمر فيها الحديد .

بل هي ساحةُ الحرب ترفع عليها القوةُ رايةً وتُنزل راية ، ويُحشَر الى مسرحها الناسُ ليُمثّل لهم الموتُ كل يوم

رِوايه ، وقد اضطربتْ فيها الآجالُ فكأنها أمواجٌ في بحر القدَر زاخِره ، وتناثَر فيها الرجالُ فكأنهم عِظامٌ في بعض المقابر ناخِرَه ، وظهرتْ تلك الساحةُ وقد كشَرَت عن أنيابٍ من السيوف وأسنان من الأسِنَّة كأنها لأهل الدنيا فمُ الآخره .

أما الجنودُ فاذا رأيتَهم يلتحمون قلتَ زَلازلُ الأرض قد خُلقتْ على ظهرها ، واذا شهدتهم يقتحمون خِلْتَ نفوسَ الكرام قد حَمَلت على دهرها ، وقد أيقنوا أنهم إن لم يكونوا للموت كانوا للأسْر ، ومن لم يُبْنَ منهم على « الفتح » بُنِيَ على « الكسْر » ، وما منهم الا من يحملُ رأساً كأنه لا يملكه ، على عُنُق لا يدري كيف يُمسِكه ، في بَدَن لا يعرف أيأخذُه الموتُ أم يتركه ؛ فهو لا يُبالي أظلَّته الشمس ، أم أظلَم عليه الرَّمْس ، ونَهَضَ للتاريخ مع الغَدِ أم ذَهبَ في التاريخ مع الأمس ، واذا كان من صِفة الميت أنه اسمٌ في الحياة بغير جسم ، فمن صفة هذا الحيِّ أنه جسمٌ يعيش بغير اسم ، وما الجنديُّ الا عَدَدٌ في حساب الحرب ، فسيَّان

قطعه « الطَّرح » أم أخذه « الضرب » ، وانما هو حيث يتهيأ له انتظارُ الأقدار ، فليس الا الصبر ، ولو فى بطن القبر ، وحيث يُطبَخ له النصرُ على « النار » . فثَمَّ المكان ، ولو في جوف البُركان ، وآيةُ عقله أن يكون كالآلة المتقنة تعمل بلا عقل فلا يخشى الحَيْف ، ولا يسأل لماذا ولا كيف ، ومن ذكائه أن يكون من صحة الذهن . . . بحيث لا يفرق في الموت بين الجمر والتمر ، وأن يكون من « خفة الروح » بحيث تحمله اللفظةُ الخفيفةُ على جَناح الأمر .

وما الحربُ الا أن يتنازعَ الناسُ على الحياة فيقيموا الموتَ قاضيا ، ويطلبوا من الشريعة المدوَّنة فى صَفائح السيوفِ حكماً على الحياة ماضيا ، فكِلا الفريقين يُقدمُ الحُجَج ، من المُهَج ، ويتكلم بألسنة الروح ، من أفواه الجُروح ، ويأتي من بَلاغة الموت فى خِصامه بكل « ضَرْب » ، ويُجري الحياةَ مَجرَى « الاستعارة » فى « بيان » الحرب .

وقد تواقَفَ الرجالُ فى يوم أطولَ من يوم العَرْض ، وتقاذَفوا بالآجال حتى أوْشكَتِ السماءُ لكثرة ما ينزل منها

أن تقع على الأرض ، فالخيل منقضة كأنها صواعق أرسلها الموت في أعنه ، أو نوازع من السحاب بروقها الصوارم والأسنة ، مسرعة كأنها تسابق تلك المنايا التي جرت بها الأقدار ، جائلة كأنما تحيرت كيف تفر من ساحة الموت بما حملت من الأعمار . وعلى ظهورها كل فارس كأنه بين الرماح أسد فى غاب ، وكأن الموت من سيفه سم خلق فى ناب ، وكأن العنان فى يده سوط ولكنه سوط عذاب ، لم يعد فى الفرسان ، حتى لم يعد من الانسان ، فاذا صاح بقرنه عرفت الوحوش ذلك الصوت ، واذا هاجته الحرب لم يفته من ضروب النقمة فوت ، واذا نظر الى مقتل عدوه حسبت عينيه نقطتين على تاء الموت .

وقد ثار الغبار كأنه طريق يمد من الأرض الى السماء ، أو كأنما أراد أن يمثل السحاب وقد رأى المطر تمثله الدماء ، أو كأنه أرض ثامنة بدأت تتخلق في الفضاء ، أو كأنه لما رأى الحرب تتوقد هب مستجيرا من الرمضاء ، أو هو قد فر من الأرض لما خشي أن تتفلق الأرض من حوافر

الخيلِ ، أو كأنه أنِفَ أن يأتي الناسُ أعمالَ اللُّصوص في نور الشمس فضرب عليهم قُبَّةً من الليل ، أو حسبَ عُقول الجند في أيديهم وأرجلهم ... (١) فطار ينظر أينَ تلك الهام ، أو هو لما رأى المطرَ أحمرَ خَشِيَ على الأرض فثار ينظر ماذا دهى الغَمام .

والمدافعُ قد رمت الأرضَ بزِلْزالها ، وألقت على الجند من شرٍّ أفعالها ، فتركتهم كالغابة الملتفَّة إذا استطارَ فيها الحريق ، وانحطَّ فريقٌ من أشجارها على فريق ، وكأنما انقضَّ عليهم من قنابلها جِدارٌ من الجحيم ، وكأن كل مدفع في صَيْحة الحرب إنما هو عُنُقُ شيطانٍ رجيم .

تحْمل في بُطونها أجِنَّةً من النار ترتعدُ الحصون لِهوْل مِيلادها ، وتخشى القِلاعُ مخافةً منها على أولادها (٢) ، ولها صوتٌ بعيد كأنها تنادي به السماءَ لتُرْسِل المنايا الطّارقه ، أو لتستقبلَ الأرواحَ المفارِقه ، أو كأنه نَشيدٌ فَخْمٌ تفتخر به

(١) لأن أعمالهم كلها من البطش والفتك بالايدى والارجل

(٢) هم الجند

الأرضُ على الرّعدِ والصاعقة ، وهي « القارعةُ وما أدراك ما القارعة » ، أما يومُها فيومَ يكون الناسُ كالفَراشِ المبثوث وتكونُ الجبال كالعِهْنِ المنفوش [1] ، وهو أن لم يكن يومَ النفخ في الصور . فانه يوم تحصيل ما في الصدور [2] ، وان لم يكن يوم يُبعثَر من في القبور فانه يوم يُبعثَرُ الناسُ في القبور . وهو المِدفعُ حَسْبُهُ قوةً أنه من الحديد ، وحسبُ ما يَحْويه قولُ الله عزّ وجل « فيه بأسٌ شديد » ، وحسبُه رُعْباً انه شكلٌ « عصريّ » من عذاب الخَسْف القديم أعدَّه الله لهذا الانسان الجديد ، فكم من حِصْنٍ مَنيعٍ اعتزّ به أهلُه اعتصاماً ، فتركهم فيه تراباً وعِظاماً ، وكم من قلعةٍ شامخةٍ اغترّ الجند بقُواها ، فَدَمْدَمَ عليهم بذَنْبِهِم فسوّاها [3] .

---

(١) العهن الصوف وهذه الكلمات اقتباس

(٢) المراد هنا تحصيل الارواح

(٣) دمدم عليهم طحنهم فأهلكهم والجملة اقتباس من قوله تعالى (فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها)

وأما الرصاصُ فهو من سَماء الموت حَبُّ غَمامِه ، وله صفيرٌ كأنه ترنُّمُ الشيطان ببعض أنغامه ، ولو أن عاصفةً كَنَسَتْ أرضَ الجحيم لما شوَت الوجوهَ بأشدَّ من ناره ، ولا حملتْ من هناك الا ما تحسب هذا الرصاصَ من حَصاه وغُباره ، يَثُورُ كما تثورُ الأعاصير ، ويندفع كما تندفع المقادير ، ويقعُ على الأجسام بالأجل أو يطير ، ويتناثر فكأن فى السماء نجماً تفتَّتَ فسقط ، أو كأن قطعةً ذابت من الشمس فألقت على وجوه الناس هذه النُّقَط ، أو هو فَوْجٌ[1] من ذُباب النار ، هبط الى هذه الدار ، فلا همَّ له الا الجُلودُ وإنضاجُها بلَذْعه ، والعيونُ وإخراجُها بنَزْعه ، والعُروقُ واستخلاصُها ، والدماءُ وامتصاصُها ، والأرواحُ بعد ذلك واقتناصها . وكأنه زَفَرات غير أنها لا تخرج من الصدر بل تنزل فيه ، ولولا أنها تَشويه ولا تَشفيه ، وهو أوقع فى الرؤوس من الأوهام ، وأنفذُ في الأغراض من مكائدِ الأفهام ، وأحرُّ على الأكباد من كل ما يُضرم غضبَ الجبّار

(١) الطائفة والجماعة

المَغِيظ ، وما هو الا العذابُ الرفيع إن كان المدفعُ هو العذاب الغليظ . . .

* * *

وهناكَ من الرَّوع ما لا يُحصيه الوصفُ ولا يُحصِّلهُ ، وإن عرفت آلةُ التصوير كيف تُجْمله فليس يعرف القلم كيف يفصِّله ، ولَعمري لو كان البحر الأسود فى المحْبَره ، لما بلغ في وصف هذه المقبرَه ، غير أنها الحربُ التي ابتدعها العلم لهلاك الانسان ، والقوةُ التي رُزِقها العقلُ فكانت بلاءا على الأبدان . قوة المعجزات التي أركبت هذه الدبابةَ الانسانيةَ على مَتْن الغَمام ، وطوت لها من السماء بين جَناحَي النور والظلام ، فاذا سَمَت « الطيَّارةُ » خَفَضَ لها السحابُ جَناحَ الذُّل ، وأقبلت الملائكةُ تسأل ربَّها ما هذا الجزء من العالم بل ما هذا الكل ، وما هذه الجَرادةُ التي رأسُها في ظهرها (١) ، وسرُّها فى جَهرها ، بل ما هذه الحياة الارضية التي عَرَجت فى السماء فخرجت من حدود دهرها ؛

(١) المراد برأسها الطيار الذي يركبها لانه يكون فى ظهر الطيارة

وما هذا العقل الانساني الذي لا يُوَزَّعُ جاشُه [1] ، والذي يرفعه الى السماء ارتعاشُه ، وهو مع ذلك يندفع على أهله بالويل اندفاعَ السَّيل ، ويطلع نصفُه كالنور على الأرض [2] ليطلع نصفه الآخر كالليل ؟

وهي الحرب العامَّة كأنها ثَوْرة الدهر وقد ضجر من هذا العلم وطُغيانه ، ومل من سماجة إنسانه ، واشتاق الى عصر حيوانه ، فزَفَرَ زَفْرَةً أيقظت الموتَ وكان نائما ، وتركت هذا الانسانَ من الفزَع لِجَنْبه أو قاعدًا أو قائما ، واستنزلت من القضاء ما كان في علم الله غَيْبا ، واشتعل من هولها رأسُ الأرض بِبَياض السيوف شَيْبا ، وجعلت من البيوت قبورًا لأهلها ، وساوت في مَعايش الناس بين صَعْبها وسَهْلها ، وأظهرت لعقول العلماء أن أكثر علمها من فُنون جهلها ... فالأرضُ في بَلاء منتشر لا يُعْرف له حجْم ، والشعوبُ في ظلام من اليأس مُلتهبِ النَّجم ، والدُّوَلُ في عَصر كليل الشياطين كله رَجْم ..!

(١) كناية عن الاضطراب والخوف (٢) كناية عن المخترعات والاعمال النافعة مما به قوام العمران

قال الشيخ علي : تلك هي الحربُ القائمةُ اليوم ولكن كما ترى خيالَ النار في الماء ، أما الحقيقةُ فكل حرف منها جيشٌ وكلُّ كلمة أمَّة ، ووراء ذلك معنى رائع هو استجماع الحياة الأرضية لمقابلة الموت . ولو أن لهذا الكون مرضاً يعتريه كما تعتري الناسَ أمراضُهم لقلت إن شِقَّ الأرض قد ضُرب بالفالج [1] فأصبح شقُّها الآخر لا يكاد يجرُّ ظلَّه حول الشمس لأن الحركة مقسومة بينه وبين ذلك النصف الميت ؛ فقد اشتبكت العلائق بين دُوَل الأرض جميعاً إذ لا تُعرف دولة بين الناس ترعى شعباً من البهائم ، ولما بدأ الانسان يعرف نفسه في عصر العلم والمدنية عرف أخاه لأن أكثر حقيقته الانسانية فيه ومن ثَمَّ اتصل به اتصال اليد بأختها في المعاونة على ما يُسِّرَتْ له كلتاهما ، وجمعَ العلمُ بين هذه الأمم لأنه لا ينتسب لواحدة منها وليس له في الأرض خالٌ ولا عمّ ، ولا يُعرف شيءٌ يقول للعلم « يا بنيَّ » ويقول له العلم « يا أبَتِ » إلا التاريخ الانساني .

(١) هو المرض المعروف وهو استرخاء لاحد شقي البدن

ولهذا سفر بين أمم الأرض كل مايخرج من رأس الانسان وما ينتج من يده واتصل ذلك واستفاض حتى كأنما دارت الأرض دورة جديدة من داخلها فما إن يقع الاضطراب في ناحية منها إلا دخلها من الأثر في سائر نواحيها من هزة ترجف الى زلزلة تهدم الى الخسف الذي يجعل عاليها سافلها.

واني باسط لك شيئاً من الرأي في كلمات قليلة ولكنها كالمعركة الأخيرة التي يحق بها النصر فتكون هي تاريخ الحياة ولا يكون ما سبقها الا تاريخا للموت.

ألا فلتعلم أنه لو كان لحوادث الدهر منذ نشأ الدهر تاريخ صحيح يصف لنا ما كان سبباً في كل حادثة وما صارت كل حادثة سبباً فيه لأثبت يقيناً أن ليس في الأرض شيء من خير أو شر غير ما يلزم لبناء هذا التاريخ الأرضي على الوجه الذي يتفق مع بناء الانسان. والتاريخ يطرد حيناً ثم يعطف ههنا وههنا في مجراه من الغيب فلا يتحول الا انشقت له ناحية من العالم. فان خربت دولة أو سقطت أمة فما هي بصاحبة الدهر كله وقد كان لها قسمها منه ثم عاد الدهر

يطلب قسمة منها . ولن يُجدَّد البناء القديم حتى يكون الهدمُ أولَ العمل في تجديده .

فالحرب شرٌّ لابد منه لأنها من عوامل التحليل والتركيب في تاريخ الانسانية وهي بذلك سبب من أسباب استمراره ، وكل شر لابد منه فهو خير لاغنى عنه . وهل يبتغي الانسان أن تُضرَب العصور والدول كما تُضرب الدنانيرُ والدراهم من معدن معروف على وجه معروف ولغاية معروفة ؟ واذا لم يكن لنا مستقبل التاريخ وكنا في عمر محدود فما نحن والرأيَ في بناء هذا المستقبل ، وكيف نقدم لله آلات البناء ثم نُحكِم الشرطَ أن لايكون في هذه الآلات ما يَحتفِر أو يكسر أو يَرُضّ ؟

إنما يجعل للحرب ذلك الوصف الذي يُطيرُ لها في كل أرض صوتاً (١) بالذم والسوء أنها لاتأتي الابغتةً ولا تُطبق الا في غَفلات العيش وأنها تثور في بياض الأَمْن حمراءَ من لون الموت وتطلع في خصب النعمة سوداءَ من لون القَحْط

(١) كناية عن تحدث الناس عنها بذمها

وتَنْبثِق بالشر من حيث يكون الشرُ مأموناً وتَصبُ المِحْنَةَ على من لا يُطيقها ثم لا تصيب الذين ظلموا خاصةً بل تلِفُّ من جانبي الحياة لفًّا، وهي في كل ذلك البليةُ المكشوفة التي تَشتَهِرها الأَحاديثُ(١) وتَضرب فيها الأَلسنةُ وتسيل عليها الأوهام بما في طباع الناس من طبقات الأخلاق ضعفاً وشدَّةً وخوفاً وطمعاً وبخلاً وكرماً وحذَراً واندفاعاً بحيث تصبح وكأنما ترتمي على رأس كل انسان بالموت أو بالخوف من الموت أو بالخبَر عن الموت أو بما يشبه الموت أو بما يكون الموتُ خيراً منه . وإلا فكم يَتَرَضْرَضُ الناسُ(٢) كل يوم وكم يجدون من صنوف الدَّمار، في الأعمار، ومن ضُروب الأرزاء، في الأرزاق، مالو جُمع بعضه الى بعض في نَسَق واحد لطمَّ على هذه الحروب كلها ولأظهر لك أن في السلم ما هو شرٌّ من الحرب وان لم يصرخ به صوتُ الموت.

وما البغي والظلم والكيد والفتنة والاستبداد ونحوها

---

(١) تذيعها وتشهر بها

(٢) يتكسرون يقال ترضرض الحجر اذا تكسر

مما يشمل أكثر وسائل الحياة الانسانية إلا ضُروب من القتل الخفيّ وربما عُدَّ الموتُ في بعضها راحةً من الموت .. ولكن ذهب بإثمها في اصطلاح الناس أنها خطط موضوعة للمغالبة على الحياة وانها لا تنالهم إلا فرداً فردا، وكأن باطل الأمم غير باطل الأفراد لأن الاجتماع قضى منذ أول العهد به أن تكون الأمة مظهر الشرع وأن يكون الفرد مظهر العقاب . ولكن ليت شعري لِمَ يكون الفرد كذلك من الأمة ولا تكون الأمة كذلك من أمة غيرها ؟

فالحرب هي عقاب الجماعات وهي كذلك ضرورة اجتماعية ولن يخلو منها تاريخ الانسان إلا اذا رجع الناس أمةً واحدة فى تركيب مستحيل لا يتهيأ معه أبدَ الدهر مايَقْسم هذه الأمةَ على نفسها ، ولَعَمْري إن ذلك التركيب الاجتماعي الذي يخلو من الحروب ليُزَهِّد الناسَ فى جنَّة الله ولا يَدَع للأديان محلاً على الأرض، ويحسبون أنه صلاحٌ فى الطبيعة وهو يفسد الطبيعة كلها فما هو إلا خيال شعري فى تاريخ الحقيقة الانسانية وما أرى الحرب الا البرهانَ الذى تُقيمه الطبيعة أحياناً على

فساد ذلك الخيال كلما أوشك الضعفُ الانساني أن يتوهمه حقيقةً . واذا كان الله لم يخلق انسانا من النور فلا تُظلِم نفسُه ولا من الثلج فلا يحمي دمُه ولا من الصخر فلا يَهِنُ كاهلُه ولا من الحق فلا يَحِيفُ على غيره ولا من الرضا فلا يطمع في سواه ولا من السكون فلا يتحرك في نزاع ، فكيف لعَمري يخلق بعضُ الكتاب والفلاسفة هذا الانسانَ الجديد من عناصر السلم وحدها ؟

ألاَ إنّ الانسان لا يولد ساكنًا ولا نظيفًا وإنما يخرج من بطن أمه في ثورة دمويّة تتفجّر من حوله هُهنا وههنا وما أرى الحرب أكثرَ ما تكون الا ولادةً للتاريخ على هذا الأسلوب فكأنّ من التاريخ ما يُولَد على أسلوب الأحياء في ثورة من الدم ومنه ما يُوجَد على أسلوب النبات في تحوُّل ساكن غير منظور .

قال الشيخ علي : والحركات المجهولة في نظام الأرض كثيرة بعضها يجري على الطبيعة وبعضها يجري على الانسان ، فكما يُدكُّ الجبلُ وتُخسفُ الأرض ويطغَى الماء وتثور

العواصف وتنفجر البراكين يجري على الانسان من مثل ذلك فى القحط والوباء والحروب وغيرها ، لأن الانسان فى الحقيقة هو الطبيعة الرفيعة وما القوة المركبة فيه التي تخرج من مجموع غرائزه الا تهيئة حربية فى نفسه ؛ فلولا ان هذا الانسان مهيأ للحروب بأدواتها الطبيعية وان هذه الأدوات هي كذلك من أسباب بقائه اللازمة له لما قامت فى الأرض حرب أبدا ، ولو أبعدنا فى مطارح الفكر ونظرنا من وراء النفوس الانسانية الى ميادين الحروب لرأينا أن الحرب التي تقوم بين الأحياء انما هي حرب قائمة بين مذاهب الحياة .

وكما يجتمع العلماء وأهل السياسة لتنقيح الأنظمة والقوانين تجتمع الأمم المتحاربة لتنقيح الطباع والعادات وما أعجب ان يكون القتل تنقيحاً فى قانون الحياة ... فلا تنظر من الحروب الى هؤلاء المساكين والمتوجعين والمحزونين فذلك كله الى نهاية ولا يبقى منه على الأرض شيء قل أو كثر ، ولا أحمق ممن ينظر ساعة الهدم الى آثار الهدم ولا يعلم ان ذلك سبب لما بعده وانه اذا لم يهلك يوم فى سبيل الغد

هلاك المستقبل كله .

ولكن متى تكون الحرب حقاً ومتى تكون باطلاً فهذا ما لا سبيل الى وجه الرأي فيه وربما كان الجواب عليه سؤالاً آخر ، وهو متى تعرض في حياة الناس تلك المسائل التي لا يصلحون هم أنفسهم لحلها . ومتى تكون الحركة العنيفة التي يتحول بها التاريخ الانساني كلما وجب أن ينحرف ليتبع مجراه من الغيب ؟ أليس ذلك هو السبب في أن العقل أحيانا يكون أول من ينهزم في الحرب كما نراه اليوم فيصبح الفلاسفة والعلماء والمتفننون ولا همّ لهم إلا ادارة حركة الموت هجوماً ودفاعاً وترى الصلوات والأدعية تتصاعد الى الله وفيها ريح الدم والنار كأنها قنابل صُنعت من العواطف ؟

وقد يقول بعضهم ان في الحرب إسرافاً اجتماعياً بما تأخذ من الموتى وما تترك من المَرْضى ولكن كم من الاسراف الطبيعي والأخلاقي في بقاء الناس موفورين بعلومهم وفنونهم وشهواتهم ونعمهم ومصائبهم ونحوها مما يؤدي الى انطواء هذا المجتمع الانساني في الأدمغة والقلوب بما تبعث عليه تكاليف الحياة

الاجتماعية السامية التي تحاول أن تجعل الانسان حيواناً على شكل مخترَع . . ؟ فلا ترينَّ يابنيَّ هذه الوحشية التي تعتري الناس في حروبهم إلا سبباً في رجوعهم بعد ذلك الى الانسانية الخالصة التي أفسدوها بحضارتهم وضربوا عليها الحدودَ من مصطلحات التمدن ومن أصول المعاملة فأصبح الانسان منهم يقضي العمر وهو يتعلم كيف يصير انسانا . . :

وأنا يابنيَّ في خاصَّة نفسي اكره الحرب لأني أراها تصوَّر بكل ألوان الهلاك والخراب فكرة العدَم المبهمة على قطعة من أديم الأرض ، وأمقتها لأنها تُلوِّث الحياة بدماء الرجال، ثم لا تغسلها الا بدموع النساء والأطفال، وأبغضها لأنها تدفن تاريخها الصحيح للمستقبل ولا تترك للحاضر الا تاريخها المُشوَّه في أعضاء الجرحى ؛ ولكن البغض يابنيَّ لا ينفي الحكمة مما تُبغضه وما سرور نصف الناس الا بما يكره النصف الآخر

وأكبر شخص اجتماعي وهو الأمة كأصغر شخص اجتماعي وهو الطفل كلاهما يبكي ويتألم حين يُضْرَب لتأديبه .

« قال الشيخ علي : وهذا آخر قول الشيخ علي ... »

«على الكوكب الهاوي»

طريدةُ بؤسٍ ملَّ من بؤسها الصبرُ
وطالت على الغبراء أيامُها الغُبْرُ

تنكَّرتِ الدنيا لها ورَمَتْ بها
على الكوكب الهاوي حواه فضاً قَفْرُ

وكانت كما شاءت وشاء جمالُها
كما اشتهتِ العليا . كما وصفَ الشعرُ

تلألأ في صدرِ المكارم دُرَّةً
يُحيطُ بها من عِقدِ أنسابها دُرُّ

وما برِحتْ ترقى السنينَ وتعتلي
وكلُّ المعالي في طُفولتها حِجْرُ

فكانت كزهرٍ نضَّرَ الفجرُ حسنَه
ولما علَتْ كالنجم أطفأها الفجرُ

*
* *

رمى الدهرُ أهليها بحرب ولم يُرِدْ
بها الشرَّ لكنَّ الحروبَ هي الشرُّ
ومن يَحْطِمْ الكأسَ الرَّوِيةَ وحدَها
فقد ذَهَبَ اثنان الزجاجةُ والخمرُ
تقاسمتِ الحسنَ الالٰهيَّ واثنتى
يُقاسِمُها فالأمرُ بينهما أمرُ
فللشمس منها طلعةُ الحسن مُشْرِقاً
وفيها من الشمس التَّوَقُّدُ والجمرُ
وللزهر منها نَفْحةُ الحسنِ عاطراً
وفيها ذُبُولٌ مثلما ذَبلَ الزهرُ
وللظَّبْي منها مُقلتاها وجِيدُها
وفيها من الظَّبي التلفُّتُ والذُّعرُ
وما قيمةُ الحسناء بَقْبُحُ حَظُّها
وتَذْوِي بروض الحبِّ أيامُها الخُضْرُ
من الحسنِ معنًى يَهْلِكُ الحسنُ عنده
كما أهلكَ الأزهارَ ذلكمُ العِطْرُ

فلا تفخرِ الحسناءُ فالحسنُ مَظهرٌ
لخالِقِه فيما يُريد به سِرّْ

***

ضعيفةٌ أنفاسِ المُنَى بعد ما غدَتْ
رِقابُ أمانيها يُغلِّلُها الفقرُ
وبين خُطى أيامِها كلُّ عَثْرَةٍ
يُزَلْزِلُ أقدامَ الحياةِ بها العُسْرُ
وزجَّتْ بها الأحزانُ في بحرِ دمعِها
وليس لبحرِ الدمع في أرضنا بَرُّ
يُقاذِفُها موجُ اللَّيالي وما لَهَا
سِوَى زَوْرقٍ وَاهٍ يقالُ له العمْرُ
وما التمستْ رأسَ الرّجا عند صخْرة
فكان سِوَى رأس الرّدى ذلكَ الصَّخرُ
اذا استنبَرْهَا أرسلتْ من دموعها
لآلئَ حُزنٍ كلُّ لؤلؤةٍ فِكْرُ

وإن سألوها لجلجت فكأنما
عرا اللفظ لما مر من فمها سكر
مشردة حيرى تنازع نفسها
فريقان ذل لم تعوده والكبر
وما قتل الذل امرءاً من عبيده
وكم من فتى يرمي بهامته الفخر
ولو أنصف الانسان في قدر نفسه
رأى قدرها أن لا يهون لها قدر
فلا تتساءل كيف تقعد وادعاً
ولكن تساءل كيف يسعى بك الذكر
وكن رجلاً كالضرس يرسو مكانه
ليطحن لا يعنيه حلو ولا مر
ولا تتوقع أي جنبيك واقع
اذا انطبقت يوماً حوادثها النكر
ولكن تلق الدهر غير مفزع
بصدرك ولتعز الخطوب كما تعرو

فعِزُّ الحُسام الهُنْدُوَانيِّ حَدُّه
وذُلُّ العَصا أن العصا كلّها ظَهْرُ

ولن يَهِنَ الحُرُّ انتضى عزَماته
وصالَ بهـا من صبره الخُلُقُ الحُرُّ

وإن تُغلَب الأبطالُ فى كل حَوْمةٍ
فما عُرِفتْ حرْبٌ بها غُلِبَ الصبرُ

* * *

وليـلةِ همٍّ ما يطـيرُ غُرابُهـا
ولا انحطَّ من وَكْرِ الصَّباح له نَسْرُ

تُطِلُّ عليهـا الشُّهْبُ أعْيُنَ نِقمـةٍ
تَطايَرَ فيما بينهـا النظرُ الشَّزْرُ

ويَزْفِرُ فيها الليـلُ زفرةَ ماردٍ
تطيرُ لها من بَرْقهِ الشُّعَـلُ الحُمْرُ

ويَخفُقُ فى أحنائهـا كلُّ عاصفٍ
خُفُوقَ فؤادٍ بات يُسلِمُه الصَّـدْرُ

ويَغضَبُ من آثامِها الموتُ غَضبةً
يُرَجُّ لهـا فى كلِّ ناحيةٍ قَبرُ
دُخانيَّـةٌ هوْجاءُ لو مُـدَّ نقعُها
لقامَ على وادي الجحيمِ بها جِسرُ
وأهونُ ما فى أرضِها وسمائها
على الناسِ هاتيكَ الحزينـةُ والبدرُ
ثوَتْ تحتهـا تلك الفتاةُ عليـلةً
تئِزُّ كما أزَّتْ على نارِها القِـدْرُ
وفى غُرْفةٍ ممـا بَنَى اللهُ لا الورَى
فليس على مَن حـلَّ ساحتَها أجرُ
جوانِبُهـا شرقُ الظـلامِ وغربُهُ
وفى سَقفِها ضاءَت كواكبُهُ الزُّهرُ
ممدَّدةً كالسطر في صَفحةِ المُنَى
وأطمارُها تبدو كما «شُطِبَ[1]» السطرُ

---

(١) هذه الكلمة مما استعمله المولدون وفصيحها الترميج وهو إفساد الاسطر بعد كتابتها وفى معناها ألفاظ أخرى

فإنْ يكُ أهلُ الأرضِ أرقامَ حاسبٍ
فتلك وراءَ العالمين هي الصِّفرُ

* * *

رمتْ عينها يُمنى ويُسرى فلم تجد
على الأرض خلْقاً ليس في جَنْبه غدْرُ
رأتْ كلَّ مخزاةٍ من الشر تلْتوي
ويهربُ ذُعراً من جِنايتها العذْرُ
رأتْ أثرًا تدْمي به الأرضُ والسما
وليس سوى الانسانِ في جرْحِه ظُفرُ
رأتْ ذلك الانسانَ يطغى بعلمه
ويجهلُ أن العلمَ عن جهله زجْرُ
أليس يرى الانسانُ في القِرد شِبهَهُ
فهل ذاكَ الا من تكبُّره سُخرُ
كما عاقبَ اللهُ الأسودَ لِكبْرها
فجاءَ لنا في صورةِ الأسدِ الهِرُّ

رأتْ هذه الحربَ الضَّروسَ كأنها
مَراحِلُ يَطويها من الزَّمن الحَشْرُ
وما حمِدَ الشيطانُ للناس مثلَها
ولا كان للشيطان فى مثلها شُكرُ
وما الحربُ إلا رَجْفة الأرض رجفةً
يموتُ بها عَصْرٌ ليحيا بها عصرُ
وما الحربُ إلا مَطرةٌ دمويَّةٌ
إذا دَنِستْ رُوحُ الورى فهي الطُّهرُ
وما الحربُ إلا غضْبةُ الله لامَستْ
مَخازيَ هذا الدهرِ فانفجر الدهرُ
فيارَبِّ جلَّتْ هذه الحربُ مِحْنةً
على الناس لا الإيمانُ منها ولا الكُفرُ
ففي كل نفسٍ غُصَّةٌ ما تُسيغُها
وفي كل قلبٍ كَسرةٌ مالها جبْرُ
وبين شِفاهِ الناسِ للناس لعْنةٌ
إذا لم يُثرْها الحقُّ ثارَ بها الخُسرُ

وما لَوَتِ الأسيافُ في الأرض عَزْوَةً
من البُغض الا والرؤوسُ لها زِرُ
فلا تَخْدَعوا الانسانَ عن نَزَعاتِهِ
فما الناسُ إلا ما أساؤُا وما سَرُّوا
وكم قيلَ إنسانيةٌ ومَحَبَّةٌ
وعلمٌ وتمدينٌ وأشباهُها الكُثْرُ
فيا قدرًا يجري دماءً ويَلْتظي
سعيرًا أذاكَ الحبُّ أنتَ أم الهجْرُ
ويا هذه لاتجْحَدِي انما الورَى
كما خُلِقُوا والمكرُ بعْدُ هو المكْرُ
وأين من الناس الكمالُ ولم نزَلْ
نَرَى السُّودَ سُودًا ليس يَغْسلِهُم بحْرُ
ولا بدَّ من ضدَّيْنِ في كلَّ حالةٍ
وبينهما إمَّا النَّجاةُ أو الأَسْرُ
بذلك يجري الغيبُ إنْ طار أو هوَى
فان جناحيه المنافِعُ والضرُّ

فلا تطمعي أن تُغْفِلَ الأرضُ أهلَها
ولا مدَّ فوقَ الأرضِ إلاّ له جَزْرُ
ولا تطمعي أن « يرفع » المالُ أنفساً
يُحرِّكُها من ذُلِّ مطمعِها « الجرُّ »
ولا تأملي الأيامَ خُضْراً على المدَى
ففي كل حينٍ يَسقُطُ الورَقُ النَّضْرُ
ولا تسألي الزلزالَ ترقيصَ طِفْلةٍ
وأصغرُ ما في كفِّه الجبلُ الوَعْرُ

* * *

ألا إنما الدُّنيا سَلالِيمُ يرْتقي
بها الناسُ تُغْرِيهم أواخرُها الغُرُّ
تَدَرَّوْا عُلاها للكمالِ وعندهمْ
من العِلمِ أسبابٌ يُقِرُّ لها السِّحْرُ
فما بَرِحوا يرْقَوْنَ كلَّ بعيدةٍ
ولم يعلموا أينَ الكمالُ ولم يَدْرُوا

فلما علَوْا واستَخفُّوا وتتابعُوا

وغرَّهُمُ باللهِ ذلك فاغترُّوا

تَبارَوْا على أعناقِهِمْ وتحطمَتْ

بهم درجاتٌ كان من فوقها النَّصرُ

كذاك سلاليمُ الحياةِ فكلُّنا

طَموحٌ لأعلاها وفي الوسَطِ الكَسْرُ

مصطفى صادق الرافعي

﴿ خطأ وصوابه ﴾

وقعت فى الكتاب أغلاط مطبعية قليلة رأينا أن نصحح منها ما لايحسن إغفاله

الخطأ	صفحة	سطر	الصواب
المَكْسَبَة	٦	٤	المَكْسِبة
الأغنياءَ	١٠	١٦	الأغنياءُ
وتحبله	١٥	٢	وتُحِيله
الموجوات	١٥	١٢	الموجودات
يُصكّ	٥٦	٣	يُسَكّ
الحوادث	١٢٧	١٣	الحواسّ
ماثلا	١٤١	٢	ماثِلا
التى	١٤٧	١٠	الذي
آثار	١٧٤	فى الشرح	آثرنا

حديث القمر

هو صِنْو كتاب المساكين بحيث لا يتم أحدهما الا بالآخر وقد كتب على الطريقة الشعرية التي يكتب على نسقها فحول أدباء الغرب مما يتناول البيان والشعر والفلسفة الأدبية. وهو مفيد فى تربية مَلَكة التصور التي هي أساس الانشاء ولا إنشاء بدونها وقد انتفع منه كثير من الافاضل والأدباء وشهد له بذلك أساتذة العصر وقالت فيه أكبر الصحف العربية : « إن شئت فقل فى هذا الكتاب انه نثر مطرب ولكنه مفصَّل فى آيات ، وشعر مُرْقص ولكنه فى غير أبيات ، بل قلب رقَّ فسال ، وجلَّ فكان الحقيقة ودقَّ فكان الخيال ، بل هو كتاب القلب الانساني لأنه مقالة واحدة صبَّت فيها عواطف النفس صبا في طراز بديع من الانشاء ، وأفرغت حقائق العالم الأرضى فى كلام كأنه من نور السماء » .

ويطلب من المكتبة الازهرية بالسكة الجديدة بمصر وثمنه خمسة غروش غير أجرة البريد

وهذا بيان بعض مطبوعات المكتبة وما يختص بها من الكتب العلمية المفيدة

عدد الاجزاء

١ مصحف شريف بهامشه تفسير الجلالين بحجم صغير بخط عال
١ مصحف شريف بهامشه تفسير البيضاوى
٤ تفسير الامام الجليل عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي
٤ تفسير الامام الجليل الخطيب الشربيني طبع ميرى
٤ تفسير الامام الجليل الجمل على الجلالين طبع ميرى
٢ تفسير الامام الجليل در الاسرار بالحروف المهمله
١ تنزيه القرآن عن المطاعن وباخره مقدمة التفسير للراغب
١ كتاب التوحيد للاستاذ الشيخ حسين والى
١ كلمة التوحيد للاستاذ الشيخ حسين والي
٥ الملل والنحل لابن حزم وبهامشه الملل والنحل للشهرستانى
١ رسالة فى الدور والتسلسل للشيخ الامير طبع ميري
١ مطلع النيرين فيما يتعلق بالقدرتين
٩ البخارى الشريف طبع ميرى بالشكل التام
٢ حاشية الحفنى على شرح الجامع الصغير طبع ميرى
٤ شرح الزرقانى على الموطأ
٥ شرح النووى على مسلم
٣ تيسير الوصول جامع كتب الستة
١ منلا على القاري على نخبة الفكر فى المصطلح
١ البهجة الوضيه شرح البيقونيه فى المصطلح
٢ جواهر الاكليل نظم مختصر خليل بخط مغربى وبالهامش المتن نثرا
٤ منح الجليل على متن خليل للشيخ عليش طبع ميرى
٨ حاشية الرهونى على عبد الباقى طبع ميري
٤ المستصفى للغزالى ومعه شرح مسلم الثبوت طبع ميرى

عدد الاجزاء

٤ تقرير الانبابى على حاشية البنانى على السعد
١ الرسالة البيانيه للشيخ الانبابى على الصبان طبع ميرى
٢ معاهد التنصيص شرح شواهد التلخيص
٢ أساس البلاغه للزمخشرى
٢٠ لسان العرب لابن منظور طبع ميري
١٧ المخصص لابن سيده طبع ميرى
١ لطائف اللغة
٢ كتاب سيبويه بالشكل طبع ميري
١ شرح ابن عقيل ومعه المعرب والشواهد
٢ تهذيب التوضيح فى النحو والصرف
٤ يتيمة الدهر للثعالبى
١ الصناعتين لابى هلال العسكرى
١ دستور معالم الحكم لسيدنا على بالشكل التام والشرح للرافعي
١ أطواق الذهب للزمخشري بالشكل التام والشرح للرافعى
١ أطباق الذهب للاصفهانى بالشكل التام والشرح للرافعى
١ مقامات الزمخشرى بالشكل والشرح للمؤلف
٣ الامالي لابى على القالى طبع ميري بالشكل التام
١ كليله ودمنه بشرح المرصفي
١ الادب الكبير بشرح المرصفى
١ صهاريج اللؤلؤ للسيد توفيق البكرى
٢ الشريشى على مقامات الحريري طبع ميرى
١ آداب اللغة العربية للاستاذ الاسكندرى
١ تمرين الاملاء للشيخ حسين والى

عدد الاجزاء

٢ آداب العرب لمصطفى صادق أفندى الرافعى بجزء أول وثانى
١ حديث عيسى بن هشام لمحمد بك المويلحي
١ الاضاد فى اللغة لابن الانباري
٢ ديوان الحماسه بالشكل التام بشرح مختصر للرافعى
٤ ديوان الحماسه بشرح التبريزى طبع ميرى
١ ديوان الترياق الفاروقي
١ النظرات لمصطفى صادق الرافعي
١ ديوان عمر بن أبى ربيعه مشكول بشرح العنانى
١ ديوان سيدنا حسان مشكول بشرح العنانى
١ الهاشميات بالشرح والشكل للرافعي
٢ مقامات الحريري طبع ميري
١ مقامات بديع الزمان بالشرح والشكل للرافعي
٧ تاريخ ابن خلدون طبع ميري
١٢ تاريخ ابن الاثير طبع ميري
٤ تاريخ بن خلكان مع ذيله طبع ميرى
٢ تاريخ ابن الوردى
٤ خلاصة الأثر فى أعيان ال
١ الطالع السعيد فى تراجم
٢ وفاء الوفا فى أخبار دار ا
٤ علم الدين لعلى باشامبارك
٢ الخطط التوفيقية لعلى باشام

(ويوجد بالمكتبة الازهرية كتب

(الفنون ومستعدة لكل

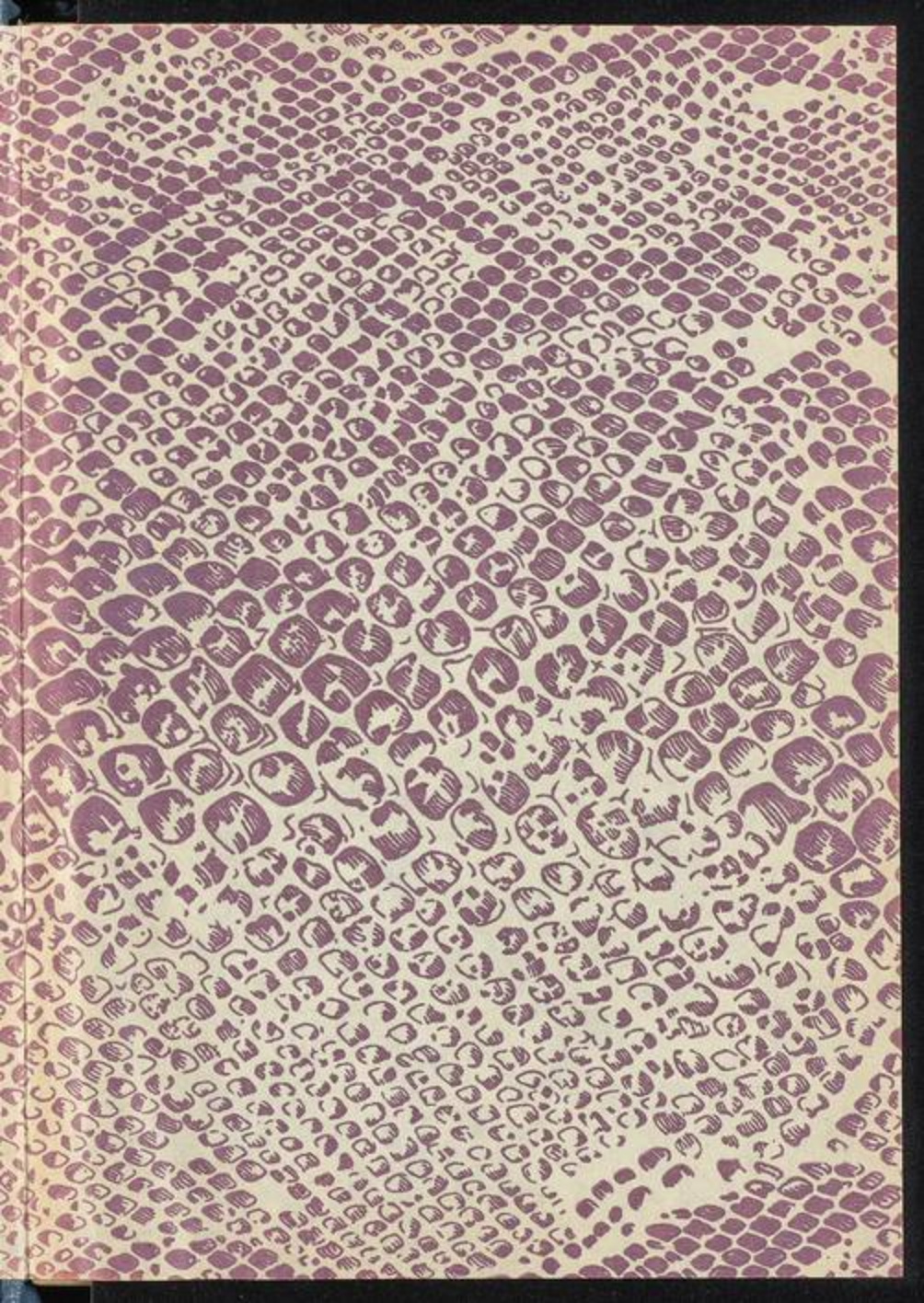

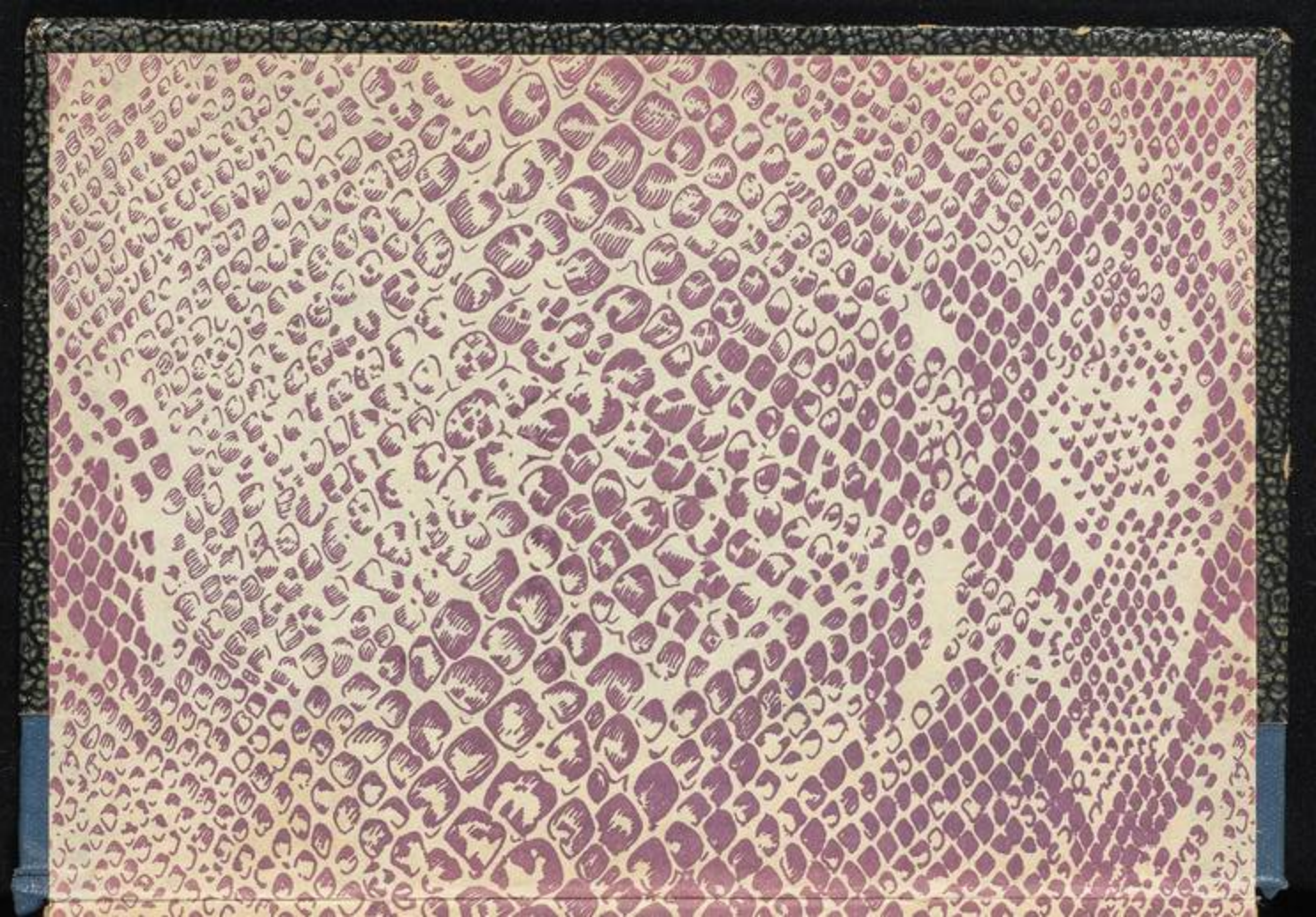

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU59577258
ME06754 Kitab al-Masakin.
RECAP